د. السيد محمد الحسيني البهشتي

المعرفة

في نظر القرآن

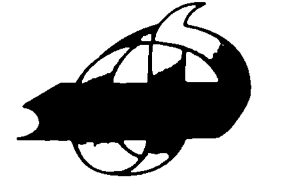
ترجمة
علي الهاشمي



دار الهادي
بيروت - لبنان


شبكة الفكر
alfeker.net

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

المعرفة في نظر القرآن

الدكتور السيد محمد الحسيني البهشتي

ترجمة
علي الهاشمي

مراجعة
موسى قصير



مُقَدِّمَة

الكتاب الذي بين يديك يتألف من مجموعة ثلاثة عشر بحثاً، تحت عنوان **(المعرفة في نظر القرآن)** قدَّمها آية الله الشهيد الدكتور بهشتي بين عامي ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨م، ومكان إلقاءِ هذه الأبحاث هو منزله الشخصي، فمنذُ عودته من ألمانيا صيف عام ١٩٧٠م، كثُرت المراجعات والطلبات بشأن الالتقاءِ به للاستفادة من بحوثه وكلماته، ولأنّه كان حريصاً علىٰ تنظيم وقته، فقد قرَّر تخصيص فترة ما بعد الظهر من كلِّ يوم أربعاء لهذا الأمر، وكان من نتائج هذا القرار أن اقترح بعض المشاركين في تلك اللقاءات طرح بحوث في الجانب النظري من الدين، الأمر الذي حظي بترحيب الدكتور بهشتي.

وكان بحث المعرفة أحد الموضوعات التي وقع عليها الاختيار، وينبغي أن نذكر للقرّاء الذين لم يدركوا تلك السنوات، أنه علىٰ الرغم من أنَّ البحوث المتعلّقة بمجال نظرية المعرفة، كانت مطروحة دائماً علىٰ صعيد التفكير الفلسفي والبحث العلمي منذ بضعة آلاف من السنين، وكانت تشغل حيّزاً مهمّاً من النشاط الفكري، ولأجل ذلك كانت من البحوث الدائمة الحيوية، وكان لها حضور دائم وضروري علىٰ ساحة التلاقحات الفكرية، إلاّ أن طرح الدكتور بهشتي لمبحث المعرفة في ذلك الوقت احتلّ رقعة لفتت أنظار المناضلين والناشطين في مجال النهضة آنذاك.

في تلك السنوات كان يتمّ تداول مبحث المعرفة علىٰ شكل كرّاسات أو كتب تحمل هذا العنوان، يتداولها المفكرون والنّاشطون في المجال السياسي والاجتماعي من ذوي الرؤىٰ الماركسية، وشريحة من المثقفين

والمجاهدين المسلمين ـ الذين كانوا مضافاً إلى مشاركتهم الفعّالة في الحركات السياسيّة السرّية والعلنيّة، وخاصة في الحركات المسلّحة السرّية ضدّ النظام الشاهنشاهي الظالم ـ كانوا يزاولون نشاطاً أيديولوجيّاً ويبذلون من أجل ذلك جهوداً منظّمة، ممّا تمخّض عن طرح أسئلة كثيرة في هذا المجال.

وكان من الطبيعي أن يبحث كثير من الشبان ـ الذين يدرسون في الجامعات أو خارجها ـ عن أجوبة واضحة ومقنعة عن تلك الأسئلة من الأشخاص الذين يرونهم علىٰ معرفة عميقة وعلم بالدين، يجعلهم جديرين بتحمل مسؤولية الإجابة.

وكان الدكتور بهشتي يعدّ من جملة علماء الدين، خصوصاً عند المتنوّرين من العلماء، ومَن يتمتعون بوضوح الرؤية، سيَّما بالالتفات إلى معرفته المباشرة بالفكر الغربي من مصادره الأصليّة، ومعرفته العميقة ونقده العلمي لهذا الفكر، وقد بادر للاستجابة لهذا الطلب ـ كما هو مشهود في أكثر مؤلفاته ـ مسترشداً بالقرآن الكريم، مبيّناً بواسطته أجوبة المسائل المطروحة في هذا المضمار، وبهذه الطريقة قام بإحياء القرآن بوصفه ـ في اعتقاد المسلمين ـ كتاب هداية للناس جميعاً.

ومع إمكان طرح بحث المعرفة بلغةٍ فنّية وفلسفيّة، نجد الدكتور بهشتي يفضّلُ الحديث بلغة قابلة للفهم من قِبَل جميع المخاطبين، مراعاةً للمستوى العام للحضور؛ فعلىٰ الرغم من أنَّ بعض الحاضرين كانوا من الدارسين والطلاّب ذوي المطالعة المكثّفة لتلك الفترة، إلاّ أنَّ أغلبهم لم يكونوا بالمستوى الكافي من المعرفة بمقدمات الفلسفة ومصطلحاتها.

وممّا يلفت النظر موقفه إزاءَ بحث المعرفة، فعلى الرغم من موافقته علىٰ طرح هذا البحث، إلاّ أنه أشار إلى محدوديّة استعماله، وطلب من المشاركينَ في تلك الجلسات أن ينظروا للبحث بواقعيَّة، وأن لا يضفوا علىٰ

البحث أكثر من قيمته، طالباً منهم تجنّب الإفراط في تصوير أهمية البحث، ووضعه في مكانه المناسب.

وثمّة ملاحظة أخرىٰ نشاهدها في طيّات صفحات هذا الكتاب، وهي أسلوب تعامله مع المخاطبين، فعلىٰ الرغم من وضوح ارتفاع مستوىٰ معلوماته عن مستوىٰ السائلين في كثير من الموارد، إلاً أنه كان يواجه أسئلتهم برحابة صدر، ويجيب عن اشكالاتهم بأسلوب جذّاب وممتع، وذي أثر تربويّ في عصرنا الراهن، وهذا بحدٍّ ذاته مؤشّر علىٰ طبيعة العلاقة المتبادلة القائمة بين علماء الدين المتنوّرين من جهة، وبين المثقّفين من المتدينين من جهة أخرىٰ.

وللأسف الشديد لم يقدّر لهذا البحث أن يكتمل، لتقارنه مع تصاعد الثورة الاسلامية، وسفره إلى أوروبا وأمريكا للقيام بالتنسيق الضروري بين المجاهدين الايرانيين المسلمين المقيمين في تلك البلدان، وبين الحركة الجهادية المتنامية ضد النظام الظالم والمستبد في الداخل، ولم تتوفر الفرصة لإتمام هذا البحث علىٰ الرغم من انعقاد بعض الجلسات في عام ١٩٨٠م تناولت هذا الموضوع، بعنوان (المعرفة في إطار الفطرة) وحضرها الطلبة الجامعيّون من أعضاء الحزب الجمهوري الاسلامي، وقد نشرت مجموعة محاضراتها بالعنوان المذكور من قِبَل مؤسسة نشر آثار وأفكار الشهيد آية الله الدكتور البهشتي.

ويجدر بنا في الختام أن نتقدم بخالص شكرنا لجناب السيد مرودشتي، علىٰ جهوده المخلصة التي بذلها في تدوين وتقويم وتنظيم هذا الكتاب، وما سجّله في حاشيته من توضيحات ضروريّة لمطالبه.

مؤسسة نشر آثار وأفكار
الشهيد آية الله الدكتور البهشتي

الجلسة الأولى

بحثنا في هذه اللقاءات، بعد غروب الشمس، وإقامة الصلاة، منذ الساعة السابعة إلاً ربعاً حتىٰ الساعة الثامنة والربع، أي أنه يستغرق ساعة ونصف الساعة، وفي هذا الوقت سأعرض موضوعاً للبحث، ثم أترك لكم فرصة المناقشة وتبادل النظر، وفي الساعة الثامنة والربع سننهي الدرس أينما وصلنا، لتكون الجلسة حرَّة ولتوجيه الأسئلة بشأن الموضوع المطروح.

وقد تقرّر من الآن فصاعداً أن يشارك الإخوة الحاضرون في هذا البرنامج، وعليه طلبنا من الإخوة الحاضرين أن يشاركوا بالقيام بأعمال تحقيقيّة بالقدر الذي تسمح به امكاناتهم.

إنَّ بحث المعرفة يبدأ عادة ببيان تعريف المعرفة، ولا بدَّ لنا بهذا الشأن من المحاورة مع الإخوة الحاضرين، وسنبيّن في الأسبوع القادم حدَّ المعرفة من وجهة نظر بعض المذاهب الفكريَّة، ومن الأعمال التي يستطيع الإخوة الاضطلاع بها للقيام بتجميع تعاريف المعرفة من مختلف المصادر والكتب، وحتى من الكرّاسات التي تقع تحت أيديهم، ويتفضلون بعرضها قبل شروع البحث في الأسبوع القادم، أو يحتفظون بها لديهم ليقوموا بمقارنتها مع ما سوف أطرحه من تعاريف خلال البحث.

مصطلحات المعرفة:

قبل الدخول في أيّ مبحث حول المعرفة من الضروري التعرف علىٰ مصطلحاتها، بنحو يزوّد الأخوة بوعي أكثر فيما يتعلّق بهذه المصطلحات، خاصة مع ضرورة متابعة الإخوة لاستعمال هذه المصطلحات في القرآن

الكريم بنحوٍ قطعي، وفي نهج البلاغة إلى حدٍّ ما، وفي بعض النصوص التي تتعلق بمسألة المعرفة، مثلاً: في أبواب (العلم) و(العقل والجهل) من كتاب أصول الكافي، وغيره من المصادر الأخرىٰ، أقول هذا للإخوة شديدي العلاقة بالفكر، وقد حدَّدت المصطلحات التي نحتاجها في هذا المجال في إحدىٰ وعشرين نقطة[1]، وسوف أقرؤها عليكم بالترتيب وبإمكانكم أن تقوموا بكتابتها:

١ ـ الإدراك الحسّي والإدراك غير الحسّي، الأخذ، الفهم.

٢ ـ المعرفة، الإدراك، التشخيص، العرفان.

٣ ـ العلم، الفهم.

٤ ـ التعقُّل، الوعي.

٥ ـ اليقين، الجهل، القطع، التصديق، ويرتبط بذلك التصديق والاعتقاد.

٦ ـ الظن.

٧ ـ الشكّ.

٨ ـ الوهم، أو التوهّم.

٩ ـ الاحساس، الرؤية، السمع، الشهادة، الوضوح، الشهود، العين، الأذن، الإدراك الحسّي.

١٠ ـ التصوّر.

١١ ـ الفهم، الفقه.

١٢ ـ الفكر، التفكّر، الادراك غير الحسّي، النظر السطحي، الفكر البسيط، النظر العميق، الفكر العميق، التدبّر.

---

(١) لكنها في الكتاب (٢٣) نقطة (المراجع).

١٣ ـ الغيب، الخفاء.

١٤ ـ الذكاء، الحكمة، العقل، الذهن، الفكر، المخّ، الدّماغ.

١٥ ـ القلب، الفؤاد.

١٦ ـ الذهن.

١٧ ـ التذكّر، الحافظة، الذكر، الاستحضار، النسيان.

١٨ ـ الكشف، المكاشفة، الغيب، الخفاء.

١٩ ـ التعلّم، التعليم.

٢٠ ـ الوعظ، الاتعاظ.

٢١ ـ الهداية، الاهتداء، الرشد، الرشاد، معرفة الطريق، الإضلال، الضلال، الغيّ.

٢٢ ـ الايضاح، التبيين، الكتمان، ستر الحقيقة.

٢٣ ـ التصوّر المبهم، التصوّر الواضح.

هذه هي المصطلحات التي ينبغي للإخوة المشاركين في بحث المعرفة أن يتابعوها؛ فإنَّ لكلٍّ منها ناتجاً ومفهوماً ومعنًى دقيقاً، ونحن في أثناء البحث سنتعامل مع هذه المصطلحات كثيراً، وأرجو أن يتفضّل أحد الإخوة بقراءة ما ذكرته لكم، ليقوم الباقون بضبط وتصحيح ما كتبوه، لكي لا يقع أيّ اشتباه [أحد الحاضرين يقرأ النقاط الثلاث والعشرين].

إنني أعتقد أنَّ البحوث الفلسفية نوعان، أولهما: بحوث يجب أن يتابعها الإنسان من السماء إلى الأرض، أي أنها تكون في السماءِ أولاً، ثم تنزل إلى الأرض، [والنوع الآخر على العكس] والأسلوب الأوّل لا عيب فيه طبعاً، وأنا لا أعترض عليه، ولكنَّ هذا المسار يتمّ لأفرادٍ معدودين، أي

أنه لا يوجد في المجتمع البشري دائماً إلاّ أفراد قلائل يتمكنون من الأنس بهذا النوع من البحوث، وهم أولئك الذين يبدأون أوّلاً بالتفكير والتدبّر في السماء، ثم يشرعون بالهبوط إلى الأرض رويداً رويداً، وقد سعيتُ شخصياً لأن تكون جميع بحوثي وأعمالي بعكس هذه الطريقة تماماً، وإذا لم يحالفني التوفيق أحياناً، وانتهجت أسلوباً آخر، فهذا علىٰ خلاف رغبتي، إنني أُحبُ دائماً أن أبدأ من الأشياء التي في متناول أيدينا ليتمكن الناس أن يشرعوا من نفس الأشياء الحاضرة لديهم ويمضوا قُدُماً، وفي الحقيقة أن يبدأوا من الأرض ليصلوا إلىٰ أي مكان ممكن، وعلى هذا الأساس بدا لي أنَّ من النتائج الناجمة عن هذا الأسلوب أن تقوموا أنتم أوّلاً بالاطلاع علىٰ الألفاظ والمصطلحات التي نواجهها في ميدان المعرفة، بالرجوع إلى المعاجم العادية المتداولة حاليّاً.

وقد روعي في ترتيب هذه المصطلحات وتصنيفها ما يساعد علىٰ الشروع في التفكير، أي أنكم كنتم حتىٰ الآن تتعاملون مع هذه الكلمات بشكل منفصل وغير مقسّم، ومنذ الآن سنتعامل مع هذه المصطلحات بهذا التبويب، الذي يحرّك الانسان ويدفعه إلىٰ الاطلاع علىٰ الموضوع، وهذا التحريك يؤدّي إلى حصول التحرّك للبحث عن المعرفة، لكني أطلب من الإخوة الراغبين (إذا رأى بعض الحاضرينَ تلك الليلة أنّه يستحسن التعريف بالمصادر) أن يبدأوا قبل كل شيء بتتبع آثار هذه المصطلحات في القرآن الكريم وفي نهج البلاغة، وفي الكتب والكرّاسات والمقالات المتوفّرة في مجال المعرفة، وعلى هذا الأساس بوسعكم ترتيب المعلومات التي تكرّرت عليكم، بنحو يجعلكم ـ حينما ندخل البحث بعون الله ـ حاضري الذهن وقادرين علىٰ طرح أسئلة ناضجة.

وإذا كان لديكم أيّها الإخوة ما يكمل قائمة مصطلحات المعرفة، وهناك حاجة إلى الإضافة والتكميل، فإنني أمنحكم علىٰ الأقل فرصة خمس دقائق لكتابة المصطلحات الفائتة، وسنقوم بعدئذٍ باستعراض هذه

المصطلحات تِباعاً، ونضيف ما هو مناسب لها، ولا بد طبعاً من الالتفات إلى أنني ـ وإن أضفت إلى هذه المصطلحات ما يرادفها في اللغة العربية والفارسيّة، إلاّ إنني ـ لم أكن بصدد استقصاء جميع المترادفات، وما ترونه أحياناً حتىٰ في الأصل الواحد للمصطلح مثل (الكشف) و(الفكر) من طرحي لبضعة اصطلاحات، فإنما هو لأجل إحاطتكم علماً بالكلمات التي تستعمل في مجال بحثكم، ولم أبغِ من ذلك جمع المترادفات فقط، ولأجل ذلك لم نحفل بتكثير المترادفات، واقتصرنا علىٰ ذكر المترادفات ذات الأثر في تعميق الفهم. حسناً، لدينا الآن خمس دقائق من الوقت، يتمكن خلالها الأخوة من اقتراح مصطلحات جديدة.

[أحد الحاضرين]: ما رأيكم بإضافة مصطلح (اللمس)؟

[الدكتور بهشتي]: مثلاً في جملة: إنني ألمس الموضوع، أو الملموس، في نظري يستحسن إضافة هذا المصطلح، ضعوا هذه الكلمة في النقطة رقمِ واحد (جنب الأخذ والفهم).

[أحد الحاضرين]: نستطيع أن نضيف كلمة (اللمس) بوصفها مصطلحاً، ولكن بعنوان. . .

[الدكتور بهشتي]: مقصوده هو أننا نقول أحياناً هذه المسألة يجب أن تكون ملموسة للانسان.

[الشخص نفسه]: عليه تضاف بوصفها مصطلحاً؟

[الدكتور بهشتي]: نعم، غاية الأمر أنه مصطلح يزوِّد الانسان بسلسلة من الأوصاف، وهذا النوع من المصطلحات لا بأس بإضافته، ما دام يقوم بتوضيح ما يحتمل خفاؤه علينا.

[أحد الحاضرين]: ما رأيكم بإضافة مصطلح (القول)؟

[الدكتور بهشتي]: القول هو طريق التواصل، ونحن أساساً لا نريد أن

نعدّد أقسام الحواس، وإنما نريد ذكر المصطلحات الشائعة الاستعمال في كلامنا، ونحن نرىٰ أنَّ الألفاظ الخاصة بكثير من الحواس، مثل: الذوق الشمّ، ليست مستعملة في قاموس بحوثنا المعرفيّة، علىٰ الرغم من دخالتها في المعرفة، وأشير مرّة أخرىٰ إلى أننا نريد أن نبدأ هذا البحث من المسائل العاديّة والمتعارفة، ولا نريد أن نشير إلى الاصطلاحات العلميّة وآلاف الموضوعات الأخرى المتعلقة بهذا الشأن.

[أحد الحاضرين]: التجسّم والتخيّل.

[الدكتور بهشتي]: إنَّ التجسّم والتخيّل لا يعطياننا شيئاً جديداً، ولكن يمكننا أن نضيف: الخيال والتخيل برقم أربع وعشرين.

٢٤ ـ الرؤية الواقعيّة، التخيّل.

في بحوثنا ستأتي مواضع نحتاج فيها إلى التمييز بين الواقعيّة والمثاليّة، وعليه أضيفوا نقطة برقم خمس وعشرين.

٢٥ ـ العيني والذهني.

هل هناك اقتراح آخر؟

[أحد الحاضرين]: التجزئة والتحليل.

[الدكتور بهشتي]: لا بأس، يمكن إلحاق ذلك بالنقطة الثانية عشرة، لكي تصبح هكذا: التجزئة، التحليل، الاستنتاج.

وتستطيعون إضافة نقطتين أخريين هما:

٢٦ ـ الحدس.

٢٧ ـ الالهام، الوحي.

ولكي لا أنسىٰ، أضيفوا كلمة (الاذعان) بعد التصديق في النقطة الخامسة.

هل ذكرت كلمة (الرؤية الواضحة) أم لا؟

[الحاضرون]: لا.

[الدكتور بهشتي]: إذن، أضيفوا إلى النقطة الثانية عشرة: وضوح الرؤية، والبصيرة، والتبصّر. وأضيفوا أيضاً إلى النقطة الثالثة والعشرين: الرؤية الواضحة والبصيرة، وهما بنفس معنىً التصوّر الواضح.

[أحد الحاضرين]: لم تذكروا ما يقابل الألفاظ المذكورة.

[الدكتور بهشتي]: نحن لا نذكر الألفاظ المقابلة إلاّ في مواضع الحاجة إليها.

[أحد الحاضرين]: ما هو المراد بالإدراك غير الحسّي؟

[الدكتور بهشتي]: هذا مصطلح سوف نشرحه فيما بعد، الادراك غير الحسّي مقابل للادراك الحسّي، يعني في مقابل ما نتلقّاه عن طريق الحواسّ.

[أحد الحاضرين]: فيما يتعلّق بـ(الرؤية) أريد أن أعلم أن (الفناء) أو (الفقدان)...

[الدكتور بهشتي]: أين هذا المورد؟

[الشخص نفسه]: قلت إنه يتعلّق بالنسيان.

[الدكتور بهشتي]: كلا، إن الاختفاء حقيقة لها واقع خارجي، ولا علاقة لها ببحث المعرفة.

[الشخص نفسه]: ماذا بشأن الفقدان؟

[الدكتور بهشتي]: كلا، إنه كذلك أيضاً، إن الفقدان له واقع خارجي، وما ذكرناه ينحصر في دائرة المعرفة. ما قلناه ينحصر في المعرفة، أي إن النسيان أو الضياع الفكري مرتبط ببحث المعرفة.

[أحد الحاضرين]: الآية.

[الدكتور بهشتي]: الآية بمعنى العلامة، حسناً، إذن أضيفوا:

٢٨ ـ الآية، بمعنى العلامة، وأضيفوا أيضاً: الدليل، البرهان، السلطان (بمعنى البرهان القاطع) وهو مصطلح قرآني، قال تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَآ﴾[1] والفرقان (أي: ما يفرَّقُ به) والميزان، الاستدلال.

اسمحوا لي بإضافة المصطلحات الخاصة القرآنية أيضاً، إذ أخشىٰ أن يكون قد تأخَّر ذلك، فقط قلنا في إحدىٰ النقاط: الفكر، التدبّر، التعقّل، وأضفنا (النظر) إلى تلك النقطة أيضاً (الثانية عشرة) أضيفوا (النظر) إلى النقطة الثامنة والعشرين أيضاً، إذن (النظر) سيأتي في موضعين، هل هناك اقتراح آخر؟

[أحد الحاضرين]: الاستقبال.

[الدكتور بهشتي]: الاستقبال؟ كلا، هذا من المباحث التي ستأتي عقيب مبحث المعرفة، وهناك مقدمة لبحث المعرفة، كنت أظن أنَّ الفرصة سوف تتاح لي الليلة لبيانها، ولكن يبدو أنني لن أتمكن من ذلك، سأطرح المقدمة في الأسبوع القادم، وقد أوضحت في هذه الجلسة بحث المصطلحات، لتتمكنوا بذلك من الشروع في العمل، وتتهيّأ لكم أرضية الاستعداد، أليس لدىٰ السادة اقتراح آخر؟

في مبحث الاستدلال ودليل البرهان (النقطة الثامنة والعشرون) أَضيفوا: القياس والمقايسة والاستقراء والإحصاء، والاستقراء مصطلح إذا أردنا أن نجد اليوم مرادفاً له، فربما كان المناسب لذلك هو الإحصاء بوصفه من وسائل المعرفة، أليس هناك اقتراح آخر؟

---

(١) سورة يونس/٦٨.

[أحد الحاضرين]: التحقيق.

[الدكتور بهشتي]: التحقيق مصطلح عامّ، لا نستطيع أن نضعه إلى جانب المصطلحات المتقدمة، هل هناك اقتراح آخر؟

[أحد الحاضرين]: الشعور.

[الدكتور بهشتي]: أضيفوا الشعور إلى جانب الوعي، في أيّة نقطة ذكرنا الوعي؟

[بعض الحاضرين]: في النقطة الرابعة.

[الدكتور بهشتي]: أجل، ضعوا الشعور والوقوف إلى جانب الوعي، والوعي الذاتي، هل هناك اقتراح آخر؟

[أحد الحاضرين]: التحليل.

[الدكتور بهشتي]: التحليل مثل التحقيق، إنّ التحليل والتحقيق والتمييز وأمثالها من الأمور الكلّية.

[أحد الحاضرين]: التأمّل.

[الدكتور بهشتي]: ضعوا (التأمل) في النقطة الثانية عشرة.

[أحد الحاضرين]: ماذا عن التفحّص؟

[الدكتور بهشتي]: التفحّص نفس الاستقراء تقريباً، شبيه بالاستقراء، وماذا بعد؟

[أحد الحاضرين]: هناك التعمّق أيضاً.

[الدكتور بهشتي]: قلتُ إن ما له مرادف ليس بنافعٍ لنا.

[أحد الحاضرين]: الانتقاد.

[الدكتور بهشتي]: النقد، الاختبار، لا بأس. ما هو رقم النقطة الأخيرة؟

[أحد الحاضرين]: ثمان وعشرون.

[الدكتور بهشتي]: ضعوا في النقطة التاسعة والعشرين: النقد، إعادة النظر، إعادة الرؤية، إعادة الفكر، الاختبار.

[أحد الحاضرين]: السؤال والاستفهام.

[الدكتور بهشتي]: كلا، هذا متعلّق بالطرق. اذكروا ما له علاقة بالمعرفة.

[أحد الحاضرين]: التوجيه.

[الدكتور بهشتي]: التوجيه، كلا، ولكن بهذه المناسبة أتذكر كلمة التقويم، أضيفوا كلمة التقويم إلى النقطة الأخيرة.

[أحد الحاضرين]: المعنىٰ والمفهوم والمصداق.

[الدكتور بهشتي]: نعم. . المعنىٰ والمفهوم والمصداق، صحيح، هذه من المصطلحات التي نحتاجها، إذن:

٣٠ ـ المفهوم والمصداق.

[الشخص نفسه]: الحقيقة.

[الدكتور بهشتي]: الحقيقة والواقعيّة، صحيح، ضعوا هذين في النقطة رقم خمس وعشرين، إلى جانب العيني والذهني.

[أحد الحاضرين]: التعميم.

[الدكتور بهشتي]: في أية نقطة وضعنا التجزئة والتحليل؟

[الحضور]: الثانية عشرة.

[الدكتور بهشتي]: ضعوا هناك أيضاً التجريد والتعميم.

[أحد الحاضرين]: التجسس والتفحص.

[الدكتور بهشتي]: كلا، قلنا إنَّ هذا عامٌّ مثل التحقيق.

[أحد الحاضرين]: الإثبات والإنكار.

[الدكتور بهشتي]: الإنكار ليس جزءاً من البحث، ولكن ضعوا (الاثبات) إلى جانب (الاستدلال) في النقطة الثامنة والعشرين.

[أحد الحاضرين]: الحكم والقضيّة.

[الدكتور بهشتي]: الحكم والقضيّة، أين وضعنا التصديق؟ في النقطة الخامسة، أضيفوا لها الحكم والقضيّة.

[أحد الحاضرين]: الدلالة والمطلوب.

[الدكتور بهشتي]: هما موجودان ضمن الدليل والاستدلال.

[الشخص نفسه]: الرقابة.

[الدكتور بهشتي]: كلا، الرقابة في قسم العمل.

[الشخص نفسه]: الروح، الظهور، التجلّي.

[الدكتور بهشتي]: كلا، هذه لا تعطينا شيئاً إضافيّاً.

[أحد الحاضرين]: البحث، التدبّر.

[الدكتور بهشتي]: كلا، هذه لا تلهمنا شيئاً جديداً، لاحظوا أنني أبدي اهتماماً بتلك المصطلحات التي تأخذ بأيدينا في أبحاثنا القادمة، ونتوقع أن تقوم بهدايتنا، ولا أريد أن نتوجه إلى المصطلحات الخاصّة، ونبتعد بذلك كثيراً عن المصطلحات العرفية.

[أحد الحاضرين]: الخطأ.

[الدكتور بهشتي]: الخطأ، نعم، إذن:

٣١ ـ صحيح، خطأ.

[أحد الحاضرين]: الفكرة.

[الدكتور بهشتي]: كلا.

[أحد الحاضرين]: الاستخراج، الاستنباط.

[الدكتور بهشتي]: نعم، ضعوا هذا في النقطة الثانية عشرة: الاستخراج، الاستنتاج، الاستنباط.

[أحد الحاضرين]: الجمود، التحجّر، الانحراف الفكري، الركود، السكون، الموقف، الطفرة، الانقداح، الوجود، الجهة، الهدف، الطريق، الأسلوب، العلاقات، الدافع، الإقبال، الحثّ، الحكم المسبق، التنقيب.

[الدكتور بهشتي]: الحدس في أيّة نقطة؟ السادسة والعشرون، ضعوا هناك كلمة: البحث، الطفرة والانقداح (في الذهن).

[أحد الحاضرين]: الأسلوب، الطريقة.

[الدكتور بهشتي]: نعم، ضعوا لذلك نقطة جديدة:

٣٢ ـ الأسلوب، الطريقة.

[الشخص نفسه]: التعصّب.

[الدكتور بهشتي]: التعصّب، ضعوا هذا في نقطة الجمود.

[أحد الحاضرين]: الإيهام والاشارة.

[الدكتور بهشتي]: ضعوا في نقطة سبعة وعشرين: الإيهام والإشارة إلى جانب الوحي والإلهام، ويمكن وضعهما في النقطة الثالثة عشرة إلى جانب الغيب والخفاء والظاهر والباطن، والاستبطان.

[أحد الحاضرين]: ألا نستطيع وضع كلمة التمثيل إلى جانب الاستقراء؟

[الدكتور بهشتي]: التمثيل داخل في القياس، سوف أُبيّن ذلك بعدئذٍ، ونحن عادة نستعمل كلمة القياس بدل التمثيل.

ذكرتُ قبلاً، وأكرر الآن، لتكن المصطلحات التي يقترحها الإخوة من المصطلحات المتعارفة والمتداولة، ولا يجنحوا إلى المصطلحات الخاصة كثيراً.

[أحد الحاضرين]: ألا يمكن أن نذكر التجريد؟

[الدكتور بهشتي]: كلا، هذا شيء آخر، أضيفوا:

٣٣ ـ الرؤية الضيّقة، الرؤية الشاملة.

في النقطة الأولى التي لدينا فيها الإدراك والاستلام، أضيفوا: الحصول، الوجدان، واكتبوا أيضاً نقطة جديدة (أربع وثلاثون) وسجّلوا فيها: الفطري والغريزي، والنظري، إذن:

٣٤ ـ الفطري، البديهي، النظري.

[أحد الحاضرين]: الاستعداد.

[الدكتور بهشتي]: الاستعداد، كلا، ولكن بمناسبة ما تفضلت باقتراحه، تذكرتُ اصطلاحاً آخر عامّاً وهو: التذكر، ضَعوه في النقطة التاسعة عشرة، كان لدينا هناك: التعلّم والتعليم، والآن أضفنا: التذكّر.

[أحد الحاضرين]: تكامل المعرفة.

[الدكتور بهشتي]: كلا، تكامل المعرفة ليس داخلاً في قائمة المصطلحات.

[أحد الحاضرين]: الحق والباطل.

[الدكتور بهشتي]: الخطأ والصواب في أي نقطة كان؟

[الحاضرون]: الحادية والثلاثون.

[الدكتور بهشتي]: أضيفوا إليها الحق والباطل، هل هناك اقتراح آخر؟

[أحد الحاضرين]: الفرضيّة.

[الدكتور بهشتي]: مرةً أخرىٰ اتجهتم إلى المصطلحات الخاصة، ولكن لا بأس بهذا الاصطلاح، أضيفوا إلى النقطة الرابعة والثلاثين: الفرضية، النظرية، القانون العلمي. طبعاً تجاوزنا قائمة المصطلحات قليلاً، ولكن الفرضية تقريباً من المصطلحات التي أصبحت عامّة.

[أحد الحاضرين]: الالتفات.

[الدكتور بهشتي]: الالتفات، كلا، ولكنّ (الانتباه) جيّد، أضيفوه إلى النقطة السادسة والعشرين، بل في النقطة السابعة عشرة لدينا (التذكر) فأضيفوا الانتباه هناك أيضاً.

[أحد الحاضرين]: التجريد، المجرّد.

[الدكتور بهشتي]: لدينا تجريد، ولكنَّ المجرّد لا يدخل فعلاً في هذه القائمة من المصطلحات.

[أحد الحاضرين]: الغريزة.

[الدكتور بهشتي]: لا تدخل في هذه المصطلحات.

[أحد الحاضرين]: الشرك.

[الدكتور بهشتي]: لا يأتي في بحثنا.

[أحد الحاضرين]: الترديد.

[الدكتور بهشتي]: الشرك والترديد، ضعوا كلمة (الترديد) في النقطة التي سبق أن أدرجنا فيها الشك، وهي النقطة السابعة.

[أحد الحاضرين]: التداعي.

[الدكتور بهشتي]: نعم، أين أوردنا التذكّر؟

[بعض الحاضرين]: السابعة عشرة.

[الدكتور بهشتي]: أضيفوا إليها التداعي.

[أحد الحاضرين]: الذكرىٰ.

[الدكتور بهشتي]: لا تزوّدنا بشيء.

[أحد الحاضرين]: الانتزاع.

[الدكتور بهشتي]: في النقطة التي ذكرنا فيها التجريد، ضعوا كلمة الانتزاع، وهي الثانية عشرة.

[أحد الحاضرين]: ما معنىٰ الانتزاع؟

[الدكتور بهشتي]: إنه مثلُ التجريد، حينما نطرح بحث قيمة المعرفة سوف يتضح أنَّ الانتزاع من أكثر البحوث حيويةً، سأوضح ذلك بمثال: نحن نبحث عن (الانسانية) وننتزع معنىٰ الانسانية من أفراد الإنسان، وأصل المعنى هو الفصل أو الاقتلاع، أي: ننتزع معنىٰ من شيء ما.

[أحد الحاضرين]: الإشراق.

[الدكتور بهشتي]: ضعوا الإشراق إلى جانب الوحي والإلهام، في النقطة السابعة والعشرين. في أيّ نقطة وضعتم المكاشفة؟

[بعض الحاضرين]: الثامنة عشرة.

[الدكتور بهشتي]: انقلوا المكاشفة من هذه النقطة وضعُوها في النقطة السابعة والعشرين، لتكون مع الاشراق في نفس النقطة.

[أحد الحاضرين]: التفكير الحرّ.

[الدكتور بهشتي]: كلا.

[أحد الحاضرين]: الإيمان.

[الدكتور بهشتي]: نعم، أضيفوها إلى النقطة الخامسة.

[أحد الحاضرين]: الكفر.

[الدكتور بهشتي]: كلا، لا نريد الألفاظ المقابلة.

[أحد الحاضرين]: الثبوت.

[الدكتور بهشتي]: كلا، ما ينفعنا هو (الاثبات) وسوف يأتي في بحوثنا طبعاً، وإن لم يكن له ارتباط مباشر بمصطلحات المعرفة.

[أحد الحاضرين]: الاحتمال.

[الدكتور بهشتي]: الاحتمال، نعم، ضعوه في النقطة السابعة مع الشك والترديد.

[أحد الحاضرين]: القطعيّة.

[الدكتور بهشتي]: القطعيّة تدخل تحت الجزم والقطع.

[أحد الحاضرين]: المطلق.

[الدكتور بهشتي]: المطلق، نعم، نحتاج إلى نقطة جديدة، اكتبوا:

٣٥ ـ المطلق، النسبي.

[أحد الحاضرين]: الشبيه والشبهة.

[الدكتور بهشتي]: كلا.

[أحد الحاضرين]: الشرط والمشروط.

[الدكتور بهشتي]: كلا، طبعاً سنتطرق لذلك في بحثنا، ولكنه ليس جزءاً من قائمة المصطلحات.

[أحد الحاضرين]: الالتفات.

[الدكتور بهشتي]: سبق أن ذكرناه.

[أحد الحاضرين]: الاختيار، الهدف.

[الدكتور بهشتي]: كلا.

[أحد الحاضرين]: الاجتهاد.

[الدكتور بهشتي]: لا بأس، ضعوا الاجتهاد في النقطة الرابعة والثلاثين إلى جانب التقليد.

[أحد الحاضرين]: المنطق والطريقة.

[الدكتور بهشتي]: أين كان الأسلوب؟

[بعض الحاضرين]: الثانية والثلاثون.

[الدكتور بهشتي]: ضعوا هناك كلمة المنطق أيضاً.

حسناً، انتهىٰ وقتنا، أُضيف عشر دقائق عِوضاً عمّا أخذته أثناء الوقت، والآن نستخلص النتيجة، ترون أنه بالتوافق والانسجام، حينما نبني علىٰ التعاون في إنجاز عمل، فإننا سنصل حتماً إلى نتائج أفضل، غاية الأمر يتعيّن علىٰ الإخوة في هذه الفرصة أن ينجزوا بعض العمل، وليس بوسعي أن أشخّص أيَّ فرد يقوم بأيِّ عمل، ولكنني أرجو الإخوة الذين ينوون المطالعة حول هذا البحث، أن يقتسموا الكتب والبحوث التي يريدون مطالعتها مع رفقائهم، بنحو لا يؤدي إلى أن يُطالع كتابٌ مّا من قِبَل ثمانية أشخاص، بينما يبقىٰ كتاب آخر لا يطالعه أيّ شخص، وحتى أولئك الإخوة الذين يمتلكون الوقت ولديهم عزم علىٰ مطالعة القرآن الكريم، ينبغي أن يتقاسموا العمل، مثلاً بأن يأخذ كلّ واحد من خمسة أشخاص ستة أجزاء من القرآن، فيطالعها ويستخرج ما له علاقة بموضوع بحثنا.

ومن الضروري أن تحظىٰ قائمة المصطلحات التي سجلناها بالاهتمام الدقيق من قِبَل الإخوة، فيتأملون فيها ليروا هل أنها واضحة في أذهان

الجميع، وهل أنها تستعمل في معانٍ جليّة نسبيّاً، أم لا؟ وإذا كان الجواب بالنفي، فعليهم أن يستفسروا عن ذلك، بنحوٍ يجعلنا حينما ندلف إلى البحث لا نواجه أيّما إبهام، وأنا لا أريد أن أتوجه نحو المصطلحات الخاصّة، وإذا ابتعدنا أحياناً عن المصطلحات العاديّة المألوفة، فإنّما ذلك بحكم الضرورة.

وأودّ أن أشير إلى هذه النقطة، وهي: انني علىٰ الرغم من اتقاني لبعض اللغات الأوروبّية إلى حدٍّ مّا نسبة لباقي أقراني المعممين، ومجبر علىٰ إجراء مطالعات كثيرة في الكتب الأوروبية، إلاّ أنني لا أرتاح للافراط في استعمال المصطلحات الأوروبية أساساً، وليس لديّ حافز علىٰ استعمال تلك المصطلحات أساساً، وسترون في نفس بحثنا هذا عن المعرفة حينما نمضي فيه قُدُماً، أنَّ معظم المصطلحات موجودة في لغتنا المتعارفة، ولن نضيف شيئاً باستعمال المصطلحات الأجنبية، بل إننا سنجعل من مشكلة التعلم والفهم في مجتمعنا تتفاقم يوماً بعد يوم، وهو عمل مخجل وبالغ القبح، وبما أني أعدّه عملاً سيّئاً فاسمحوا لي أن لا أرتكب هذا العمل، أقول هذا نظراً لأنني لا أريد أن أُتهم بأنَّ عدم استعمالي لهذه المصطلحات راجع إلى جهلي بها، ولا يصحّ توجيه هذا الاتهام لي، لذا فإني أحرص علىٰ تجنّب استعمال المصطلحات الأجنبيّة، وفي البحوث التي سندخلها، سنعتمد علىٰ هذه المصطلحات المتعارفة لدينا، وسنسعىٰ إلىٰ الاستعانة بها أحياناً. وسأحاول فقط أن أقف علىٰ نقاط محددة وأقول: ما دمنا قد انتهينا إلى هذه النتيجة، نرىٰ أنَّ اللفظة الاصطلاحية الفلانيَّة مثلاً تقابل بمصطلح يوزيتفزم، وإن المصطلح الفلاني يقابل الديالكتيك، لنعلم أنَّ هذه المصطلحات التي ترد في بحث المعرفة بكثرة، هي نفس المصطلحات المعروفة لدينا، لكنهم يقومون بتهويلها علينا.

اغتراب الأمة عن ذاتها:

من أساليب سلخ الأمة وفصلها عن ذاتها، أن ترهن رأسها وقلبها وعقلها وفكرها وسمعها جميعاً للأجنبي، وإنني لأعجب ممَّن يتحسّسون من بعض المصطلحات العربية الأصل التي لا يشعر أحدٌ في الوقت بأصولها العربية، نظراً لكثرة استعمالها ورواجها بين الناس، ويريدون تنقية لغتنا من المصطلحات الأجنبيَّة، لكنهم لا يفكرون بالمصطلحات الغربية التي بدأت تتسرب إلى الفارسيّة علىٰ الرغم من أنها لم تتأصّل في لغتنا لحدّ الآن، ولا يهتمّون بالعمل علىٰ الوقوف في وجهها، مع أن استعمال هذه المصطلحات يؤدّي في الواقع إلى تعقيد المطالب، ويحول دون فهم الناس حتىٰ للمواضيع التي لا يشكّل فهمها صعوبة تذكر.

وفي بحثنا عن المعرفة، أودّ أن لا يتوقّع الإخوة أنني عازم علىٰ الدخول في أعماق البحوث الفلسفية، بل سأسعىٰ إلى العبور من جانبها حسبما تقتضيه الضرورة. إنَّ لديَّ بحوثاً فلسفية لأهل الاختصاص، ونستطيع أن نتبادل معهم ما يشاؤون من الاصطلاحات القديمة والجديدة، ولكن مجال هذه البحوث هو المحافل الأكاديمية، التي يكون فيها استعمال هذه المصطلحات ضروريّاً، شريطة أن لا يكون داءً مزمناً، في تلك المحافل أتكلم بمصطلحاتنا الفلسفية، وبمصطلحات الغرب. لكنني عازم علىٰ الاستفادة هنا من مصطلحاتنا التي رأيتموها، تعلمون كم نحن أغنياء من حيث مقدار المصطلحات، وإذا كنّا نتمتع بهذا العدد من المصطلحات، فما الذي نريده بعد؟ إنني أظن أننا لسنا بحاجة حتىٰ لخمسة مصطلحات جديدة. حسناً، سنشرع بما لدينا من مصطلحات، ولكننا سنبحث الموضوع بوضوح وعمق، إنني أقبل العمق، وأرفض السطحيّة، إنني مع التعمّق في البحث، والرؤية الشاملة، وأرفض البحوث التي لا أثر لها في هذه الرؤية، نعم في مجال اختصاصي فإني أناقش زملائي من أهل الاختصاص بلغة أخرىٰ عند الضرورة، بتلك الكلمات والمباحث التي يتقنونها، ولو أنني نفسي لم أكن مطلعاً علىٰ هذه المباحث،

فإنني لا أقضي الوقت بالذهاب للمراجعة في المعاجم المتعارفة والعودة منها، وعليه لا مناص لنا من تربية مجموعة علىٰ معرفة هذه المصطلحات والاختصاص بها، الأمر الذي أنا مشغول به حاليّاً، ولكن هذا العمل تخصصي، ولا علاقة له بكم. ما علاقة هذه البحوث بعباد الله، لِكي يجب عليهم أن يجدوا طريقاً يصلون عن طريقه إلى ما يجب أن يصلوا إليه؟ إنني مخالف للتعميم في هذه البحوث، رغم أنه ضروري في موضعه، إنَّ فحوىٰ بحثنا أن نطرح عليكم أيّها الإخوة مباحث المعرفة بالمستوىٰ الضروري لكم، وعلى هذا الأساس فإنني أيضاً سأنظر قبل كلِّ شيء إلى بحث المعرفة من وجهة نظر القرآن، وفي الحقيقة فإنَّ أساس البحث هو: المعرفة في القرآن الكريم، طبعاً إذا كان هناك أفراد ممّن يتعشّقون البحوث الفنّية، فإنني علىٰ استعداد حينما ينتهي وقت البحث، أن أعقد معهم جلسة أو جلستين للنزال، لعلّ بعضهم يتمكن من أن يوجّه لي ضربة فنّية.

* * *

توضيـــح:

بدأ سير البحث في هذا الدرس بأن عرض الدكتور بهشتي قائمة من الألفاظ الاصطلاحية، ثم أخذ في تكميلها بمشاركة الحاضرين في الجلسة، وسنحاول هنا أن نسجّل الصورة النهائية لقائمة المصطلحات بعد الاضافات والتعديلات التي طرأت عليها:

١ ـ الإدراك الحسّي والإدراك غير الحسّي، التسلّم، الاستلام، اللمس، الحصول، الوجدان.

٢ ـ المعرفة، الفهم، التعرّف، العرفان.

٣ ـ العلم، المعرفة.

٤ ـ الوعي، الشعور، الوقوف، الوعي الذاتي.

٥ ـ اليقين، الجهل، القطع، التصديق، الاعتقاد، الاذعان، الحكم، القضية، الإيمان.

٦ ـ الظن، التصوّر.

٧ ـ الشكّ، الترديد، الاحتمال.

٨ ـ الوهم، التوهّم.

٩ ـ الاحساس، الإبصار، السماع، الشهادة، الوضوح، الشهود، العين، الأذن، الإدراك الحسّي، اللّمس.

١٠ ـ التصوّر.

١١ ـ الفهم، الفقه.

١٢ ـ الفكر، التفكير، التفكّر، الادراك غير الحسّي، البحث السطحي، التفكير البسيط، النظر العميق، الفكر العميق، التدبّر، التجزئة، التحليل، الاستنتاج، الاستخلاص، الرؤية الواضحة، الرؤية، البصيرة، التعقّل، النظر، التأمّل، التجريد، التعميم، الأخذ، الاستنباط، الجمود، الانتزاع.

١٣ ـ الغيب، الخفاء، الظاهر، الباطن، النظرة المبطنة.

١٤ ـ الذكاء، الحكمة، العقل، الفكر، المخّ، الدّماغ.

١٥ ـ القلب، اللب، الفؤاد.

١٦ ـ الذهن.

١٧ ـ التذكّر، الحافظة، الاستذكار، النسيان، الذكر، التنبّه، التداعي.

١٨ ـ الكشف، الغيب، الخفاء (كانت المكاشفة هنا، ونقلت الى النقطة رقم٢٧).

١٩ ـ التعلّم، التعليم، الاستعلام.

٢٠ ـ الوعظ، الاتعاظ.

٢١ ـ الهداية، الإرشاد، الاهتداء، الرشد، الرشاد، الضلال، الإضلال، الغيّ.

٢٢ ـ الايضاح، التبيين، الكتمان، الستر.

٢٣ ـ التصوّر المبهم، التصوّر الواضح، الرؤية الواضحة، البصيرة.

٢٤ ـ الرؤية الواقعيّة، التخيّل، التخييل.

٢٥ ـ العيني، الذهني، الحقيقة، الواقع.

٢٦ ـ الحدس، التنبّه، الانقداح (في الذهن) القفزة.

٢٧ ـ الإلهام، الوحي، الإيهام، الاشارة، الاشراق، المكاشفة.

٢٨ ـ الآية، الدليل، البرهان، السلطان (البرهان القاطع) الفرقان، الميزان، الاستدلال، النظر، القياس، المقايسة، الاستقراء، الإحصاء، الإثبات.

٢٩ ـ النقد، التقويم، إعادة النظر، الاختبار.

٣٠ ـ المفهوم، المصداق.

٣١ ـ الصواب، الصحيح، الغلط، الخطأ، الحق، الباطل.

٣٢ ـ الأسلوب، الطريقة، المنطق.

٣٣ ـ الرؤية المحدودة، الرؤية الشاملة.

٣٤ ـ الفطري، الغريزي، النظري، الفرضيّة، النظريّة، القانون العلمي، التقليد، الاجتهاد.

٣٥ ـ المطلق، النسبي.

الجلسة الثانية

دور المعرفة في حياة الانسان:

قلنا في مقدمة هذا البحث: من الضروري أن نتوصل إلى موضوع مّا، بعد الالتفات إلى هذا الموضوع في حدود ما تقتضيه هذه المقدمة، والتوجه إلى البحث عن المعرفة، وهذا الموضوع هو: دور المعرفة في حياة الانسان.

لا شك أن للمعرفة في حياتنا دوراً أساسيّاً، ذلك أن الانسان لولا المعرفة لما استطاع الوصول إلى كثير من الأشياء، فإذا أردتم التوجه من هنا إلى أحد الأماكن في المدينة، فلا شك أنكم تحتاجون للوصول إلى هناك إلى مقدار من المعرفة، لا يكفي مثلاً أن تعلم بأنَّ عمّك مقيم في طهران، ولو أنك اعتمدت علىٰ هذه المعلومة فقط وتوجّهت إلىٰ طهران للوصول إلى بيته، فإنّ من الممكن أن تقضي ستة أشهر دون أن تصل إليه، إنك بحاجة إلى معرفة عنوانه وما يرشدك إليه. إن معرفة العنوان الصحيح لمنزل عمّك أمر ضروري لوصولك إليه، وإن تأخّرك عن الوصول إليه مدة ستة أشهر راجع إلى فقدك للمعرفة بالعنوان، ولذا يتعيّن عليك أن تسأل هنا وهناك لتحصل علىٰ العنوان، لأنَّ معرفتك له ضروريّة للوصول، ومن البديهي أن يكون بلوغ الأهداف الأساسية والمعقَّدة فيما يتعلّق بالفرد أو المجتمع أو الحياة العامة للبشر، وحلّ ما يواجه الانسانية من مشكلات، يحتاج إلى معرفة أوسع وأعمق، ولا أظن أن هذه المسألة يعتريها أقل غموض بالنسبة لكم، لذا لن أتوقف لبحثها.

إن ما أريد أن أعرضه في هذه المقدمة هو موضوع آخر، وهو:

المبالغة في دور المعرفة في حياة الانسان، إن هناك شيئاً من المبالغة نراه فيما يتعلّق بدور المعرفة والوعي في حياة الانسان، حتىٰ في أكثر الكتابات الاجتماعية دقة في هذه السنوات الأخيرة نجد مقداراً من المبالغة. وفي هذه المقدمة أريد أن أبيّن تلك المبالغة والأقوال الجزافيّة، وحاصل هذه المبالغة هو: ادّعاء أنَّ المعرفة هي التي تبعث الناس وتدفعهم للسعي والعمل، أي أنهم عرّفوا المعرفة بوصفها عامل التحريك للانسان.

مقياس تأثير المعرفة في تحريك الانسان:

هل المعرفة هي عامل تحريك؟ وهل هي محفّز؟ إن طرح المعرفة بوصفها محفّزاً، بل محفّزاً أساسيّاً، أدّىٰ إلى المبالغة في دور المعرفة في حياة الانسان، وإن الدقَّة تشير لنا أن المعرفة لم تكن محفّزاً في وقتٍ مّا، إن ما يحفّز الانسان للكدح والعمل هي ميوله ورغباته، فإذا أراد الانسان شيئاً، كانت هذه الإرادة هي المحفّز له علىٰ التحرك والعمل، حينما يكون بصدد إشباع ميوله ورغباته فإنه يتوجه إلى العمل، ويشعر بحاجته إلى المعرفة. إن دور المعرفة يتمثل في كونها ترينا كيف وبأيّة طريقة نؤمّن رغباتنا ونقوم بإرضائها، في نفس المثال المتقدّم، كنتَ لسببٍ مّا راغباً في لقاءِ عمّك في طهران، أو أنك مشتاق لرؤيته وقد ضاق صدرك لفراقه وأردت زيارته، أو لديك عمل يقتضي مقابلته، وعلى أيّ حال هناك باعث يدفعك للقائه، وبعد توفر الباعث لديك، تحتاج لمعرفة عنوانه، وتأثير المعرفة يبرز في أنها تقول لك الآن كيف يمكنك ملاقاة عمّك، فإذا لم تكن تعلم بكيفية الوصول إلى منزل عمّك، فإنك ستقع في المتاعب، وتتلف وقتك وجهدك. إن دور المعرفة كبير جداً، إلاّ أنها ليست محركاً ومحفّزاً علىٰ أية حال، وإنما المحرّك هو الميول.

[أحد الحاضرين]: عفواً، إن الميل متفرّع عن المعرفة الأولية بالعم، فإذا لم يكن هناك معرفة، لم يكن هناك باعث علىٰ لقائه.

[الدكتور بهشتي]: تفضّل، من أيِّ قبيل.

[الشخص نفسه]: كأن نعرف العمَّ، ونعلم بما يحتاجه.

[الدكتور بهشتي]: معرفة حاجتك الذاتية؟ يعني معرفة ميلك؟

[الشخص نفسه]: يعني أن هناك عوامل تجذبني إليه، وبمعرفة تلك العوامل تُثار ميولي، فأتحرك باتجاه عمّي.

[الدكتور بهشتي]: كلا، هنا أيضاً يكون الميل هو المحرّك لك، دقّق جيّداً، إن الحركة تبدأ دائماً بسبب رغبة قد استثيرت، بيّن أنت نفسك نوع الميل ضمن مثال.

[الشخص نفسه]: لو لم أكن أعرف عمّي منذُ البداية، لما حصل لديَّ أي ميلٍ للالتقاء به.

[الدكتور بهشتي]: هذا صحيح بالنسبة للالتقاء به، لو لم تكن تعرفه لما كانت لديك رغبة للقائه، ولكن ماذا عن الالتقاء بأهلك ومعارفك؟ كذلك بالنسبة للالتقاء بأيّ إنسان يمتلك كمالات عمّك، إنك تميل للالتقاء بكلِّ أولئك، هناك ميلٌ كامن فيك، إنك تميل للالتقاء بأحد أقاربك الطيبين، ترغب بلقاء أحد أعضاء أسرتك وأقاربك، هذا الميل متحقق لديك، ثم لأنّك تعرف عمّك، فإنَّ معرفتك تلك كانت لإرضاء ميولك، أي أنَّ عمّك يقع في دائرة ميلك، وهذا هو عمل المعرفة دوماً، إنها تضع الأشياء في نطاق الميل والرغبة، وإلاّ فما هو الشيء الذي يكون باعثاً ومحرّكاً للانسان؟

[الشخص نفسه]: إنّه الميل نفسه.

[الدكتور بهشتي]: نعم، إن المعرفة بذاتها لا تستطيع أن توجد أيّ نوع من التحريك. هل يمكنها ذلك برأيك؟

[أحدهم]: نعم، يمكنها.

[الدكتور بهشتي]: كيف؟

[الشخص نفسه]: إنني أسعىٰ لمعرفة عمّي، وحينما أعرفه أدرك أنه يمتلك خصائص جذّابة، ومعرفة هذه الخصائص ستكون باعثاً لانجذابي إليه، ومحركاً للذهاب لمقابلته، وقد تمرَّ سنوات لا أهتمّ بها بعمّي، ولكنني حينما أتعرّف عليه وعلى كمالاته، فسأتحرك نحوه.

[الدكتور بهشتي]: حسناً، دقّق في الأمر، قلتَ: وجدت فيه كمالات جيدة، وحينما أعلم أنَّ عمّي يمتلك خصائص جذّابة، إنَّ هذه الجاذبية لا تتعلّق بالمعرفة، إنك في الواقع تنجذب تلقائيّاً إلى تلك الخصائص والكمالات، وهذا الانجذاب هو الذي يضع عمّك تحت دائرة تحركك.

[الشخص نفسه]: كلا، إنني لا أعلم بتلك الكمالات أساساً، لقد عرّفني بها شخص آخر، أريد أن أقول: قبل أن يتعرّف الشخص شيئاً مّا، لن يكون لديه أيّ محرّك وباعث للاتجاه نحو ذلك الشيء.

[الدكتور بهشتي]: نعم، هنا يكمن الموضوع، هنا بداية الانعطاف نحو الموضوع، قلتُ: يمكن أن يكون هناك من يرىٰ أنَّ المعرفة هي المحرّكة، والآن تبدّل هذا الامكان إلى واقع، انظروا، إذا لم يكن في داخلكم رغبة كامنة بشيءٍ مّا (الكمال مثلاً) فإن مجرد معرفتكم به وحدها لا توجد لديكم الحركة، المعرفة لا تحرّك الشخص نحو شيء لا رغبة له فيه، إنَّ لدينا عدداً كبيراً من المعارف والمعلومات، لكنها توجد لدينا أيَّ نوع من الحركة، يعني: إنَّ معلومات ومعارف الانسان علىٰ ثلاثة أنواع أساسيّة:

١ ـ الأمور التي ليس لها أيّ ارتباط مباشر أو غير مباشر بسلوك الانسان.

٢ ـ الأمور التي لها ارتباط مباشر بسلوك الانسان.

٣ ـ الأمور التي تؤثر في سلوك الانسان بنحوِ غير مباشر.

إنَّ المعارف التي هي من النوع الثاني، لها أثر كبير في حركة الإنسان، والمعارف التي هي من النوع الثالث لها تأثير إلى حدّ مّا، وأما النوع الأول من المعارف فليس له أيُّ تأثير في حركة الانسان، إلاّ البحث وحب الاطّلاع، بوصفه رغبة أخرىٰ لدى الانسان، كرغبة الانسان بمعرفة شيءٍ مّا، وميل الإنسان نحو الاطّلاع، ولكنه سيكتفي بهذا القدر من المعرفة ولا يوجد ذلك عنده حركة. مثلاً: هل أنَّ علمك بأن طول خط الاستواء يقرب من أربعين ألف كيلومتر يوجد لديك حركة؟

[الشخص نفسه]: هذا متعلّق بغريزة حبّ الاطلاع.

[الدكتور بهشتي]: حسناً جداً إنك تريد أن تعلم فقط، إنَّ رغبتك في المعرفة تؤدّي إلى إرادتك العلم بأنّ طول خطّ الاستواء يقرب من أربعين ألف كيلومترٍ، ولكنك بعد أن تعلم بذلك، ماذا يحصل؟ هل يؤدّي علمك بذلك إلى وجود تحرّك؟ إن رغبتك في الفهم ـ وبتعبيرك غريزة الفضول وحبّ الاطلاع ـ تدفعك علىٰ فتح الكتاب لتعلم كم هو طول خط الاستواء بشكل دقيق، ولكن ماذا يحصل بعد أن علمت بأن طوله أربعين ألف كيلومتر وثلاثة سنتمترات وخمسة مليمترات؟ هل يؤدّي علمك إلى حصول حركة لديك؟

[الشخص نفسه]: المعرفة بهذا التعبير الذي تتفضل به، هي بهذا النحو، ولكن التعبير عن المعرفة الذي في ذهني يختلف مع تعبيرك عن المعرفة.

[الدكتور بهشتي]: نحن ننظر إلى المعرفة بمعناها الواسع، بما نعبِّر عنه بـ(أعلم) و(أفهم) فلماذا لا يوجد علمك بطول خطّ الاستواء حركة في حياتك؟ لأنه يتعلّق بموضوع لا علاقة له بالسلوك لا بشكل مباشر ولا غير مباشر، ولكن كيف يكون الأمر إذا ارتبطت هذه المسألة بسلوكك؟ مثلاً إذا أُعلن أنَّ جائزة نوبل سوف تمنح لمن يحدد طول خط الاستواء بشكل دقيق، فماذا سيحصل؟ إنَّ هذه المعرفة ستكون مقدمة لعمل، وهو معرفة

طول خط الاستواء، من أجل الحصول علىٰ الجائزة، يعني أن هذه المعرفة أصبحت منشأً لحركة. أو إذا قيل مثلاً: كلّ من يعرف الطول الدقيق لخطّ الاستواء سيذهب في رحلة فضائية، إنَّ هذه المعرفة ستكون مقدمة لحركة أخرىٰ، ولكنَّ هذه الحركة تابعة لميلٍ آخر. وعليه، فإنَّ ما يدفع الانسان للحركة ليست المعرفة، وإنّما الميول، تقول: إنني أميل بدافع حبّ الاطلاع إلى معرفة طول خطّ الاستواء، في هذه الحالة ماذا سيحصل؟ إن غريزتك تدعوك للوصول إلى هذه المعرفة التي ليس لها من أثرٍ آخر.

إذن فالمعرفة وحدها لا يمكن أن تكون باعثاً ومحرّكاً، إنَّ سلوكنا وأعمالنا تتبع رغباتنا وميولنا. الشيء الذي يحرّكنا هو الرغبات الكامنة في ذواتنا، وكلّما أردت أن تضطر شخصاً إلى العمل والحركة عليك أن تضع أناملك علىٰ ميوله ورغباته، وعليه، فما هو دور المعرفة إذن؟

ما هو دور المعرفة؟

للمعرفة ثلاثة تأثيرات في تحريك الانسان وعمله، وهي:

١ ـ تشخيص المصداق، مثلاً لو كنت مولعاً بالآثار الفنيّة الطبيعيّة الجميلة، فإن هذا الولع والرغبة سيدفعانك إلى الاستفادة من تلك الآثار، إنَّ بعض الأفراد يتذوّقون اللوحات الطبيعية، دون الميناتور أو الاستنساخ.

[أحد الأفراد]: كيف تتكوّن هذه الميول؟

[الدكتور بهشتي]: سأتحدّث عن ذلك فيما بعد، بوسع الإخوة أن يسجلوا الأسئلة التي تدور في أذهانهم، إذن، افترضوا أنَّ لكم رغبة باللوحات الطبيعيّة، وأنتم تحبون أن تتعلموا جيداً هذا النوع من اللوحات والنقوش التي ترونها مرسومة علىٰ الورق أو الجدران، ولكنّكم لا تعرفون الأستاذ القدير الذي يمكنه أن يعلمكم ذلك بشكل جيّد، هنا تقول المعرفة: (اسألوني لأدلّكم علىٰ الأستاذ الذي يستطيع أن يعلمكم ذلك علىٰ أفضل

وجه وفي أقصر وقت) المعرفة هنا ترشدكم إلى مصداق ذلك الأستاذ الماهر، وهذه المعرفة ضرورية لكم؛ إذ لو لم تتعرفوا علىٰ ذلك الأستاذ بالطريق الصحيح، فإنكم قد تتلفون سنوات من عمركم بالتتلمذ لدىٰ استاذ غير كفوء، وتكون النتيجة خراب ذوقكم الفني. إلى هذا الحدّ يبلغ تأثير المعرفة. ولكن أثر المعرفة هنا ينحصر في تعيين المصداق، وإلاّ فإن المعرفة نفسها لا تستطيع أن توجد لديكم الحركة، وإنما المحرّك هو الذوق الفنّي والرغبة في اللوحات والصور الطبيعيّة، وفي هذه الحالة تسعون إلى الشخص القادر علىٰ تعليمكم هذا الفن، ويشبع لديكم هذه الرغبة، إنكم تسعون لتجدوا مصداق هذا الاستاذ، والمحرك لكم هو الرغبة.

٢ ـ أحياناً يكون الانسان عارفاً بالمصداق؛ ولكنه لا يعرف الطريق الصحيح للاستفادة من هذا المصداق، يعني: إن الأثر الثاني للمعرفة هو عبارة عن بيان أفضل الأساليب والطرق للاستفادة من المصداق المعلوم، مثلاً لو عرّفوك بأستاذ بارع في الرسم، وأعطوك عنوانه قائلين: هذا الفنان معلم بارع، يستطيع أن يعلمك هذا الفن الذي تحبّه في أقصر مدّة، ولكن لم يكن لديك اطلاع علىٰ مزاج هذا الاستاذ، افترض أنَّ شخصاً آخر يدرس لدىٰ ذلك الاستاذ، أنتما معاً من تلاميذ ذلك الأستاذ، ولكنه يعرف مزاج الأستاذ دونك، كأن يكون هو علىٰ معرفة بروحيّات وأخلاق الأستاذ، وأنت لا تتمتع بتلك المعرفة، فإنه سوف يحقّق استفادة جيّدة من ذلك الأستاذ، لا تستطيع أن تستفيدها أنت. أحياناً يكون هؤلاءِ الأساتذة غير متماثلين من حيث المزاج، كما يختلفون في الكمالات الشخصيّة، فمثلاً الأستاذ الذي يعاني من عقدة الحقارة أو يكون قليل الشهرة، فإنه يحبُّ أن يخاطبه الدارس لديه بـ(حضرة الأستاذ) وإلاّ فإنه لن يجد من ذلك الأستاذ عناية به، ويقال: إنَّ هذا المرض شائع جداً، وإن البعض لا يرىٰ الخطاب المذكور وحده كافياً، ويرىٰ أنَّ علىٰ الطالب أن يكيل للأستاذ في أوّل اللقاء مقداراً من المدح لكي يدخل علىٰ قلبه السرور.

أتذكر أن أحد أصدقائي الذي كان يدرس في قسم الأدبيّات، كان قد التقىٰ بأستاذ عاش فترة طويلة مغموراً، رغم براعته في مجال الأدب، هذه القصة تعود إلى أربع وعشرين سنة مضت، جاءني هذا الصديق وقال لي: لقد عثرت علىٰ أستاذ بارع، وجدير بالإفادة منه، إنه كنز من المعلومات الأدبيّة، ومتمكّن جداً في بعض أبواب الأدب، وحينما ذهبت لمقابلته عمدت إلى مجاملته وإطرائه.

فسألته: وكيف ذلك؟

قال: ما إن دخلت عليه الغرفة، حتىٰ شرعت بالعمل: غسلت قدح الشاي، ثم صببت له الشاي، ووضعته أمامه بأدب، وقبّلت يده. وبهذا جعلته يشعر بالارتياح، وعندها لا يمكنك أن تتصور علىٰ أيّ ثروة من المعلومات الأدبية حصلت.

لقد تفهّم مزاج الأستاذ، فجنىٰ فائدة عظيمة، وكان لهذا الطالب رفيق منافس له، تعرّف علىٰ الأستاذ نفسه، لكنه لم يكن عارفاً بأساليب المجاملة والمداراة، فلم يرضِ مزاج الأستاذ، ولم يتمكن من الإفادة منه طويلاً.

إذن، هذا نوع من تأثير المعرفة، وهو بيان طريق وأسلوب الاستفادة من المصداق الذي يعرفه الانسان.

٣ ـ الأثر الثالث للمعرفة هو: تنمية الموول الكامنة في داخل الانسان. إن الانسان يعرف بسهولة قسماً من ميوله الذاتية، أنت تميل إلى تناول الطعام وتشعر بالجوع، فالجوع والرغبة في تناول الطعام من عوامل التحريك لدىٰ الانسان، والرغبة الجنسية لدىٰ كلّ شاب من الذكور والاناث، قابلة للفهم والإدراك، الرغبة في الاحترام وطلب الجاه والشهرة، عادةً كل إنسان يحبُّ أن يكون محترماً، ونادراً ما نجد إنساناً لا يحب أن يعامل باحترام، وإن تشخيص هذه الرغبات لدىٰ الانسان ليس عملاً صعباً، ولكن هناك عدد من الرغبات لدىٰ الانسان لا تدرك بسهولة، لأنها علىٰ

جانب من الخفاء، وثمة شرائط بوسعها أن تبرز هذه الرغبات إلى السطح، ليدركها الانسان، وإدراكه لها يكون عاملاً لتنميتها، مثلاً قد يكون هناك شخص يحسّ بأنه معجب بالرسم، لكن رغبته بهذا الفن وشوقه لممارسته لا يظهر بقوّة، إنَّ عدم التفاته وإدراكه لهذه الرغبة الكامنة في ذاته، يبقيها علىٰ نفس الدرجة من الضعف، ثم ترون بعد ذلك أحدَ الفنانين الماهرين يتعامل مع هذا الشخص، فيسأله:

ـ ماذا تعمل أيّها السيد؟

* لا شيء، إنني أذهب كل يوم إلى إحدىٰ المؤسسات، إنني محاسب.

ـ حسناً، وهل أنت راضٍ عن حياتك؟

* لا بأس، إن راتب المحاسب جيّد، بوسعه أن يوفّر نفقات المعيشة.

ـ ولكنّك تمتلك قابلية أخرىٰ.

* أيّ قابليّة تعني؟

ـ أليست لك رغبة بالرسم؟

* نعم، إنني إذا دخلت أحد معارض الرسم، أشعر بالابتهاج، وأدقق النظر في اللوحات جيّداً.

ـ لا أعني هذا، إنَّ رغبتك بالرسم أقوى من ذلك، إن لديك استعداداً لمزاولة الرسم.

ثم يأخذه معه أربعة أيّام إلى ورشة الرسم، فيعرّفه علىٰ الفرشاة والألوان وأدوات الرسم، وفجأة يشعر في اليوم الخامس بعدم الرغبة بالذهاب والجلوس وراء طاولة الحسابات، هذا الشخص الذي مضىٰ له عشرون عاماً يذهب صباحاً ليحضر في المكتب في أوّل الوقت، يجد نفسه

يجرّ نفسه جرّاً ليذهب إلى العمل، ما الذي حصل؟ هناك ميل كامن فيه، اكتشفه استاذٌ وعرّفه عليه، وكان هذا سبباً لتنمية هذا الميل، بنحو جعله يتحرّك إلى درجة لم يعد هذا الشخص مستعداً لممارسة عمله السابق.

ولدينا من هذا المثل نماذج كثيرة، أشخاص لديهم رغبات كامنة، لم يتوفر المجال المناسب لظهورها ونموّها، والمعرفة لها تأثير كبير في اكتشاف وتطوير هذه الرغبات، هذا هو الأثر الثالث للمعرفة، إنه المساعدة علىٰ تنمية الميول والاستعدادات.

إنني سأعتمد علىٰ التأثير الأوّل للمعرفة، إلاّ أنَّ التأثير الثاني والثالث مهمّان أيضاً، ولأجل ذلك فإنَّ اعتمادنا عليهما سيكون كثيراً.

أثر المعرفة في تعيين المصاديق:

الأثر الأوّل للمعرفة هو: تحديد مصداق الأمر الذي نبحث عنه، وهذا الأثر مهمّ جداً، ما أكثر طاقاتنا الاجتماعية التي ضاعت هدراً في الطرق المسدودة ونحن نتّبع قادة كنّا نظنهم مخلصين ومتحرقين علىٰ تحقيق مصالحنا! إنّ الأمة سارت حفنة من السنين وراءَ قائد اكتشفت أخيراً أنّه مزيّف، وبدلاً من أن يعمل علىٰ إسعادها، كان عمله لتحقيق مصالح الأعداء! ما أكثر خساراتنا التي من هذا القبيل؟ إنها كثيرة جداً. إن الانسان يعلم بأنّ أعماله وجهوده لا تثمر إلاّ برعاية قائد حكيم ومخلص، ولكنه حينما يحاول أن يجد مصداق هذا القائد، يُخدع ويضلّل، لا مرَّة واحدة، ولا مرّتين، ولا ثلاث مرّات، ولا أربع مرّات! هنا تكون مهمتكم ومهمّة جميع الواعين والمثقفين، هي تعرّف الوجوه المزيّفة في كل موضع وفي كلّ مكان كانوا، لا تتجاهلوا أيّ إعلام مؤثّر، تعرّفوا الوجوه الزائفة، إن المعرفة لها تأثير أساسيّ في المساعدة علىٰ توفير الجهود وتحقيق المكاسب المتوخاة من بذل الجهود، وإن ضعف المعرفة عامل خطير يؤدّي إلى هدر الطاقات الاجتماعية المؤثرة.

إن المعرفة في غاية الأهمية، وإنما عرضت فقط نموذجاً صغيراً لذلك، وسنتوصل في قابلِ البحث لمعرفة العدد الكبير من نماذجها، فمنذ بداية حياة الانسان حتىٰ نهايتها نحن بحاجة إلى المعرفة في تأثيرها الأوّل.

أثر المعرفة في كيفية الاستفادة من المصداق:

الأثر الثاني (كيفية الاستفادة من الأمور التي تحققت معرفتنا بها) مهم أيضاً، يجب علىٰ الانسان أن يعلم جيداً كيف يستفيد من المصاديق التي يعرفها، كم هم الأشخاص اللائقين الذين بإمكانهم التصدي لقيادة مجتمعنا، والمجتمع يعرف أولئك الأشخاص أيضاً، ولكنه لا يعي الطريقة الصحيحة لتنظيم علاقته بهم، وبدلاً من التنسيق معهم وتقوية الارتباط بهم بشكل يوصل إلى الهدف، يصل الأمر أحياناً إلى سدّ الطريق أمامهم، مَن أولئك الذين وقفوا بوجه عليّ عليه السلام؟ أهم أعداءُ عليّ فقط؟ لا، كان بعضهم من أصحابه غير الواعين الجاهلين بقدره، لقد أثّر هؤلاءِ أيضاً في سدّ الطريق أمامه، وإبطال قيادته، وكان تأثيرهم أشدَّ كثيراً من تأثير أعدائه، ولا يزال الأمر كذلك لحدّ الآن، فإنَّ تأثير مَنْ يدَّعون حبّ الامام علي (وهم واقعاً محبّون له؛ لأنهم ليسوا بمحتالين، ولكنهم محبّون جاهلون) مخرّب جداً؛ لأنهم عندهم للامام عليّ عليه السلام صورة لا يمكن معها اتخاذه قدوة للمجتمع الاسلامي أو الانساني، وهذا راجع لضعف المعرفة بكيفية تنظيم العلاقة بين الأتباع والقائد، وفي هذا المجال نماذج وفيرة.

أثر المعرفة في تفتّح الميول الكامنة لدىٰ الانسان:

المجال الثالث، يعني: أثر المعرفة في تنمية وتفتّح الرغبات الكامنة لدىٰ الانسان، عجيب جداً، إنَّ لدينا نحن البشر ميولاً كامنة فيما يتعلّق بالحق والعدالة، ولكن ما أكثر أولئك الذين لا تأثير لمشاعر الرغبة في العدل والحق في تحريكهم، إنَّ هذا الميل لديهم بالغ من الضعف والكمود درجة أنك لو رصدت حياتهم لمدة سنة، لن تجد في حركتهم ونشاطهم أي

مؤشّر علىٰ تحركهم بسبب روحيّة حبّ العدل والحق. كيف أصبح هذا الميل لديهم؟ هذا الميل الفطري الراقي، الذي هو أعلىٰ الميول الفكريّة لدىٰ الانسان، لم يُتح له النمو والتأثير، بسبب عدم المعرفة به، فبقي خفياً وكامناً وراء حجاب الانشغال بأمور المعاش والحياة اليومية، بنخو لا يرىٰ له أيّ تأثير أصلاً، إن الانسان ينشغل من قمة رأسه إلى أخمص قدمه في توفير متطلبات المعيشة: الطعام، واللباس، والمسائل الجنسيّة، أو التجمّل والتفنن في الطلبات. بهذا يصل يومه بليله، وليله بصباحه، إن ما يجب تأكيده فيما يتعلق بالأثر الثالث، هو تأثير المعرفة في تفتّح وتنمية وإثمار الرغبات الداخلية للإنسان.

وعلى كلّ حال، فإن الالتفات إلى تأثيرات المعرفة الثلاثة، يدلّ علىٰ أنَّ المعرفة بذاتها ليس لها تأثير في الحركة. وفي حدود الدراسات المتوفرة لدينا عن الانسان، ولأجل أن توجد حركة لدىٰ الانسان عليك أن تضع إصبعك علىٰ رغباته وميوله، وإنَّ المعرفة بأحد أنحائها الثلاث ـ إذا لم يكن لها علاقة مّا بميول الانسان ـ لا أثرَ لها في تحسين حياته، ومن الضروري تحقق العلم المؤثر في العمل، العلم الذي يرتبط بحاجات الانسان الطبيعيّة. ومن الضروري تحقق العلم والمعرفة والوعي بالأمور التي يمكن أن تقع في خدمة الميول، فإنه هو الذي بإمكانه أن يؤثر في حياة الانسان.

إن العلم والمعرفة يمكن أن يكون في خدمة الرغبات الشرّيرة لدىٰ الانسان، وعليه فعوضاً عن أن يكون في خدمة الانسانية وسعادتها، يكون عاملاً مساعداً علىٰ شقائها وتحطيمها، إنَّ إعطاء الشفرة للمجنون والسكران أفضل من تزويد الشّرير بالعمل.

إنَّ زيادة ميول الشرّ لدىٰ الأفراد والمجتمعات، وشيوع الرغبات المناهضة للإنسانية والتسامي والتكامل، فإنها ـ المجتمعات ـ تستخدم كلَّ ما لديها من المعارف في طريق إشباع تلك الميول والرغبات، ترون أنَّ هذه

المعرفة لم تستطع أن توجد لدىٰ الفرد حركة نحو تحقيق التكامل والسعادة لنفسه أو لمجتمعه، ولأجلِ ذلك فليس هناك أيّ فرع علمي يحقق الوقاية الكاملة من هذا الخطر، حتّى علم الدين، أو علم الإلهيّات، أو علم الفقه، أو علم الأخلاق. فعلىٰ الرغم من الاعتقاد بأنَّ علم الأخلاق يقود الانسان نحو الخير، فإنهم يتخذون هذا العلم، ويستخدمون الشعارات الأخلاقية ليقودوا المجتمع بواسطتها نحو السقوط، إنهم يعرفون طبائع الناس جيّداً، ويعلمون ما يرغب فيه الانسان بفطرته، ويعلمون بأيّ شعارات يتمكنون من خداع الناس واستغفالهم، وإنهم بطرح تلك الشعارات يضعون سدّاً علىٰ طريق الانسانية، ليتمكنوا من جرِّها إلى السقوط. فعلم الاقتصاد، العدالة الاجتماعية، علم الاقتصاد السياسي، والاحاطة بدقائق مسائل القيم، وكيف يمكن تبديل القيمة بعوض، بنحوٍ ينتهي إلى استثمار الانسان، جميع هذه الأمور يمكن أن تكون في خدمة الظلم والفساد والضياع، لذا ترون أنَّ الشعارات السامية للبشرية ليست علىٰ نحوٍ واحد، بل هي نحوان، حتىٰ التوحيد، والدعوة للتوحيد، والسعي لمعرفة مختلف جوانبه، يمكن أن تكون في زمانٍ مّا حانوتاً يستفيد منه البعض، والعلم والمعرفة والوعي شفرة ذات حدّين قاطعين، وسلاح فعّال جداً في حياة الانسان، ويمكن توظيفه لتحقيق أهداف الشرّ والظلم، ويمكن استخدامه لتحقيق الرغبات السامية والقيم العادلة للإنسان.

إذن، فلا يصح القول: إن المعرفة باعثة علىٰ الحركة، أو إنها جالبة للسعادة، أقول هذا بعد ما حدث من المبالغة في أثر العلم، فجئنا نحن ووضعنا كلمة المعرفة مكانَ العلم، ولكنَّ هذا لا يحدث فرقاً، إذ ليس هناك فرق كبير بين العلم والمعرفة، المهم هو ميول الانسان ورغباته. أنا وأنتم يمكننا بسهولة أن نميّز طريق الخير عن طرق الشر. كلّ علم ومعرفةٍ ووعي لا بدّ أن يشترط فيه منذ البداية أن ندرك أنَّ الحياة تقع في منطقة النور، لا الظلمة. عجباً! هل يمكن أن تكون المعرفة في الظلمات؟ نعم، لأن ما

ذكرناه من النور والظلمات، ليس نور وظلمات العلم، وإنما نور وظلمات الحياة، إنَّ ما نراه في ساحة العشق والطهر والصفاء، هو مجال النور الواقعي، وعندما نضع أنفسنا في ميدان الحقد والظلم والضياع، فهذا مجال الظلمات. الباطل ظلمة، والحق نور، لا أظن أنَّ تشخيص هذا الأمر فيه شيء من الصعوبة، لا أعني بذلك تشخيص المصداق، وإنما أعني تشخيص ذلك الاحساس، يمكنكم الاحساس بالحق، قد يكون هناك شخص ماكر، فمن الضروري اكتشافه وتشخيصه، إنك حينما تعيش في داخلك حالة العشق والانجذاب الروحي، ترىٰ أنَّ لها واقعيّة ليس من الصعب إدراكها.

القرآن، ومعرفة النور والظلمة:

إن تمييز الجوانب المنيرة من الحياة عن الجوانب المظلمة ليس أمراً بالغ الصعوبة، ولأجل ذلك نرىٰ القرآن الكريم يقول: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾[1] فهو يعتبر نور الحياة وظلمتها من المفاهيم الواضحة والملموسة، وإنما يقرر أنَّ الله هو الذي يخرج الانسان من ظلمات الحياة إلى النور، وأن الطاغوت وعوامل الانحراف هي التي تخرج الانسان من ساحة النور، لتلقي به في ساحات الظلمة والضياع.

ترون أن القرآن الكريم في الوقت الذي يؤكد فيه أهمية العلم، يصرّح أيضاً بأنَّ هناك أشخاصاً، رغم تمتعهم بالعلم والمعرفة، فإنهم يتوجهون عامدين إلى ميادين الكفر والفساد، وهذا يكشف لنا عن أنَّ العلم وحده ليس له تأثير أساسيّ.

سأقرأ لكم الآية رقم (١٣ ـ ١٤) من سورة النحل، وطبعاً هناك آيات كثيرة

---

(١) سورة البقرة/ ٢٥٧.

في هذا المجال، ولكنني اخترت هذه الآية لصراحتها في إثبات المطلوب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤﴾[1].

لقد أنكروا الآيات مع وضوحها، ومع اعتقادهم ويقينهم القلبي بها، ومع ذلك أنكروها عملياً، لماذا؟ ظلماً وعُلوّاً، لأن طبع التجاوز والتعدّي غالب عليهم، ولأنّ طلب الجاه والتفوّق والسلطة غالب عليهم، هذا هو ما جعلهم ـ رغم علمهم بالآيات الإلهيّة ـ يزعمون أنها سحر وأساطير، أي أنهم يصرّون علىٰ مواجهة الحق ومعاندته رغم علمهم بأنه حقّ. ومثل هؤلاء الأشخاص كثيرون جداً، ولو رجعنا إلى هذا المعيار، ولاحظنا حياتنا ومحيطنا وطبقاتنا الاجتماعية، فما أكثر النماذج التي نجدها لأولئك الأشخاص؟!

آفات مباحثات الطلبة:

لديَّ ذكريات عن الكيفية القبيحة والحسنة لمباحثات الطلبة، والمباحثة هي من الأساليب الجيّدة التي جرىٰ عليها الطلبة، و(المباحثة) كلمة عربيّة، معناها المحاورة بين طرفين، وهي بهذا المعنىٰ جميلة جداً، حيث يتعاون شخصان علىٰ البحث، وهي سنَّة محمودة، ولكنني لاحظت أنه تمضي نصف ساعة في الأخذ والردّ بلا نتيجة، وهذا راجع إلى أنني طرحت شيئاً اشتباهاً، فقام رفيقي بتصحيحه، ومن أجل أن أقنعه بأنني قد فهمت الموضوع قبله، أنفقت نصف ساعة في الجدال لأثبت أن كلامي كان بنفس معنىٰ كلامه، ولأجل ذلك اضطررت إلى تبرير ما قلته وتوجيهه، عن طريق الإنكار والمراوغة، وادعاء أنه لم يستوعب كلامي بشكل صحيح، وقد تطلّب ذلك انقضاء نصف ساعة لكي أثبت له أنَّ هذا هو ما فهمته من كلامه أوّل مرّة، وبهذا تبدّلت المباحثة إلى مجادلة، وتأملوا كم لدينا في جدالنا

---

(١) سورة النحل/ ١٣ ـ ١٤.

الاجتماعي من هذه النماذج، إنني لا أتحدث عن أولئك الذين يجلسون في الظل البارد ليزاولوا المحاورة والمباحثة، لا، إنما أقصد الذين يتحدثون في الميادين الساخنة المشحونة بالخطر.

﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ما أجمل التعبير القرآني، إنه يضع إصبعه علىٰ الموضع الحسّاس تماماً، ظلماً وعلوّاً، علىٰ الرغم من أنّه قد فهم المسألة أسرع منّي، ولكنني أردت أن أضيّع حقه، هذا ظلم وعلوّ، أردت أن أقول له: إنني أعلىٰ منك شأناً، وإنني فهمت المسألة قبلك ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ انظروا عاقبة ظلم الانسان وإفساده كيف تكون وإلى أين تنتهي، لو أننا أمضينا مئة عامٍ في المباحثة علىٰ هذا النحو، فلن نتوصل إلى اكتشاف أيّة حقيقة.

[...][1] أي أنه حتىٰ المعرفة القطعيّة الواضحة لا تستطيع أن تحرّك نحو الاصلاح والفضيلة، يجب أن ينمو لدىٰ الانسان حبّ الصلاح والفضيلة والحقّ والعدل، فبموازاة هذا الحبّ يمكن أن تكون المعرفة والوعي في خدمة الانسان والانسانية، فإذا أردت أن تحسن الاستفادة من المعرفة فقم بتوجيهها نحو الرغبات السامية والقيم الانسانية.

والآن ندرك لماذا اهتمّ القرآن إلى هذه الدرجة بهذه الملكات العالية، وعمل علىٰ تنميتها لدىٰ الانسان، كلّ هذه التمرينات، وكلّ هذه العبادات المختلفة التي أكّدها الاسلام، هي من أجل تنمية الميول والرغبات السامية لدىٰ الانسان، هذه الصلاة التي نقرؤها، إذا أدّيناها بلا توجّه، بل بحكم العادة، لن يكون لها أيّ تأثير، الصلاة المفروضة هي التي (تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر) إن ما نأتي به من الصلاة، لا أقول إنَّ قدرتها علىٰ النهي عن الفحشاء تنخفض إلى درجة الصفر، ولكنني أقول إنها في غاية الضعف، لأنها لم تستطع أن تربّي في نفوسنا الميل إلى الحقّ والاتجاه إلى

---

(١) هنا بعض الجمل غير مسجّلة بسبب تبديل الشريط.

الله تعالى، إنَّ الصوم الذي يمنحنا القدرة علىٰ سحق شهوات البطن والجنس وأمثالها، لتقوىٰ لدينا الميول السامية التي ذكرتها وتنمو بشكل أفضل، لم يكن له إلاّ تأثير ضعيف، ترون أننا نصوم أيّاماً، لكن لا يحدث في نفوسنا نموّ وتكامل بالمستوى المطلوب، وحجّنا وإنفاقنا كذلك أيضاً.

إن جميع العبادات الإسلامية يراد بها تنمية الميول الرفيعة، هنا نرىٰ أنَّ للوعي تأثيراً، أي حينما نعي أنَّ ما نأتي به ليس هو الصلاة المطلوبة ولا الصوم المطلوب، فإنَّ هذا الوعي يمكن أن يكون في خدمة الميول السامية، شريطة أن لا تكون تلك الميول قد ماتت وتعطّلت عن العمل، إننا نرىٰ أنَّ الوعظ والارشاد يكون نافعاً لبعضِ الأفراد، وغير نافع لبعضٍ آخر، وما ذلك إلاّ لأنَّ أولئك المتأثرين بالوعظ لا تزال فطرتهم باقية، وإلاّ فإن الوعظ لا ينفذ فيمن تلوّثت فطرتهم، كما لا ينفذ المسمار في الصخر، وإن تربية غير المؤهّل، كوضع الجوز علىٰ القبّة. إن التربية بحاجة إلى قابلية واستعداد، لماذا لا يستقر الجوز علىٰ القبّة؟ لأنّه لم يجد السطح الذي يعتمد عليه ويستقرّ فيه، إنَّ التربية بالنسبة لكثير من الناس تكون بلا قاعدة تستقر عليها؛ لأنَّ جميع الاستعدادات الفطرية قد ماتت لديهم، لذا نجد القرآن الكريم يؤكّد أنَّ الله أرسل الهداة للقضاء علىٰ عوامل الفزع والاضطراب، إلاّ أنَّ هذا لم يحصل؛ لأنَّ مَن وصلت إليهم أسباب الهداية بدلاً من أن ينتفعوا بها، أساؤوا الاستفادة منها ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾[1] فبدلاً من أن يكونوا حملة مخلصين للتوراة، حملوا نعش التوراة، كما يحمل الحمار مجموعة من الكتب، إنّه يحمل جسم الكتاب لا روحه، لا علم له بمحتوىٰ الكتاب وروحه، إنَّ حالنا الآن نحن المسلمين كحال أولئك الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، لأن وسيلة الهداية التي منحها الله إيّانا وهي القرآن، ليس لها تأثير في توحيدنا وحركتنا، لأننا أناس لم تنمُ لدينا الميول السامية، طبعاً

(١) سورة الجمعة/ ٥.

هذا الوعي والمعرفة بالنسبة لجيل الشباب الذين لا زالوا يتمتعون بالاستعدادات الفطرية السامية، ولا تزال روحيّة طلب الحقّ حيّةً في نفوسهم، بنحو يبتهجون معه بمعرفة الحق، ويسعون إليه، إن هذه المعرفة يمكن أن تكون مؤثّرة جداً فيهم.

يجب علىٰ جيلنا الشاب أن يحذر من الوقوع في بؤر الفساد والضياع وإغراء الشهوات الجنسيّة، علىٰ شبابنا ـ حتىٰ وإن لم يكونوا مسلمين ـ أن يجتنبوا الأطعمة والأشربة المحرّمة، وكذلك ارتداء الألبسة المغرية أو إقامة العلاقات المشبوهة مع الجنس الآخر، إذا تردّىٰ الشباب في مستنقعات الرذيلة التي حذّرت منها الكتب السماويّة، وحتىٰ غير السماويّة، فمعنىٰ ذلك أن المواعظ تدخل إحدىٰ أذنيه، لتخرج من الأذن الأخرىٰ، إنه كالدابة المربوطة في الاصطبل، لأنه فقَدَ أسباب النزعات الفطرية السامية، فلم تعد النصائح والبيانات نافعة له.

ما أكثر الكتابات المفيدة في عصرنا، والأخّاذة من حيث العرض الفنّي، التي لا يبتغي مؤلفوها سوىٰ الاستفادة من حقّ التأليف. ولذا قلت لكم يجب أن نسعىٰ للتواجد في دائرة الحياة، لكي تكون البيّنات وأسباب الهداية مفيدة ومحرّكة لنا، سأذكر لكم بعض النماذج من الآيات في هذا الموضوع، لاحظوا مقدار جاذبيّتها:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾[١].

فمع كلّ النِعم المذكورة التي أسبغها الله تعالى علىٰ بني إسرائيل، لكنهم وقعوا في التنازع والاختلاف، لماذا؟ بغياً بينهم، لأنّ روحيّة التعدّي

---

(١) سورة الجاثية/ ١٦ ـ ١٧.

والبغي هي المتحكمة في صياغة ميولهم ورغباتهم، وهذا ما أدّىٰ إلى عدم انتفاعهم بكل النعم التي تفضّل الله بها عليهم، وسوف يقضي الله بينهم فيما اختلفوا فيه.

تلاحظون أنَّ القرآن يؤكّد أنَّ الانسان يمتلك القدرة علىٰ الاستفادة من المعرفة والوعي، إنَّ البحث والتعرّف والعلم ضروري جداً، طبعاً في حدود التأثيرات الثلاثة التي عرضنا لها مسبقاً، وإنني أيضاً سأواصل البحث معكم في نطاق هذه التأثيرات، وكما أخبرتكم فإنني لن أتوسع في البحث الفلسفي، ولن أتعرّض مثلاً لجميع البحوث المتعلقة بالإدراك، وإنما سأعرض في إحدى الجلسات ما هو الضروري في هذا المجال بنحو الاختصار.

ولا بد من التذكير بأنه حتىٰ البحث الأساسي في المعرفة يجب أن يقع في إطار هذه الأبعاد الثلاثة، ولن نتعامل أبداً مع المعرفة بوصفها عاملاً محرّكاً بنحوٍ مطلق، لئلاّ يكون الانشغال ببحث المعرفة سبباً لأن نتوهم محركيّة المعرفة، وهذه ستكون مصيبة أشدَّ من مصائبنا الأخرى.

عشق الحق والخير والعدل والكمال قبل كلِّ شيء. العشق أوّلاً، ثم العلم، لنسعَ ليكون هذا العشق في داخلنا ساخناً ومحركاً وذا تأثير فعّال، حينما يكون ثمَّة عشق، يأتي العلم ليكون في خدمته. لا ينبغي الظن أنَّ هذه البحوث تستطيع بذاتها أن تكون باعثة علىٰ العشق، نعم إذا كان هذا العشق كامناً في ذواتنا، فإنَّ هذه البحوث بإمكانها أن تعرّفنا به. لنقوم نحن بتنميته (هذا هو الأثر الثالث للمعرفة) وأما إذا كان هذا العشق قد مات في نفوسنا. . . إنَّ الظالم هو الشخص الذي يصنع ما يؤدّي إلى ذهاب هذا العشق، إنَّ هذا البحث والمئات من أمثاله لا تنفع ذوي النفوس الظالمة، في نظري إنَّ هذه اللقاءات والجلسات يجب أن يكون لحنها الأول هو العشق، وأما التوضيح فهو يأتي بالدرجة الثانية، يرىٰ الإخوة أنني لا أندفع

كثيراً للإيضاحات الفارغة من العشق، والسبب هو ما ذكرته.

تلك كانت مقدمة أراها ضرورية للأسئلة التي سيطرحها الإخوة بشأن المعرفة، لقد انتهىٰ كلامي، وأنا مستعد للجواب عن أسئلتكم أيّها الإخوة.

إجابات عن الأسئلة:

[أحد الحاضرين]: هل ذلك الشيء الذي عبَّرتم عنه بالميول هو الإيمان نفسه؟

[الدكتور بهشتي]: الايمان هو اعتقاد قلب الانسان بشيء، بنحو يحسّ معه بالتعلق به، دون أن يعتري هذا الاعتقاد والتعلّق القلبي أي شك أو تردد، هذا هو الايمان.

[أحد الحاضرين]: التعلق القلبي بأيِّ شيء؟

[الدكتور بهشتي]: بأيِّ هدف، طبعاً هذا تعريف عامّ للإيمان، ولكن الإيمان حينما يذكر في القرآن، إنّما يراد الايمان بالله والوحي والحق والعدل.

[أحد الحاضرين]: إذا أردنا استعراض بقية الآيات المرتبطة بموضوع البحث، فأيّ آياتٍ ينبغي أن نبحث عنها؟

[الدكتور بهشتي]: الآيات التي تأتي تحت عنوان (العلم) و(الفقه)، وكذلك أتت ـ كما أشرت ـ تحت عنوان البغي والظلم والعلوّ، أمثال هذه الآيات بإمكانها أن تكون عوناً لكم.

[أحد الحاضرين]: عفواً، إنَّ الجانب الأكبر من بحثكم كان يخصّ ميل الإنسان إلىٰ الحقّ والعدالة، مع أنَّ هناك من يعتقد أنَّ الميل لدىٰ الانسان إنّما هو الميل إلىٰ اللّذة، هل يمكنك القول: إن وجود الحق والعدالة لدىٰ الانسان يوجد لديه لذةً أيضاً؟ والآن، إذا توفرت الشروط في وقت مّا، وحصل لنا التذاذ بشيءٍ مّا، ومن ثمَّ ميل إليه، وأدّىٰ هذا الميل بنا

إلىٰ حركة تجعلنا ندوس علىٰ الحق، ففي هذه الحال ما الذي يُستطاع فعله؟

[الدكتور بهشتي]: إنَّ أصالة اللذّة (وهو مذهب فكري يعيش في مجال الفلسفة منذ نيّف وعشرين قرناً) هو الذي يطرح هذا الكلام الأجوف الخالي من المضمون، أساساً ما هو معنىٰ اللذّة؟ إنني ألتذُّ، يعني ماذا؟ إنَّ اللذّة هي الحالة العاطفية والنفسية التي تحصل بإرضاءِ وإشباع رغبة معيّنة لدىٰ الانسان، اللذّة نفسها ليست ميلاً، إنها تأتي بعد الميل والرغبة، لا قبلها، من الخطأ التعبير بأن الرغبة في اللذة هي المحرك للانسان، إن الانسان يجب أن يكون لديه ميل إلىٰ شيء، وحينما يشبع هذا الميل يصل إلىٰ حالة اللذة، وإذن، فاللذة ليس لها أي تأثير أساسي، إنها تابعة للرغبة، إذا تحقق لدىٰ الانسان الرغبة في الطعام، فإنَّ اللذَّة تحصل عند تناول الطعام، وإذا اعترته الرغبة الجنسيّة، فإنه سيلتذّ بإشباعها، وإذا استولت عليه الرغبة في الجاه والعظمة، فإنه سيلتذّ ببلوغ ذلك، ترون أن الجوع يجعل الانسان يصرف النظر عن جميع اللذات الجنسيّة، قد يرغب شخص في السيادة، إنَّ الإحساس بأنّه أرفع من الآخرين يحدث له لذةً ومتعةً، إنَّ لذّته في طلب الجاه والرفعة.

وهناك من يرغب أن يعلم شيئاً، الرغبة في الاطّلاع لديه قوية جداً، ولذّته تتحقق بالمطالعة والتجسس واكتشاف الأشياء وفهمها.

ويمكن أن تكون رغبة الشخص في مساعدة الآخرين، ولذّته تتحقق حينما يقدّم العون لغيره، وآخر تكون رغبته في خدمة الحق والعدالة، ولذّته في السير علىٰ طريق الحق والعدل.

إنَّ القول بأصالة اللذّة لم تعد له أيّة قيمة، ولا يمكن أن يعدَّ شيئاً مهماً، ولا يمكن له أن يكون مذهباً يقف في قبال بقيّة المذاهب، نعم، إذا قيل: اللذّة الجنسيّة، ولذّة الشبع، ولذّة الجاه (يعني يضيف قيداً إلىٰ اللذّة) يمكن أن يكون كلامه تعبيراً عن مذهب، إن مذهب إشباع البطن له أنصار

كثيرون! وكذلك الساعين إلىٰ الجاه، هذه يمكن أن تكون مذاهب، وأمّا ما يطرح بعنوان أصالة اللذّة فالّذي أراه أنّه قد انتهىٰ عهده.

[أحد الحاضرين]: معنى هذا أنّك ترىٰ لدىٰ الانسان نوعين من الميول، ميل إلىٰ الخير، وميل إلىٰ الشر، ويجب علينا أن نعدّ الشرائط التي تنمّي لدينا الميل إلىٰ الحقّ، حسناً، لو افترضنا أن الظروف قتلت في الفرد الميل إلىٰ الحق، ففي هذا الحال ما معنىٰ الحرّية والمسؤوليّة؟

[الدكتور بهشتي]: اسمح لنا أن نطرح البحوث المرتبطة ببحث آخر في موضعها، لقد طرحوا هذا السؤال مرتين أو ثلاث، وسنجيب عنه في موضعه، لقد أصبح واضحاً لكم إجمالاً أنَّ الشيء الذي يتحكم بعجلة حياة الانسان هو الميول، لا العلم، وأن العلم يجب أن يوظّف في خدمة الميول، إن ربّان السفينة يجب أن تكون لديه أوّلاً رغبة في بلوغ مكان مّا، لكي يضع البوصلة والخارطة أمامه، وإلاّ إذا استقلَّ السفينة دون أن يكون له مقصد معلوم، فأيّ تأثير سيكون للبوصلة وخارطة البحر؟ لا بدّ أوّلاً أن يكون له هدف ورغبة محددة، لكي تكون أدوات المعرفة (البوصلة والخارطة) ذات أثر بالنسبة إليه، يجب أن نختار أوّلاً لسفينة الحياة ورحلة الحياة هدفاً، طبعاً عرضت لكم إنَّ المعرفة يمكن أن تكون ذات أثر في تشخيص الهدف النافع، وهذا هو أحد الآثار الثلاثة للمعرفة، يجب أن لا ننسىٰ ذلك.

[أحد الحاضرين]: الآية التي في سورة التوبة تقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ كيف يأمر القرآن بعرض كلام الله علىٰ المشركين، مع فرض أنَّ المشركين قلوبهم ميّتة؟

[الدكتور بهشتي]: اسمح لي أن أقرأ الآية قبل الإجابة عن السؤال، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ

﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[1] الآية تأمر النبي ﷺ أن يأتي بهذا المشرك، ويسمعه آيات القرآن، وهذه الآيات يمكنها أن تجذبه إلىٰ الاسلام، حسناً، كيف يمكن لهذه الآيات أن تجذب مثل هذا الشخص إلىٰ الإسلام؟ حينما تلقىٰ هذه الآيات علىٰ شخص توفّرت فيه أرضية تلك الرغبات الفطريّة، وأمّا إذا كانت تلك الرغبات ميتةً لدىٰ ذلك الشخص، فهل يكون لتلك الآيات تأثير فيه؟ إنَّ القرآن يقول في آية أخرىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[2] وهنا يقول القرآن للنبي ﷺ: حينما يأتي المشركون، وفّر لهم الأجواء ليقتربوا من القرآن، علىٰ أمل أن تؤثّر آياته في أولئك الذين لا تزال ميولهم ونوازعهم الفطريَّة حيّةً، إنَّ تأثير المعرفة هنا لا شكَّ فيه، ولكنَّ القرآن لا يستطيع أن يؤثر أبداً في تحريك الموتىٰ، ألا ترون القرآن يقرأ في زماننا أكثر من الأزمنة الماضية، ولكنَّ تأثيره أضعف مما كان عليه في الزمان الماضي؟ إلاّ في الأشخاص الذين هم مبعث الأمل. لحسن الحظ أن القرآن تبدّل في زماننا إلىٰ مصدر حركة بالنسبة لكثير من الناس، ولكنه لعدد أكثر منهم لم يعد كتاب حركة.

[أحد الحاضرين]: إن البحث المتقدم كلّه مبنيّ علىٰ الفطريّات، والظاهر أنّ الأمور الفطرية علىٰ أشكال كثيرة، والسؤال كيف وجدت هذه الفطريّات، بعد المعرفة، أم قبل المعرفة؟

[أحد الحاضرين]: إننا لم نسمع السؤال.

[الدكتور بهشتي]: سؤاله هو: أن الميول هي الأمور الفطرية، وهذا يؤدّي إلىٰ البحث عن الفطريّات، وأنها تحصل بعد المعرفة أم قبلها؟

البحث الذي تفضّل به راجع إلىٰ الإدراكات الفطرية، وهل أنَّ لدينا أصلاً إدراكات فطرية أم لا؟ يعني في الحقيقة هل نمتلك معارف قبل

---

(١) سورة التوبة/٦.
(٢) سورة النمل/٨٠.

الفعاليّات الذهنيّة أم لا؟ ولكنَّ بحثنا ليس راجعاً إلىٰ المدركات الفطريّة، لا شكَّ أنَّ الإنسان خلق بطبيعته مزوّداً ببعض الرغبات الفطريّة، هل لديكم شكّ في ذلك؟ كلُّ شخص يعلم أنَّ الانسان منذ أن يجيء إلىٰ الدنيا يكون منطوياً علىٰ عدد الحاجات والرغبات والميول، ما نريد قوله: إنَّ كلَّ من يهتم بدراسة حركة وتحرك وعمل المجتمع، ويريد الاستفادة من بحوثه وجهوده، لا بدّ له أن يعلم بأنَّ ميدان نشاطه الأصلي هو ميول البشر.

والآن، ما هي الميول؟ لا بد من معرفتها، قلت لكم: حتىٰ في بعض الكتابات المثيرة نرىٰ هذا الموضوع، وأنَّ المعرفة يمكن أن تكون عامل إثارة وتحريك، وعلى الرغم من أننا نجد الجامعة الفلانيّة تعرض هذا الموضوع في منشوراتها وكرّاساتها، ولكن هذه الجامعة لم يحصل فيها أيّ تحرّك، ومنه يعلم أنَّ المعرفة لا يمكن أن تؤدّي إلىٰ الحركة بصورة تلقائيّة، حينما تقع المعرفة في المجال المساعد علىٰ الحركة (وهذا المجال هو الميول الظاهرة والكامنة لدى الانسان التي تبعثه علىٰ التحرّك)، فهناك تتحقق الحركة.

الجلسة الثالثة

ذكرنا في الجلسة الماضية أن للمعرفة تأثيراً عالياً في حياة الانسان، ولكن ليس بالنحو الذي يُرىٰ في بعض مؤلفات فرق أهل العمل، نحن نعتبر المعرفة ذات أثرٍ أساسيٍّ، إنها مصباح منير في يد الميول والبواعث والمحرّكات، أو بتعبيرنا القديم: العشق والتفاني والإيمان، التي تقود الانسان إلىٰ الطرق الصحيحة للعمل، وأمّا المعرفة بذاتها فليست باعثة علىٰ العمل، وإنما هي عوامل مساعدة وهادية لدوافع العمل، لذا يجب عليَّ وعليكم وعلى الجميع أن نسعىٰ لإصلاح معارفنا، وقبل ذلك أو معه، نسعىٰ لإصلاح أنفسنا في مجال العشق والتفاني والبواعث، لنتخلص من الموت وفقدان الميول، كوننا أحياء، أن تكون لنا رغبات، وشوق، وتفانٍ، لكي ننتفع بما يقع تحت أيدينا من المعارف، وإلاّ فما جدوىٰ المعرفة للفرد الفاقد للرغبات السامية والشوق؟ هذا ما أكّدته في الأسبوع الماضي، وتحدّثت عنه بالتفصيل، وسوف أؤكده مرةً أخرىٰ؛ لأنه في نظري في غاية الأهميّة.

والآن نريد أن نتطرق لبحث المعرفة من وجهة النظر المتقدمة، ونعرض البحوث التي تبدو ضرورية فعلاً، وأذكّر بأنَّ هذه البحوث تدور حول نفس المحور الذي جرت عليه المؤلّفات في مجال المعرفة: تعريف المعرفة، أقسام المعرفة، موضوع المعرفة، وسائل المعرفة، بُعد المعرفة، قيمة المعرفة، موانع المعرفة.

تعريف المعرفة:

لقد بُذلت جهود كثيرة، وأُنفق وقت طويل في سبيل تعريف المعرفة، فنلاحظ في الكتب المختلفة وحتىٰ في الكرّاسات أنهم يطرحون تعريفاً

للمعرفة، ثم يدور الحوار والبحث حول هذا التعريف، وأنه يعاني من عيبٍ أو نقصٍ، بنحوٍ قد يؤدّي إلىٰ السأم أحياناً من هذا البحث! ولكن هل بالإمكان تعريف المعرفة، وهل بالامكان تعريف كل شيء؟ إنَّ تسلّط وحكومة المقولة، يعني: ان أسلوب التفكير المقولي والتعريفي يريد أن يحصل أوّلاً علىٰ تعريف لكلّ شيء، وكأنه يرىٰ أنه بمعزلٍ عن التعريف لا يمكن الوصول إلىٰ أي شيء، وهذا الرأي إن صحَّ في كثير من الأشياء، إلاّ أنه ليس صحيحاً في أشياء أخرىٰ، وإنّ محاولة توضيح الواضحات توقع في المشكلات، هناك أشياء واضحة بالبداهة لنا، أو قد تكون من أبده البديهيّات، ولو حاولنا تعريف الأمور البديهيّة، فلن يحالفنا التوفيق، وإنّما تصاب رؤوسنا بالصداع.

بأيّ شيء يمكننا تعريف المعرفة، وما الذي نستطيع استخدامه في هذا التعريف؟ كل شيء نحاول استعماله في تعريف المعرفة سيزيد الأمر تعقيداً، يقولون: المعرفة هي كيفيّة ذهنيّة، ولكن هل أنَّ المعرفة ذاتها بالنسبة لنا ليست مفهومة كالذهن والكيفيّة، لكي نحاول تعريفها بهما؟ [1] وقالوا: المعرفة كيفية ذهنية توجد رابطة خاصة بيننا وبين الآخرين. فأيّ هذه الكلمات التي استعملت في التعريف هي أوضح من المعرفة ذاتها؟ فما نفيده من هذا التعريف؟ وكذلك تعريف المعرفة بأنها: انعكاس للأعيان في الذهن. هل تجدون فيه ما هو أوضح من المعرفة؟

إنَّ جميع التعاريف التي اطّلعت عليها في المؤلفات العربيّة والفارسيّة،

---

(١) هنا يشير الدكتور بهشتي إلى قاعدة يجب ملاحظتها في التعاريف، وهي: أن يكون المعرّف أجلىٰ وأعرف من المعرّف، أي أنَّ ما نريد أن نعرّف به (المعروف) يجب أن يكون معلوماً لنا أكثر من (المجهول)، وبما أنَّ المعرفة هي من أكثر الأمور وضوحاً، فإن تعريفها يكون مشكلاً؛ لأنه ليس من السهل الحصول على تعابير أوضح من تعبير المعرفة لكي نستعملها في تعريف المعرفة، وما عَرضه الدكتور بهشتي من تعريفهم للمعرفة يحتوي على كلمتي (الذهن) و(الكيفية) وكلٌ منهما ليست بأوضح من كلمة (المعرفة).

والاسلاميّة، قبل الاسلام وبعده، هي من هذا القبيل، ليس في أيّ منها ما هو أوضح من المعرفة، هل أنَّ كلمة (معرفة) و(علم) و(فهم) مبهمة لدىٰ السامع، لكي نحتاج إلىٰ تعريفها؟ في مثل هذه الموارد نكتفي بشرح الاسم (في اصطلاح المناطقة) أي بواسطة تبديل الألفاظ نشير مثلاً إلىٰ أنَّ المعرفة أو العلم هي تلك الحالة الذهنية التي تحصل لدينا بعد العلم بشيء، أو هي إشارة تمكّن كلاً من المتخاطبين من فهم كلام الآخر، وهذه العملية في الواقع هي فهم للّغة وليست تعريفاً.

إن مشكلة تعريف العلم والمعرفة، تماثل مشكلة تعريف الواقع أو الوجود، هل يعتقد أحد من الإخوة أنَّ مفهوم الواقع مبهم وبحاجة إلىٰ تعريف؟ ولو افترضنا حاجته إلىٰ تعريف، فهل هناك من يستطيع تعريفه؟ أي يطرح عبارة تبيّن لنا معنىٰ الواقعيّة، بصورة أوضح من كلمة (الواقعيّة) سأعطي للإخوة دقيقتين أو ثلاث، فإذا خطر في ذهن أحدهم شيء بهذا الشأن، فليبيّنه لنا.

يبدو أنه لم يدر شيء في ذهن بعض الأصدقاء، والواقع هو هذا، المعرفة والعلم والإدراك أمور معلومة وواضحة لنا، ليس فيها غموض. كثير من المصاعب التي نواجهها في هذا المجال ناشئة من محاولة تعريف الأمور الواضحة في أذهاننا، إنَّ المشكلة تبدأ من محاولة توضيح الواضحات.

تلاحظون أنه يجب علينا ابتداءً أن لا نتجاوز تعريف المعرفة، لأننا جميعاً ندرك أنَّ الانسان يتمتع بإدراك ما يرتبط بالمعرفة.

[أحد الحاضرين]: صحيح ما ذكرتموه من عدم ضرورة التعريف، ووضوح معاني بعض الكلمات أحياناً، ولكن التعريف ضروري في كثيرٍ من الأوقات، مثلاً الأشياء التي نشكّ فيها، لا بدّ من تعريفها لكي نفهمها، ونفهم مدىٰ واقعيّتها، الوفاء مثلاً، ما هو الوفاء؟ وأيّ عمل نعتبره وفاءً؟ ففي مثل هذه الموارد يكون التعريف ضروريّاً ـ ولو بمستوىٰ التعريف

اللفظي الذي ذكرتموه ـ لكي نفهم واقع الشيء.

[الدكتور بهشتي]: تقول أحياناً: إنني أشك في أنَّ هذا له واقعيّة أم لا، هذا بحث آخر، يعني أنك تُدرك معنىٰ الواقعيّة، ثم تبحث عن ثبوتها للشيء الفلاني.

[الشخص نفسه]: إذن لا بدّ من معرفة معنىٰ الواقعيّة مسبقاً، ليكون لدينا تصوّر عنه.

[الدكتور بهشتي]: إنك تتمتع بهذا التصوّر، تصوّر مفهوم الواقعيّة واضح، ولأجل ذلك تقول: أريد أن أعلم أنَّ مفهوم الواقعيّة الواضح لديَّ، هل يصدق علىٰ الشيء الفلاني أم لا؟ أي: أنَّ ذلك الشيء له واقعيّة أم لا؟

[الشخص نفسه]: ولكن في بحث مسألة ما، هناك فرق في تصورك للواقعيّة، وتصوّري لها.

[الدكتور بهشتي]: ولكن هل معنىٰ الواقعيّة هو تصوّران ومعنيان؟ يعني حينما تسألني مثلاً: هل السحر أمرٌ واقعيّ أم موهوم (له واقعيّة أم لا)، ألا نفهم كلام بعضنا؟ نفهمه طبعاً، وبهذا يتّضح أنَّ معنىٰ كلمة الواقعيّة واضح لنا جميعاً، ولكنَّ ما هو مبهم علينا والذي يكون مورداً للسؤال والجواب هو: أنَّ السحر أمرٌ واقعيّ أم لا؟ وليس هو: أن الواقعيّة مبهمة عنّي وعنك، وأن علينا أن نعرّف الواقعيّة، ثمَّ نبحث بعد ذلك عن أن السحر له واقعيّة أم لا؟ الواقعيّة ليست بحاجة إلىٰ تعريف، والمعرفة أيضاً من هذا القبيل.

[الشخص نفسه]: في هذه المسألة، إذا لم نسر بدون أن نعرّف الواقعيّة، هل يجب أن نتناول المسائل التي نريد أن نتأكد من واقعيّتها ونبحثها واحدةً بعد أخرىٰ؟ أم يكفي لذلك تصوّر واحد؟

[الدكتور بهشتي]: انظر، سواء قمت بتعريف الواقعيّة أم لا، حينما تريد أن تبحث المسائل، لا بدّ أن تبحث كلَّ مسألة علىٰ حدة، وبحثنا هو:

أنَّ الواقعيّة لها مفهوم واضح لكلّ أحد، وليست بحاجة إلىٰ تعريف وتوضيح، وأمَّا أنَّ الشيء الفلاني له واقعيّة أم لا؟ فهذا يحتاج إلىٰ إثبات.

[الشخص نفسه]: في كل الموضوعات؟

[الدكتور بهشتي]: نعم، لا بدّ أن نثبت كلَّ واحد من الموضوعات، وأنَّ الشيء الفلاني له واقعيّة أم لا؟ ويجب إقامة الدليل علىٰ ذلك، طبعاً الموضوعات تختلف، فمنها ما تكون واقعيّته بديهيّة لنا جميعاً، فهذا لا يحتاج إلىٰ إثبات. وهناك أمور ليست بديهيّة، فتحتاج إلىٰ إثبات. لاحظوا أنَّ مفاهيم (الواقعيّة) و(المعرفة) وأمثالها، هي مفاهيم واضحة، وليست بحاجة إلىٰ أيّ تعريف، وحينما نحاول تعريفها، فإننا بدلاً من توضيحها نقوم بإبهامها وتعقيدها، وإنني بدلاً من أن أقوم بتعريف المعرفة، أقول: إننا الجالسون هنا، نعلم بأنَّ هنا شيئاً موجوداً، أي أنَّ بيني وبين ذلك الشيء رابطة، وهذه الرابطة هي المعرفة، هذه الرابطة واضحة وليست بحاجة إلىٰ تعريف، نحن جميعاً ندرك ذلك. طبعاً لو أنني استندت إلىٰ هذا الحائط، فسوف تحصل رابطة بيني وبين هذا الحائط، ألا يقال عن هذه الرابطة معرفة. إنَّ العلاقة بيني وبين الحائط واضحة لنا جميعاً، يعني أننا جميعاً ندرك نماذج بديهيّة وملموسة من المعرفة، وكلنا لدينا مجموعة من المعارف الواضحة تماماً، وأنَّ التوجّه إلىٰ هذه النماذج يكفي لأن نُدرك ما هي المعرفة، وهذا الأمر ليس بحاجة إلىٰ تعريف، وإنّما تكفي الإشارة إليه، كل شيء نعرفه نشير إليه، المعرفة اسم لتلك الإشارة، فهي شرح للاسم، وليست تعريفاً.

كلمة حول التعاريف:

التعريف تارةً يُراد به بيان ماهيّة الشيء، يعني هناك شيء نعرفه، ولكننا لا نعلم ماهيّته وحقيقته، مثلاً: هل المعرفة والعلم ماديّ أم مجرّد؟ هل العلم والإدراك أمر ماذي أم غير مادّي؟ وهذا من البحوث المطوّلة في

علم النفس والفلسفة وتاريخ علم النفس، وتاريخ الفلسفة، وأمثالها، وهل العلم والإدراك أمرٌ مادّي أم لا؟ فإن لم يكن مادّياً، فهو من المجرّدات الخالصة، أم وسط بين المادّي والمجرد (أي يمتلك بعض صفات المادّة ويفقد البعض الآخر)؟ وتسألني: هل هذا البحث ضروريّ أم لا؟ أقول: في حدود المجال الذي نعالجهُ أرىٰ أنه بحث زائد، ولو قلتم: إنَّ العلم والادراك من آثار وخواصّ المادّة، وليس أعلىٰ من ذلك، أي أنَّ مخّي شيء مادّيّ، وإنَّ إدراكي وعلمي ليس شيئاً سوىٰ عمل المخّ وخاصّيته، لنفترض ذلك، ولكن بالنتيجة هل أنَّ الانعكاس المادّي، وخاصّية المادة وعملها يؤدّي إلىٰ رابطة إدراكية بيني وبين هذا الجدار أم لا؟ أي انني سأدرك هذا الحائط أم لا؟ هذا هو المهم، المهم أنَّ العلم والمعرفة والإدراك هل يمتلكان خاصّية إراءة الواقع أم لا؟ إن قلت: بما أنه مادّي فهو لا يمتلك خاصّيّة الكشف عن الواقع. أقول: هذا إنكار لأمرٍ بديهي، لأنَّ كل أحد يعلم أنَّ المعرفة والإدراك لها خاصّيّة الكشف عن الواقع. وتجدر الاشارة أنَّ البحث عن ثبوت خصوصيّة الكشف للعلم وعدم ثبوتها يدور منذ بضعة قرون إلىٰ الآن، وأنَّ البعض ينكر قابلية العلم علىٰ كشف الواقع، وهؤلاءِ هم أصحاب مذهب الشك، وأن النقاش محتدم منذ أكثر من عشرين قرناً بين المعتقدين بأنَّ الانسان يستطيع إدراك الواقع الخارجي، وأن معلوماته لها خاصّيّة إراءة الواقع، وأولئك الذين ينكرون ثبوت هذه الخاصّيّة للعلم، ترون ما الذي انتهت إليه هذه المناقشات؟ لقد انتهت إلىٰ هذا الأمر البديهي الذي عرضته لكم، الشكّاك يقول: إنني لا أقبل أن يكون لتصوراتي الذهنية خاصّيّة الكشف عن الواقع، إنَّ ما في ذهن الانسان وكلّ ما في الانسان هو وهم وخيال، وممّا يشير إلىٰ ذلك أنه لا فرق بين النوم واليقظة، هل الصور التي ترونها في الأحلام تتمتع بالكشف عن الواقع؟ لا، إنَّك ترىٰ نفسك في المنام تطير في الهواء، مع أنك لا تفعل ذلك واقعاً، وأنَّ الأمر مجرّد حلم، وربما كانت الحياة كلها حلماً طويلاً.

لا بدّ أنكم سمعتم قصّة ابن سينا، إنه يقول: إذا واجهت أحد هؤلاء الشكّاكين الذين ينكرون كشف العلم عن الواقع، فقل: إنك الآن تتحدث معي، فهل تعتقد أيضاً أنني لست موجوداً خارجيّاً، وأنك تتحدث معي في الحلم؟ فإن قال: نعم، ربما، من أين أعلم أنني لست في حلم الآن؟ فحينئذٍ لا تواصل الحديث معه، وإنما أحضر إناءً فيه جمر، وضع يده فيه قائلاً: ربما أنت تحلم بأنَّ هذه نار.

هذا هو علاج أصحاب الشكّ والوسوسة، أن نواجههم بأكثر نماذج المعرفة بداهة، إنه علاجهم النهائي، طبعاً يمكن اعتباره العلاج الأوّل؛ لأنه يمكن أن تكون مواجهة المنكرين للواقع منذ البداية بواقعة بديهيّة.

وهناك بحوث كثيرة حول المعرفة ووقوع الخطأ فيها، يقول البعض: إنَّ المعرفة لا تكشف عن الواقع، لأنها إمّا أن تحصل عن طريق الحواس، أو عن طريق التفكير، ونحن نعلم بأنَّ الحسَّ يخطىء، وكذلك التفكير، فكيف يسعني الاعتماد علىٰ شيء يجوز عليه الخطأ؟

هذا الاستدلال مقبول صورةً، ولكن يجب أن نضعه جانباً، خُذ الشخص الذي يفكّر بهذه الطريقة إلىٰ البحر، واغمره في عمق الماء، قل له: ربما أنت مخطىء في اعتقادك أنَّ هذا بحر، حينئذٍ سيقتنع بأن هناك مواضع يمكن فيها الاعتماد علىٰ شيء يجوز أن يخطىء.

وعليه، فإنني أقترح، بشأن جميع البحوث حول خطأ الحواس والتفكير، التي أراد الطرف المقابل أن يستدلَّ بها علىٰ عدم إمكان الاعتماد علىٰ الحواس والتفكير، ويتّخذ من ذلك وسيلة لإسقاط قيمة المعرفة، أقترح أن نستعمل معه منذ البداية العلاج النهائي والأخير، أن نضع يده منذ البداية في وعاء النار، فحينئذٍ سيوافق علىٰ أنَّ بعض حواسّنا ومعارفنا الحسّية لها قابليّة الكشف عن الواقع، وعليه ستكون جميع هذه الأبحاث زائدةً في نظري. إذن لو سألوا: ما هي المعرفة؟ نقول: المعرفة معلومة

لدينا، إنها هذا الإدراك. وإن سألوا: هل تتمتع المعرفة بالقدرة علىٰ الكشف عن الواقع؟ نقول: نحن نعلم إجمالاً أنَّ لها هذه القدرة. وإن سألوا: هل المعرفة شيء ماديّ أم مجرّد؟ نقول: فلتكن هذا أو ذاك، فلا فرق في ذلك، لأنَّ ما نريده من المعرفة والإدراك هو كشفه عن الواقع، وعليه لن يبقىٰ مجال لهذا البحث، ولذا نجد القرآن الكريم حينما يتحدث إلىٰ الناس، لا يتطرق إلىٰ هذه الأبحاث بأيِّ شكل، ولا ضرورة لذلك، إنَّ كلَّ كتاب عقيدة وعمل، يستطيع بكلِّ سهولة أن يضع هذه الأبحاث بين قوسين، ويضرب عليها بالخط الأحمر، ويضعها جانباً.

طبعاً، بإمكان أولئك الذين يمتلكون فراغاً من الوقت، وتروق لهم طريقة (إنْ قلتَ قلتُ) ويجدون لذّةً في التحليل النظري، أن يبحثوا عن ماهيّة المعرفة، وهل هي مادّية أم مجرّدة، وهل هو كيف نفساني أم وجود ذهنيّ؟ وأما نحن فبوسعنا أن نطوي هذه البحوث ونعبرها، وهذه هي طريقة القرآن أيضاً، إنه يقول: أيّها الناس، اطلبوا العلم واليقين، اجعلوا العلم واليقين دليلكم وهاديكم في الحياة، استفيدوا من العلم واسترشدوا به إلىٰ الطريق المستقيم في الحياة، القرآن يؤكد دائماً علىٰ الاهتداء بالعلم، وأنّه البيّنة، والدليل الواضح، والسلطان، والدليل القاطع. القرآن يستند إلىٰ هذه الأمور، ولا يخوض في بيان ماهيّة العلم أصلاً، بل لا ينبغي أن يخوض فيها؛ لأنَّ العلم، والادراك القطعي، والمعرفة الواضحة، هي حقيقة معلومة للجميع، ولا حاجة للبحث عنها.

سؤالي للإخوة: إذا كنتم قد سمعتم بالموضوعات المطروحة في البحوث التحليلية والكتب المختلفة، بشأن حقيقة المعرفة وأصل كشفها عن الواقع وعدم كشفها عنه، فهل ترون ضرورة للخوض في بحث ذلك؟ إذا كنتم علىٰ نفس قناعتي، إذن علينا جميعاً أن نتجاوز أمثال هذه البحوث، إذ لا حاجة لطرحها، والآن اطرحوا كلَّ ما يدور في أذهانكم، وإنني حاضر لإجابتكم.

[أحد الحاضرين]: هل تقصد المعرفة، أم جميع الأقسام السبعة التي تفضّلت بذكرها للمعرفة؟

[الدكتور بهشتي]: لا، تلك كانت مباحث المعرفة، وسنذكرها لاحقاً، نحن فعلاً في بداية البحث، في تعريف المعرفة، نحن نعتقد بأنَّ المعرفة ليست بحاجة إلىٰ تعريف، لأننا جميعاً نعلم ما هي المعرفة، كما أنه ليس لدينا أيّ شك في كشف المعرفة عن الواقع، وأنَّ ارتباطنا بالواقع العيني يتمّ بواسطة المعرفة، طبعاً نحن نخطىء أحياناً، لا شكّ في ذلك، فالحسّ يخطىء، والفكر أيضاً، ولكن خطأ الحس والفكر مرةً أو مرتين أو مئة مليون مرّة، لن يكون علىٰ أيّة حال سبباً في تزلزل اعتقادنا بكشف المعرفة عن الواقع، ولذا نقع في معرض الابتلاء بالشكّ المطلق.

أقسام المعرفة: المعرفة السطحية والعميقة

البحث التالي الذي نريد طرحه هو: أقسام المعرفة. يمكن تقسيم المعرفة من وجهات نظر مختلفة إلىٰ أقسام، أحدها المعرفة السطحيّة، في مقابل المعرفة العميقة، تلاحظون أنني تجنّبت استعمال الاصطلاح المتداول من تقسيم المعرفة إلىٰ سطحيّة وعلميّة، لأنني أخشىٰ أن نقع في محذور الدور والتسلسل بشأن العلم وضد العلم، الصحيح أن نقسم العلم إلىٰ سطحي وعميق، إنك تشرب قدحاً من الماء، إنَّ لك معرفة سطحيّة بالماء، يعني أنك لا تستبدل الماء بالتراب، فحينما تعطش تتناول الماء؛ لأنك قد اكتشفت هذه الخاصّية للماء، وهي أنه يرفع العطش، كما أنك تعلم أيضاً ببعض الخواص الأخرىٰ للماء إجمالاً، هذه معرفة سطحيّة، لكنها يمكن أن تتعمّق، إنَّ للماء خواصّ كثيرة، إنّه إحدىٰ الموادّ المحلّلة، يمكنه أن يحوّل كثيراً من المواد الكيمياوية إلىٰ محاليل، وقد أدرك الانسان هذه الخاصّية للماء بسبب تجارب كثيرة، فالماء قابل للتجزئة والتحليل، وقابل للتبخّر والانجماد، وكل شيء ينجمد يتقلّص حجمه وينجمد، إلاّ الماء فإنه حينما

يبلغ الدرجة الرابعة بعد الانجماد يتمدّد ويتّسع حجمه، وهذه خاصّيّة يؤدّي جهل الإنسان بها إلىٰ كثير من الأضرار، فإذا وضع مقدار من الماء في زجاجة، فإنَّ انجماده يؤدّي إلىٰ تمدّده وتحطّم الزجاجة، وإن العلم بهذه الخاصّيّة يجعلنا نتفادىٰ وقوع مثل هذه الحادثة، وكذلك الحال في علاقة الماء بالعوامل الأخرى: ما هي العوامل التي تؤدّي إلىٰ تبخّر الماء؟ ما هي العوامل التي تؤدّي إلىٰ انجماده؟ ما هي العلاقة بين ضغط الهواء والمسائل المتعلّقة بالماء؟ وكلّما ازداد الانسان علماً بهذه المسائل، يستطيع القول بأنّ معرفتي بالماء قد تعمّقت. أو: ما هي العلاقة بين الماء والحياة؟ هل يمكن أن توجد الحياة بدون ماءٍ أو لا؟ ما هي خاصّيّة الماء التي تجعله مؤثراً في وجود الحياة؟ إنّ هذه العلاقة بين الماء والحياة لا يعقل أن توجد صدفة. إنَّ معرفة الاجابة عن أمثال هذه الأسئلة تؤدّي إلىٰ تعميق المعرفة، فكلّما تعرّفنا أكثر علىٰ ظاهرة أو واقعة معيّنة، وعلمنا بعوامل تشكيلها، وعلاقاتها بالموجودات الأخرىٰ، وخواصّها وآثارها؛ استطعنا القول بأنَّ معرفتنا بها قد تعمّقت.

كيفيّة تطرّق الخطأ إلىٰ المعرفة؟

للمعرفة قيمة، سواء أكانت سطحيّة أم عميقة، ليست المعرفة من الأشياء التي لا ينتفع بالقليل منها، وينتفع بالكثير، للمعرفة تأثير بالغ في الحياة، سواء أكانت سطحيّة أم عميقة. عجباً، هل المعرفة السطحيّة نافعة أيضاً؟ نعم، إذن ما معنىٰ قولهم إنَّ القليل من المعرفة يؤدّي إلىٰ الضلال، وإن الانسان إنّما يخدع حينما تكون معرفته سطحيّةً، إننا نريد أن نحلَّ رمز الانخداع، لنرىٰ هل أن الانسان ينخدع بسبب المعرفة السطحيّة، أم أنَّ سبب الانخداع هو القيمة الزائدة التي يوليها لمعرفةٍ ما؟ هل ترون أنَّ الانسان إذا اهتمَّ بالمعرفة السطحيّة بالمقدار المناسب لها، ولم يصرف الجهد اللازم للمعرفة العميقة علىٰ المعرفة السطحيّة، لن يصاب بضرر أو

يتعرّض للخديعة. وإذا أنفق الانسان الجهد اللازم للمعرفة العميقة في مجال المعرفة السطحيّة، فإنه سيُصاب بضرر، وإلاّ فالمعرفة هي المعرفة، وهي دائماً واضحة ومفيدة بمقدار وضوحها. نقول مثلاً: كان فلان حاضراً في المجلس، وقد ارتحت له كثيراً، كان حديثه جيّداً، وكان مؤدباً، ولا يصدر منه إيذاءٌ لأحد، إنه إنسان طيّب، يمكن الاعتماد عليه في كلِّ المجالات، حتىٰ السياسيّة والاجتماعيّة الحسّاسة.

حسناً، هذا هو المورد الأوّل، وأمّا المورد الثاني، فهو: كنّا مع فلان، ووجدناه إنساناً طيّباً، فمنحناه مسؤوليّة في أحد الأعمال الحسّاسة، ثم تبيَّن أنه خبيث الباطن، في هذا الزمان علىٰ أيِّ شخص يمكن أن يعتمد الانسان؟ لا يمكن الاعتماد علىٰ أحد، أين يكمن العيب في هذه الأحكام؟ العيب في المورد الأوّل هو: من قال إنَّ من يتكلم بكلام جيّد في مجلس يكون جديراً بالثقة والاعتماد؟ إنك في هذا المورد لم تحصل علىٰ معرفة بجدارة هذا الشخص بالاعتماد، ما علمته فقط هو قدرته علىٰ إجادة الكلام، ولو أنك استفدت من هذه المعرفة بحدودها، كأن تكون بحاجة في أحد الاجتماعات إلىٰ شخص يجيد الكلام، فقمت بدعوة ذلك الشخص، فإنّك لن تندم؛ لأنّه لن يزعج أحداً، ولن يتكشّف عن سريرة رديئة. وإنما يكمن الضرر في أنّك رأيته حسن المعشر حلو الحديث، فأفرطت في الاستنتاج. وقلت إنه جدير بالثقة والاعتماد، لقد أخطأت في الاستنتاج. وقولهم إنّ المعرفة السطحيّة عامل ضرر، يراد به هذا المعنى، إنَّ المعرفة السطحيّة، ذات قيمة كالمعارف الأخرى، بشرط أن لا نتجاوز الحدّ في تقييمها.

كان أحدهم يصرّ علىٰ اعتبار رجل ما عنصراً فعّالاً في المجتمع، وكان يقول: إنه انسان فعّال اجتماعيّاً، ومفيد، حتىٰ أنَّ بإمكانه إلىٰ حدٍّ ما أن يقوم بتأثير قياديّ في بعض الأعمال. فسألته: ما مقدار اطّلاعك علىٰ معلومات هذا الرجل فيما يخصُّ تأثيره؟ فقال: إنني أعرفه منذ سنوات كثيرة. فقلت له: حسناً، هل يصلح واقعاً لهذا العمل؟ قال: نعم، إنه رجل

كامل. بهذه الأجوبة كان يحاول إقناعي بجدارة الرجل، وأخيراً بعد أربعة أو خمسة أسئلة وأجوبتها، توصلنا إلىٰ هذه النتيجة، وهي أنه بحاجة إلىٰ مساعدة لكي يتمكن من الشروع في العمل. وعندها وجّهت له سؤالاً آخر، وقلت: هل أنت مستعد لأن تقرض هذا الرجل نصف مليون تومان، دون أن تأخذ منه صكّاً بالمبلغ؟ فقال: لا. قلت: ما رأيك بمئة ألف تومان؟ فقال: لا، إن المعاملة لها حساب آخر، إننا أصحاب كسب وعمل، وحينما نعطي مبلغاً، لا بد أن يكون ذلك في مقابل صكّ، إلاّ إذا كان شخصاً معروفاً جيّداً، وكان المبلغ بمقدار لا يتعرض للضياع حتىٰ لو تعرّض ذلك المقترض لخطر.

فقلت له: أخي العزيز، كيف أصبح مصير المجتمع أقلّ قيمة لديك من مئة ألف تومان؟ إنّك مستعد لأن تضع في يده مصير الناس، ولكنك لا تضع في يده مبلغ مئة ألف تومان.

ما أقوله: إنّ المعرفة السطحيّة هي عامل انخداع، وتؤدّي إلىٰ خراب الأعمال، وهدر القوىٰ والطاقات، ومرجعها إلىٰ القيمة الزائدة التي نمنحها إلىٰ المعرفة، يعني أنك تعلم عن شيء ما مقدار مليمترين، وتجهل منه مقدار مليمترين، ثم تقيس بقيّة الأمور بهذا المقياس، وتقول: إنّ ما أجهله من هذا الشيء بمقدار ما أعلمه عنه، هذا هو القياس الخاطىء الذي يؤدّي إلىٰ تحطيم العمل، وإلاّ فإن ما تعلمه عن المليمترين صحيح، إن القرص الذي يكون داخله مرّاً، تجده مطليّاً بلون أحمر أو برتقالي حلو الطعم، هذا القرص إذا وضعته علىٰ لسانك ستجده حلواً، وإحساسك هذا ليس خاطئاً، ومعرفتك بحلاوته ليست خاطئة، إنها معرفة واضحة، فأين الخطأ والاشتباه إذن؟ الاشتباه في اعتقادك أنَّ جميع طبقات القرص حلوة أيضاً، يعني أنَّ الضرر في جهلك لا في علمك، إنك لم تعتنِ بجهلك، وهذه هي المعرفة السطحية، المعرفة السطحية بالمعنىٰ الدقيق للكلمة، تعني أنَّ الانسان يعلم شيئاً عن سطح وظاهر شيء مّا، وهذا المقدار من العلم جيّد وأفضل من

الجهل، وإنما الضرر في أن تقيسَ بقية طبقات الشيء الباطنة على الشيء الظاهر، إنَّ هذا القياس يعني عدم معرفة قيمة المعرفة التي حصلت عليها، هذا هو مبعث الضرر ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾[1].

إنَّ لديك علماً بهذه الطبقة، علمك هذا مبارك ونافع ومفيد، ولكن لا تظن أنَّ الطبقات السفلى كالطبقة العليا، فإذا ذهبت إلى هذا الظن، أقول لك: إنَّ الظن لا يغني من الحقّ شيئاً.

فإذن ما نسمّيه معرفة سطحية هو مركّب من معرفة ومن ضدها، وهذا ما ندينه، وأما تلك الطبقة التي تكون معلومة، فإنها لا تستحق الإدانة؛ لأنها بذاتها لها نفس القيمة التي للمعرفة العميقة، تلك معرفة، وهذه معرفة.

ونحن لا نرى في منطق القرآن بحثاً لهذه المسألة بهذا العنوان، طبعاً يوجد في بعض آيات القرآن كلام على ألسنة الآخرين يتعلّق بالمعرفة السطحيّة، مثلاً في قصة نوح عليه السلام حينما أخبر قومه بأنه رسول الله إليهم ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾[2]. أي: إنَّ الذين اتّبعوك هم أراذل القوم بسبب النظر السطحي، دون أن يتعمّقوا في أمرك، هنا كلمة (باديَ الرأي) قد استعملت بمعنى المعرفة السطحية، ولكن هذا من وجهة نظر الكافرين، ولا نجد مثل هذا الاستعمال في موضع آخر من القرآن، لقد دعا القرآن إلى التفكير، وهذا ما سنبحثه بعدُ حينما نتعرّض لمعرفة، ولكن لنقول: إن المعرفة السطحيّة ليست ذات قيمة، إن ما ليس له قيمة ويلحق الضرر هو الظن، أي: قياس شيء مجهول على شيءٍ معلوم، دون أن تقوم المقايسة على

---

(١) سورة النجم/ ٢٨.

(٢) سورة هود/ ٢٧.

أساس، المضرُ هو الظن في مقابل العلم، إذن فتقسيم المعرفة إلىٰ سطحية وعميقة عمل صحيح، ولا يسقط المعرفة السطحيّة عن القيمة، فكلّ من المعرفة السطحيّة والعميقة لها قيمتها في حدودها الخاصة.

أسئلة وأجوبة:

[أحد الحاضرين]: السيّد الدكتور، هل هناك حدٌّ مطلق حول المعرفة؟

[الدكتور بهشتي]: مثلاً؟

[الشخص نفسه]: كأن نقول: هذه المعرفة كاملة العمق، والأخرىٰ ليست أعمق منها.

[الدكتور بهشتي]: كلا، كلّما تعمّق الشيء، فهناك ما هو أعمق منه، ما هي الضرورة للسؤال عمّا يسمّىٰ بالمعرفة الكاملة؟ طبعاً إنَّ المعرفة الكاملة ممكنة الوجود، ولكن بالنسبة لنا نحن البشر ليس هناك شيء يمكننا أن نقول إن معرفتنا به كاملة، لا أمتلك الآن نموذجاً، كلّما كانت المعرفة عميقة وواضحة، يمكن أن تزداد عمقاً، وكل معرفة لها من القيمة بمقدار وضوحها.

[أحد الحاضرين]: هل أنَّ المعرفة كلّما أصبحت أكثر تطوراً، نقول إنها أعمق؟

[الدكتور بهشتي]: بمقدار شدة وضوحها، يعني: كلّما اتضحت لنا زوايا الشيء وطبقاته أكثر.

[الشخص نفسه]: قصدي لو شرعنا بمعرفة قطعيّة، وواصلنا البحث فهل يمكن أن تتخذ اتجاهاً خاطئاً، بحيث يتّسع مدىٰ الخطأ فيها كلما تقدّمنا في البحث؟

[الدكتور بهشتي]: في هذه الحالة لن تكون معرفة، المعرفة الخطأ ليست معرفة.

[الشخص نفسه]: لنفترض صحّة البداية، مثلاً قال القدماء: إن الطبيعة تخاف من الخلاء، لقد لاحظوا حينما يكون قعر إناء الماء مغلقاً، فإنّه لا يسرّب الماء، وهذا مبدأ للمعرفة، وهي معرفة صحيحة، غاية الأمر فسّروها بخوف الطبيعة من الخلاء.

[الدكتور بهشتي]: هل كان تفسيرها ظنّاً أو معرفةً؟

[الشخص نفسه]: كان ظنّاً.

[الدكتور بهشتي]: انظروا، كلّما حاولتم طرح هذه المسائل، سوف تزداد معرفتكم بمصطلحات القرآن عمقاً، وتستمتعون بالاتصال المباشر به، وتلمسون أكثر المواضع حساسيّة فيه، وفي مورد هذا السؤال جاءنا البلاء أيضاً من إسباغ قيمة المعرفة علىٰ غير المعرفة، أعني: الظن لا تقولوا حينما تصبح المعرفة أعمق تتجه إلىٰ الخطأ، كلا، لقد أتيتم بغير المعرفة، وألصقتموها بالمعرفة، وأعطيتموها قيمة المعرفة، وهذا خطأ يجب أن نسعىٰ لكي لا يحصل، أمّا كيف نسعىٰ؟ هذا ما نذكره في البحوث التالية.

[أحد الحاضرين]: إن المعرفة شيء متصل، وحينما يكون الشيء متصلاً لا يمكن تقسيمه إلىٰ سطحي وعميق، إنها شيء دائم، وهي في تزايد وعلىٰ نحوٍ مستمر، ولا يمكن القول إنه من هنا إلىٰ هنا سطحي، ومن هنا إلىٰ هناك عميق.

[الدكتور بهشتي]: كلا، إنها أمر نسبي، حينما نقول: سطحيّ وعميق، ما هو مرادنا؟

[الشخص نفسه]: لماذا نقسّمها إذن؟

[الدكتور بهشتي]: إنني لم أقسمها، وإنما قلت: هذا تقسيمهم للمعرفة. ولذا قلت: لكلِّ معرفة قيمتها، المعرفة السطحيّة، أي معرفة

الطبقة الظاهرة، لها قيمة بمقدارها. والطبقة الثانية تكون معرفتها أعمق من الأولى، لكنها تكون سطحيّة بالنسبة إلىٰ الطبقة الثالثة، هذا ما ذكرته، وهذا التقسيم الاصطلاحي لا بأس به، بشرط أن لا يوقعنا في الخطأ، فنظن أنَّ المعرفة السطحية لا قيمة لها، بل نمنحها من القيمة ما هو بمستوىٰ حدّها الخاص.

[أحد الحاضرين]: إنني أعتقد أن المعرفة السطحية لا يمكن أن تكون بمنأًى عن إيقاعنا في الخطأ، إذ أن كلَّ فردٍ يريد أن يستخدم المعرفة للوصول إلىٰ نتيجة، وحينما تكون لديَّ معرفة سطحيّة بشيء، وأريد أن أحصل منه علىٰ نتيجة، فإنني سأقع في الخطأ شئت ذلك أم أبيت، وعليه فلا أعتقد أننا نستطيع الإفادة من جميع المعارف السطحية.

[الدكتور بهشتي]: اضرب مثالاً، أنا قلت: إن لدينا معرفة سطحية بالماء، وهي أنه يروينا من العطش، وهي معرفة سطحية بالنسبة للعلم بخصائص الماء التي عرضتها سابقاً، ولكن هل أنَّ هذه المعرفة ليس لها فائدة البتّة؟ ولا يمكن الاعتماد عليها؟ أي أنَّ الشخص الذي يعاني من العطش لا يشرب الماء ما لم يكتشف جميع خصائص الماء ويعلم بالمسائل المتنوعة المتعلقة بالماء؟

[الشخص نفسه]: كلا، إنني أضرب مثالاً آخر، مثلاً تكون لديَّ معرفة سطحيّة بأنَّ الكحول نافع للبدن، فأتناول مقادير كثيرة منه استناداً إلىٰ هذه المعرفة.

[الدكتور بهشتي]: هذا ظن، لقد علمت بأنَّ الكحول نافع للبدن، ولكن بأيِّ مقدار؟

[الشخص نفسه]: لا أعلم.

[الدكتور بهشتي]: فأنت إذن تعطي قيمة لهذه الـ(لا أعلم) لماذا شربت كثيراً من الكحول؟ أنت لم تعلم أن المفيد طبيعة الكحول الموجودة

في سائر الأشياء، ولو بنسبة قليلة، أم النافع هو الكحول الخالص؟ ما علمته هو فائدة الكحول للبدن، بنحو عام ومجمل. حينما تأكل التفّاح تكون قد تناولت الكحول، وهذا المقدار كافٍ للبدن، ولكن لو استخرجنا الكحول من التفاح. هل تكون فائدته هي نفس فائدته وهو في التفاح؟ ستقول: لا أعلم، ما نعلمه هو فائدة الكحول إجمالاً، وما جرّبناه هو فائدة الكحول الموجود في التفّاح. فإذا استفدنا من نتائج التجربة بجميع خصائصها، ستكون المعرفة نافعة دائماً، انتبهوا إلىٰ أن مكمن الخطر هو اعطاء قيمة المعرفة لغير المعرفة، وإلاّ فالمعرفة ذات قيمة دائماً، إنها واضحة ومفيدة دائماً، كل معرفة في حدودها الخاصة.

[أحد الحاضرين]: ولكن ليس لدينا معيارٌ لذلك.

[الدكتور بهشتي]: هناك معيار نقدِّمه، نقول: كل معرفة لها قيمة وفائدة في حدّها الخاص، ونوصي أن لا نعطي للمعرفة قيمة أكثر ممّا تعطيه هي من وضوح، العلم نافع، ولكن إسباغ قيمة العلم علىٰ الظن خطر؛ لأن (الظنَّ لا يغني من الحق شيئاً) ضعوا هذه القاعدة تحت أيديكم، كلّ المعارف مفيدة، السطحيّة، ونصف العميقة، والعميقة، والعميقة جداً.

[أحد الحاضرين]: كيف نميّز المعرفة عن الظن؟

[الدكتور بهشتي]: سنبحث فيما بعد معايير ووسائل المعرفة، ما نريد أن نقوله هنا هو: أنه لا يحسن طرح أيّة معرفة بحجّة أنها سطحيّة، المعرفة مهما كانت درجتها، تظلّ معرفة وذات قيمة، نعم نتعامل مع كلّ معرفة بحدّها الخاصّ، وأظن أنَّ هذه القاعدة أفضل من التقسيم الذي يجعلنا نتساءل عن أيّة معرفة توصف بالسطحيّة، وأيّة معرفة توصف بالعمق.

[أحد الحاضرين]: سيّدي الدكتور هل تقصد أنه لا وجود للمعرفة الكاملة؟

[الدكتور بهشتي]: لا أقول ذلك، وإنما تساءلت عن وجودها، وإنني

لا أعلم بوجود معرفة كاملة بالنسبة للإنسان.

[الشخص نفسه]: هل ذلك حاصل في الأمور الذهنيّة والخارجيّة أيضاً؟

[الدكتور بهشتي]: في جميع الأمور.

[الشخص نفسه]: يعني لو قيل: إنَّ الفلزات في العالم مئة وستة، وأقيم الدليل علىٰ ذلك، أو الجدول البياني، وأمثال ذلك، هل هذه المعرفة ليست كاملة؟

[الدكتور بهشتي]: ما معنىٰ كونها كاملة؟

[الشخص نفسه]: معناه أنها ليست قابلة للزيادة.

[الدكتور بهشتي]: هذا ليس مصداقاً للكامل، نحن لم نقل: ليس هناك مسائل قطعيّة، هناك فرق بين السؤال عن وجود أو عدم وجود حقيقة قطعيّة، وبين وجود معرفة كاملة أو عدم وجودها، لا تخلطوا بين الاثنين، (المعرفة الكاملة ليست موجودة) معناها مثلاً: هل أننا اليوم علىٰ معرفة كاملة؟ يعني فيما يخصّ الحديد ليست هناك أيّة قضيّة غير معلومة لنا؟ مقصودي هو: أننا لا نستطيع ادعاء المعرفة الكاملة بأيّ شيء: التبن، الهواء، الماء، الشمس، النور، حتىٰ أبده البديهيّات.

وإنّما أكّدت علىٰ هذا الموضوع لأننا نريد أن نستند إلىٰ قاعدة بشأن قيمة المعرفة، وهذه القاعدة قريبة جداً للآيات الواردة في القرآن بهذا الشأن، وقد أشارت إليها إجمالاً، أريد أن تعلموا أنها قاعدة طبيعيّة وفطريّة وواضحة جداً، ولا أظن من الصحيح أن نفرّط بهذه القاعدة ونضيّعها دون مسوّغ.

المعرفة العلميّة وغير العلميّة:

تقدّم أنه قد يقال: المعرفة السطحيّة والمعرفة العلميّة، فبدلاً من أن تجعل المعرفة العلميّة مقابل غير العلميّة، جعلت في مقابل المعرفة

السطحيّة، وقيل: المعرفة السطحيّة والمعرفة العلميّة، تعني: اكتشاف جميع أو معظم جوانب ظاهرة معيّنة، ومعرفة علاقاتها ببقيّة الظواهر، ولا شكّ أن قيمة المعرفة العلميّة (أي معرفة ارتباط كل ظاهرة بسائر الظواهر) هو أهم من قيمة معرفة الظاهرة دون رابطتها بالظواهر الأخرى، لأنها معرفة أكثر. مثلاً: لو كان الناس في هذه البلدة مرضىٰ وألوانهم شاحبة، فتارة نكتفي تجاه هذه الظاهرة بالقول: نعم، إنَّ هذه هي حالة أهل هذه المنطقة، ونريح أنفسنا من البحث عن سبب كونهم كذلك. فهذه معرفة سطحية، ومعرفة غير علميَّة. وتارة نتقدّم لنبحث عن سبب كونهم مرضى وشاحبي الوجوه، وهذا راجع إلىٰ خواص جينيّة، أم عرقيّة؟ هل هو راجع إلىٰ طبيعة مناخ المنطقة؟ أم أنها مسببة عن الوضع الاقتصادي؟ هل راجعة إلىٰ المستوىٰ الاجتماعي أو الثقافي أو ضعف الوعي؟ نسعىٰ للبحث عن علل وعوامل هذه الظاهرة، أي نسعىٰ لاكتشاف علاقة هذه الظاهرة ببقيّة الظواهر، واكتشاف أيّ من هذه الظواهر هو المؤثر في بروز ظاهرة مرض الناس وشحوب ألوانهم، هذه المعرفة يقال لها: معرفة علميّة.

[أحد الحاضرين]: المعرفة العلميّة ذات علاقة بوسائل المعرفة أم بأساليبها؟

[الدكتور بهشتي]: أوضح لكم، في أحد البحوث عن المعرفة، عرضت هذه المسألة بهذا الترتيب الذي عرضته لكم، وأنَّ المعرفة العلميّة هي عبارة عن تشخيص تأثير بقيّة الظواهر في وجود ظاهرة معيّنة، وقد جعلوها في قبالِ المعرفة السطحيّة، وقد ذكرت لكم أنَّ هذه المعرفة هي في الحقيقة المعرفة العميقة، أي يجب أن نقول: المعرفة العميقة في قبال المعرفة السطحيّة، لأنَّ إحدىٰ وظائف العلم هي معرفة علل وعوامل الظواهر.

[الشخص نفسه]: ولكنَّ المعرفة هنا هي معرفة العلاقة، معرفة العلّية، معرفة العلّة والمعلول، وليست معرفة للظاهرة.

[الدكتور بهشتي]: لماذا؟

[الشخص نفسه]: لنأخذ ظاهرة مرض الناس، لو أردنا معرفة واكتشاف علاقتها بالأشياء الأخرى، فهذه معرفة لتلك العلاقة، ولكن لو تعرّفنا علىٰ المرض نفسه بالأساليب والوسائل العلميّة، تحققت لذينا المعرفة العلميّة.

[الدكتور بهشتي]: كلا، إنَّ المطابق للاصطلاح العلمي المعاصر هو أن المعرفة العلميّة لظاهرة خاصة، هي: معرفة العلل والعوامل التي أدّت إلىٰ نشوئها، ونحن نتكلّم طبقاً لاصطلاحهم، فمن حيث الإصطلاح فإن المعرفة العلميّة للظاهرة، هي معرفة علاقتها بالعوامل والأسباب التي أدَّت إلىٰ ظهورها.

[الشخص نفسه]: هنا أيضاً خلطنا معرفة العلّية بمعرفة الظاهرة وعلاقاتها ببقيّة الظواهر.

[الدكتور بهشتي]: نحن لا نريد المنازعة في الاصطلاح، ولا نريد أن نبحث بحثاً اصطلاحيّاً، نحن نستطيع القبول بأننا متى ما عرفنا علاقة شيء بعلله وعوامله، تكون معرفتنا به قد ازدادت، ونسمّي هذا معرفة، وأننا حصلنا علىٰ معلومات أكثر فيما يتعلّق بهذا الشيء، مثلاً أنتم تقولون: في هذا العصر أصبحت معرفتنا بالسرطان أفضل، أيّ شيء أصبحت معرفته أفضل؟

[الشخص نفسه]: علل السرطان.

[الدكتور بهشتي]: نعم، علله، شيء واضح جداً، يعني علله، وحتىٰ أدويته، يعني حينما نكتشف أكثر ما يتعلّق بأسباب السرطان وكيفية علاجه، نقول عادة: إنَّ معرفة السرطان أصبحت أفضل، وهذا ليس بحاجة إلىٰ بحث.

[أحد الحاضرين]: أليست المعرفة هي علم الاكتشاف؟ وإلاّ فما معنىٰ كونها علماً؟

[الدكتور بهشتي]: هذا مجرد اصطلاح، المعرفة العلميّة هي اصطلاح، يعني: إن المعرفة علاوة علىٰ كونها علماً بالشيء نفسه، هي علم بعلاقاته أيضاً.

[أحد الحاضرين]: المعرفة العلميّة هي المعرفة التي تكون توأماً للارادة، وتوأماً للبحث من أجل الوصول إلىٰ المقصود.

[الدكتور بهشتي]: لا ضرورة لهذا التعبير، يكفي ما ذكرناه من التعريف، سواء حصلت المعرفة بالإرادة أو لم تكن إراديّة، لو أجبروا شخصاً علىٰ اكتشاف علل وعوامل شيء ما، فإن معرفته هذه تكون معرفة علميّة.

[الشخص نفسه]: يمكن أن نتعامل مع شيءٍ ما بدون إرادة مسبقة، لنحصل علىٰ معرفة سطحيّة، ولكن هناك حالة نقصد فيها متابعة البحث عن شيء لكي نعرَّف عليه.

[الدكتور بهشتي]: أنتم تعلمون بأننا حتىٰ إذا اكتشفنا صدفةً علّة شيء، نكون بالنتيجة قد اكتشفنا علّته، هذا اصطلاح. طبعاً لا بأس بأن يضع شخص اصطلاحاً آخر، مثلاً شخص يضع اصطلاحاً ثالثاً، ويقول: المعرفة العلميّة، هي التي يحصل عليها الانسان بالكدح والمتابعة الإراديّة، ولكن هذا ليس له قيمة في بحثنا. نقول: إن تقسيم المعرفة إلىٰ علميّة وغير علميّة، يعني علميّة وسطحيّة، ليس له تأثير مهمّ في بحثنا، وإنّما هو اصطلاح نتعرّف عليه، وهو اصطلاح جيّد، لأنه يجعل قيمة المعرفة العلميّة أعلى من المعرفة غير العلميّة، أي السطحيّة، ويجعل كفّة وعينا بالشيء أرفع من الشك.

حسناً، كلّما كان الإدراك أكثر، ارتفعت قيمته، وكلّما عملت أكثر،

ازدادت أجورك، وعليه يمكن القول بأنَّ تقسيم المعرفة إلىٰ سطحيّة وعميقة وعلميّة، لن تكون علىٰ درجة من الأهميّة. سنذكر في البحوث التالية أنَّ معرفة العلل والعوامل مهمّة جداً، ولكن ليس من الضروري أن نعطي قيمة عالية لهذه الاصطلاحات المحدودة، إنَّ ما له قيمة هو العلم بعوامل الأشياء وعللها، مهما كان الاسم الذي نطلقه عليه. ما له قيمة هو تنمية إدراكنا ووعينا لعوامل ظهور الأشياء، إنَّ هذا له تأثير مهمّ علىٰ البشر، وهذا أمرٌ مقبول للجميع.

أحياناً تقسّم المعرفة عن طريق تقسيم وسائلها، كالمعرفة الحسّية وغير الحسّية، وسنتطرق لهذه التقسيمات في البحوث التالية، وأحياناً يقسّمون المعرفة من جهة الموضوع، وهذا ما سنبحثه لاحقاً أيضاً، وإنما أردت الإشارة إلىٰ ما هو مذكور في كرّاسات بحث المعرفة، وإن لم يكن له تأثير كبير في بحثنا.

إنَّ ما توصَّلنا إليه لحدّ الآن هو: أنَّ المعرفة أمر معلوم لنا جميعاً، وواضح بنحو لا يُحتاج معه إلىٰ توضيح وتفصيل، والبحث عن ماهيّة المعرفة، وأنها مادّية أم مجرّدة، ليس له تأثير في بحثنا، ما له تأثير هو قدرة المعرفة علىٰ إثبات الواقع، وتزويدنا بالمدركات الواضحة، وهذا أمر واضح علىٰ الإجمال وغير قابل للإنكار، طبعاً الحسّ والفكر قد يقع في الخطأ، ولكنَّ هذا لا يؤثر في ما ذكرته لكم من قدرة المعرفة علىٰ تزويدنا بالمدركات وكشفها عن الواقع، لدىٰ كلٍّ منّا إدراك يكشف له عن واقعيّة الآخرين، وإذن فإن وقوع ألف ومليون خطأ في الحسّ والادراك لا يحول دون اقتناعنا بقدرة المعرفة علىٰ الكشف عن الواقع، بل لكلٍّ معرفة قابلية الكشف عن الواقع بمقدار وضوحها، ولها قيمة بهذا المقدار أيضاً، فالمعرفة السطحيّة لها قيمة بحدّها، وكذلك العميقة، ونصف العميقة، والعميقة جداً. إن معرفة العلل والعوامل هي نفسها المعرفة العميقة، ومن الطبيعي أن تكون قيمة المعرفة العميقة أعلىٰ من المعرفة غير العميقة.

تلاحظون أنَّ هذه المسائل لا تحتاج إلىٰ بحث وجدال؛ إنها من الواضحات، فلا بدَّ أن نمرَّ عليها سريعاً، لنصل إلىٰ البحث عن الأمور الضرورية في نظرية المعرفة، مثل: طرق المعرفة، وسائل المعرفة، مجالات المعرفة. وهي من المسائل الممتعة التي لا بدَّ أن نتحاور بشأنها، ونتعمّق في إدراكها، وأمّا النظر في الأمور الأوّليّة، فليس فيه شيء سوىٰ إتلاف الوقت، ومع هذا فإن كان لدىٰ الإخوة سؤال بشأن تلك الأمور، فإنَّ بوسعه أن يطرحه.

تلاحظون أنني الليلة قد حاولت الابتعاد عن استعمال الاصطلاحات الداخلية والخارجيّة، ترون أنَّه بهذه البساطة وباستعمال لغة العوامّ (عفواً، فإنكم من أهل العلم) نستطيع البيان والإيضاح، بلا حاجة لكلّ تلك البحوث المعقَّدة التي توجد بهذا الخصوص في الكتب المختلفة، وإذا كان لدىٰ الإخوة رأي آخر، فليتفضّلوا بطرح أسئلتهم.

[أحد الحاضرين]: بالنسبة للاصطلاح الذي استعملته: المعرفة العلميّة وغير العلميّة، هل يمكننا أن نسمي مجموعة المدركات التي لدينا بالمعرفة العلميّة؟

[الدكتور بهشتي]: طبق هذا الاصطلاح، نعم، حينما تتعرف علىٰ الشيء، وعلىٰ علاقاته بمحيطه وبالظواهر الأخرى، نقول: هذه معرفة علميّة.

[الشخص نفسه]: بالنسبة للمعرفة العميقة قلتَ إنّ. . .

[الدكتور بهشتي]: لقد ذكرت أنَّ هذا النوع من المعرفة العميقة.

[الشخص نفسه]: يعني أنه مقطع من المعرفة العميقة؟

[الدكتور بهشتي]: إنه واحد من أقسام المعرفة العميقة، يعني حينما يعرف الانسان شيئاً، ويعرف علاقاته، فإنّه يكون قد تعمّق في معرفته، أي اكتشف جوانب أخرىٰ منه.

[الشخص نفسه]: أيمكن القول بنسبيّة هذه المعرفة العلميّة؟

[الدكتور بهشتي]: إنها نسبيّة طبعاً، كلّ ما يقولونه نسبيّ، حتىٰ أصحاب هذا الاصطلاح يقولون إنها نسبيّة، المعرفة العلميّة نسبيّة دائماً، ليس في هذا شك.

[أحد الحاضرين]: سيادة الدكتور، إذن يمكننا أن نقول دائماً إن معرفتنا علميّة؛ لأنَّ كلَّ معرفةٍ بالنسبة لما قبلها تكون أعمق.

[الدكتور بهشتي]: لو أردت أن تقول هذا، لا مانع، وليس من حقّ أحدٍ أن يقف بوجهك، ولذلك قلت من العبث التوقف عند هذه البحوث، لدينا واقعاً شيء واضح وصافٍ جداً، ومقبول فطريّاً، وهو أنَّ كل معرفة بحدود كونها معرفة وليست ظنّاً، لها قيمة، ولكن في حدودها وبمقدارها.

[أحد الحاضرين]: ولكن ليست سوىٰ علاقاتها بالأشياء الأخرى

[الدكتور بهشتي]: حسناً، لا يكون ذلك، لو قال شخص: إنَّ الظاهرة شيء غير علاقاتها بغيرها، وإلاً لكانت كل الظواهر علاقات وروابط. لا نريد أن نتورط بهذه الأبحاث، نريد أن نمرَّ بها مرَّ الكرام، ولكن حسناً، أنت تعتبر أنَّ الرابطة لا تكون دون طرفين، كل رابطة لها طرفان.

على كلِّ حال، هذه المعرفة ـ التي تقولون إنها علاقة موجود بسائر الأشياء الأخرى. هل هي القادرة علىٰ إراءَتنا الواقع، أم لا؟ هذا هو المهم، فإذا كانت تمتلك هذه القدرة، فقد تمَّ المطلوب، ولتكن ما تكون، المهم لنا أن تكون المعرفة والعلم والادراك، كاشفة عن الواقع، وتستطيع أن تقول: هذا موجود، وإلى حدّ ما تقول: ما هو.

[الشخص نفسه]: مرادي أنّه لا فرق بين المعرفة العميقة والمعرفة العلميّة، أي لا يمكن أن تتعلق المعرفة العلميّة بشيءٍ، ثم تتحقّق بعدها معرفة أَعمق.

[الدكتور بهشتي]: ولكن بالنتيجة قد يحصل في مجال المعرفة العلميّة، أن يكتشف الانسان تارةً علاقة واحدة (فتكون نسبةً سطحيّةً) وتارةً أخرىٰ يكتشف مئة علاقة (فتكون معرفته عميقة في هذه الصورة) كلّما اكتشفنا قدراً كثيراً من علاقات ظاهرة مّا، تتعمّق معرفتنا بالنسبة لما سبقها.

[أحد الحاضرين]: أعتذر كثيراً، إنني أسأل عن القاعدة التي نستطيع بها أن نميّز المعرفة الصحيحة عن الخاطئة.

[الدكتور بهشتي]: قلت لكم إننا سنصل إلىٰ بحث هذه النقطة في البحوث التالية.

[أحد الحاضرين]: ما هو المراد من تقسيمهم للمعرفة إلىٰ واقعيّة وغير واقعيّة؟

[الدكتور بهشتي]: لو قمتَ بتعريف هذين القسمين بنفسك، وبيَّنت استنتاجك عن المعرفة الواقعيَّة وغير الواقعيَّة، فستجد أنَّ هذا التقسيم غير صحيح، فما معنىٰ المعرفة الواقعيّة والمعرفة غير الواقعيّة؟

[الشخص نفسه]: المعرفة غير الواقعيّة هي التي تقوم علىٰ أساس خاطىء.

[الدكتور بهشتي]: مثلاً؟

[الشخص نفسه]: مثلاً كان القدماء يقولون: الأرض ساكنة، فهذه كانت معرفة لدىٰ القدماء.

[الدكتور بهشتي]: وهل كانت تلك معرفة ـ أي كاشفة عن الواقع ـ أم هي مجرّد ظن وضع في مكان العلم؟ أيّهما؟ نحن نقول: المعرفة كاشفة عن الواقع، والمعرفة غير الواقعيّة معناها أن نعطي لغير المعرفة قيمة المعرفة، القدماء كانوا ينظرون بأعينهم ويرون الشمس تتحرك، كما لو كنت راكباً سيّارة تتحرّك بسرعة، فإنك ترىٰ الأشجار علىٰ الطريق، وكأنها تتحرّك

بعكس حركة السيارة، مع أنها ثابتة في مكانها، وأنت الذي كنت تتحرّك.

[الشخص نفسه]: ماذا لو أننا استفدنا نتيجة صحيحة من تلك المعرفة غير الواقعيّة؟

[الدكتور بهشتي]: طبعاً هذا ممكن، ولكن تلك النتيجة لا يمكن بحالٍ أن تكون مأخوذة من تلك المعرفة غير الواقعيّة، إنَّ تلك النتيجة مأخوذة من معرفة واقعيّة وصحيحة، ولكنها ربطت ـ بدون مسوّغ ـ بغير المعرفة، مثلاً التنبّؤ بالخسوف والكسوف، كان عمليّاً علىٰ أساس أن الشمس تدور حول الأرض، ولكنَّ هذا التنبّؤ ممكن في الحقيقة علىٰ كلِّ من تصوّر دوران الأرض حول الشمس، أو دوران الشمس حول الأرض[1].

(١) «إنَّ الوصول إلى نتيجة خاصة، ليس منحصراً بطريقةٍ واحدة، فمثلاً كان أبو علي بن سينا يعتقد ويتصوّر أنَّ الفراغ محالٌ، وأنَّ الماء يتقلّص بالانجماد، ولذا تنكسر الزجاجة التي يتجمّد الماء داخلها، بينما يرىٰ الفيزيائيّون المعاصرون عكس ذلك، وأن الفراغ ليس محالاً، وأنَّ الماءَ حينما ينجمد يتمدد، ولهذا السبب تنكسر الزجاجة حينما يتجمّد في داخلها الماء، وكذلك يمكن تصوّر الشمس تدور حول الأرض، وعلى هذا المبنىٰ (علاوة علىٰ المبنىٰ الآخر) نستطيع أن نحدّد زمان وقوع الكسوف التالي، ونستطيع أن نغيّر المبنى، ونرىٰ أنَّ الأرض هي التي تدور حول الشمس، ثم نتنبّأ بزمان الكسوف التالي، فنصل إلىٰ نفس النتيجة، ويمكن إعطاء مئات الأمثلة من هذا القبيل» عبد الكريم سروش، قبض وبسط تئوريك شريعت، مطبعة صراط، طهران، الطبعة الرابعة، عام ١٣٧٤، ص٣٦٢.

الجلسة الرابعة

شروعاً في بحث أقسام المعرفة، نذكر هذه الأقسام تباعاً، لكي ننتقل إلىٰ بحث وسائل المعرفة، وكما ذكرت للإخوة في أوّل البحث، سألتزم بتجنّب البحث الفني بما فيه من تعقيد واصطلاحات، سواء كانت مصطلحاتنا أو مصطلحات أجنبيّة، وسأقتصر تقريباً علىٰ الألفاظ والكلمات التي دوّنّاها في الجلسة الأولىٰ، ومرّة أخرىٰ أوضّح سبب هذا الأمر، لكي يعرف الإخوة الدافع لهذا الاجتناب.

إنَّ البحث الذي نخوض فيه الآن، هو بحث عامّ عن المعرفة، وليس بحثاً متعلّقاً بأهل الفن والاختصاص، والذي أراه أنَّ استعمال المصطلحات الخاصة ذو تأثير إيجابي في بحوث أهل الفن، إلاّ أنَّ تأثيره سلبي في الأبحاث العامّة. إن استعمال المصطلحات بالنسبة للمختصين يساعد علىٰ الاختزال والايضاح، ولكنّه مضرّ في البحوث العامّة، لأجلِ ما يتطلبه من وقت في بيان معاني تلك المصطلحات، ولأنَّ المعاني لا تبقىٰ ثابتة في ذهن المخاطب بنحوٍ يغني عن إيضاحه مرّة أخرىٰ، ممّا يجعل البحث مشوباً بالغموض والإبهام، لذا فإنَّ طريقتي كانت دائماً هي الاستفادة من الكلمات العامة في هذه البحوث، وهذه الطريقة موفقة، ولم أواجه في استعمالها أيّ إشكال.

بحث حول الاصطلاحات:

المسألة الأخرىٰ حول الاصطلاحات، هي: تنوعها وتطورها. أحياناً نرىٰ أنهم يستعملون في كتب الفن كلمات مختلفة للتعبير عن معنى واحد علىٰ مرّ العصور، وعليه لا بدّ من تعلّم عشرة مصطلحات لكي نعرف ذلك

المعنىٰ في تلك الكتب، حسناً إنَّ هذا ضروري لأهل الفنّ، ولكن هل هو كذلك بالنسبة للعامة؟

المسألة الثانية هي: تطوّر الاصطلاحات. فإنّ المصطلح الواحد قد يستعمل في معانٍ متنوعة في العصور المختلفة للفكر البشري، فحينما أستعمل هذا المصطلح الآن، لأيّ معنى أكون ناظراً؟ هذا محيّر، أما إذا استفدنا في هذه البحوث من هذه الكلمات المتداولة لدينا، فإننا لن نواجه أمثال هذه المشكلة، ونتيجة الكلام إننا سنقتصر علىٰ بحث الجوانب التي يتطلبها موضوع البحث، ونتجنّب التوضيحات والتفصيلات التي لا يتوقف عليها فهم الموضوع، وكذلك نبتعد عن الخوض فيما يتطلّبه فهم قول الفيلسوف الفلاني، أو المصطلح الفلاني، أو فهم التبويبات الدقيقة في كتب المعرفة، ولكنني مستعد في كلِّ وقت لأسئلة الإخوة فيما يتعلّق بما يريدون توضيحه بهذا الشأن، شريطة أن لا يعيق تقدّمنا في البحث، وأجيب عنها بما هو حاضر في ذهني، وإلاّ فإنني سأراجع المسألة، لأجيب عنها في الأسبوع التالي، وسيظلّ البحث محافظاً علىٰ الطابع العام، بنحو يجعله مفيداً للجميع، وسنحافظ علىٰ هذا الطابع في تقسيم المعرفة.

المعرفة البديهيّة، والمعرفة النظريّة:

للمعرفة قسمان أساسيّان لا ثالث لهما: المعرفة البديهيّة، والمعرفة النظريّة الاكتسابيّة. المعرفة البديهيّة هي التي تحصل لدىٰ الانسان بدون تأمّل أو إعمال نظر (إنَّ المعرفة الاكتسابية قد تقع في مقابل المعرفة الفطريّة، لذا من الأفضل استعمال اصطلاح البديهي والنظري).

وسوف نعرّف كلاً من المعرفة البديهيّة والنظريّة، سواء انسجم هذا التعريف انسجاماً كاملاً مع التعاريف الواردة في الكتب العلميّة أم لا؟ لأنَّ تلك التعاريف ليست وحياً منزّلاً، وإنما هي مستندة إلىٰ وجهات نظر، ونحن لدينا أيضاً وجهة نظر، من حقنا أن نبني عليها التعريف.

الإدراك البديهي هو ما نحصل عليه بسهولة وبلا تعقيد، وبلا حاجة إلىٰ تأمّل وتحليل واستنتاج. والإدراك النظري هو ما يتطلّب الحصول عليه تأملاً وتحليلاً واستنتاجاً.

أيّها الأعزَّاء، هل لديكم شكّ في وجود هذين النوعين من المعرفة؟ إن كان ذلك تفضّلوا بذكره، إنني الآن أدرك حضوركم في هذه الغرفة، وهذا الادراك ليس بحاجة إلىٰ تأمّل وتحليل واستنتاج، فلن نجعل هذه البحوث فنيّةً، لن ننقل البحوث الفنيّة إلىٰ ساحة المجتمع، والملفت للنظر في البحوث الفنيّة أنَّ العلاج النهائي هو نفس العلاج الأوّلي، لقد تكلمت في الليلة الأولى عن السوفسطائيين، هل لدينا واقعاً شكّ أو تردد في أننا جالسون هنا؟ أنتم تدركون حضوري، وأنا أدرك حضور هذا السيّد، وهو يدرك حضوركم. عندما نقوم بتشغيل المصباح المطفأ، فهل نشكّ في أنه كان مطفأً وهو الآن مضيء؟ هل نشكّ في أنه علىٰ الأقل توجد اثنينيّة وتعدد في الوجود؟ لقد كان المصباح علىٰ حالة، فأصبح علىٰ حالة أخرىٰ. هناك ألف نوعٍ من (إن قلتَ) وشك في ذلك، وماذا يهمّنا ذلك؟ لا يمكننا أن نشغل مجتمعنا وشبابنا في هذا الأخذ والردّ، يجب أن نتجاوز هذه المراحل الواضحة، وإجمالاً لا شكّ في إمكان حصولنا علىٰ المعلومات من خلال التحليل والاستنتاج (مجموع زوايا المثلث مساوٍ لدرجة الزاويتين القائمتين) هذه المعلومة ليست بديهية، ولا يمكن إدراكها دون تأمّل وتحليل واستنتاج، وإن الانسان غير المتعلّم لن يدرك هذه الحقيقة إلىٰ نهاية عمره. يتّضح إذن أن هذه المسألة نحصل عليها عن طريق التفكير والتحليل، وعليه فلا شكّ في أنَّ لدينا نوعين كليين من المدركات، أحدهما بديهيّ والآخر نظري (أي نحصل عليه بالتفكير والتأمّل والاستنتاج) مَن كان لديه سؤال، فليسأل.

[أحد الحاضرين]: استاذ، هل يمكن أن تكون المعلومات نسبيّة؟ مثلاً يكون هناك شيء معلوم بداهةً بالنسبة لشخص، ولكنه نظريّ بالنسبة لشخص آخر؟

[الدكتور بهشتي]: نعم يمكن ذلك فأنا لم أقل: إن الإدراك البديهي عام، ليرد هذا السؤال، وإنّما قلت: إنَّ المعرفة البديهية لا تحتاج إلىٰ تأمّل وإجهادٍ للفكر وتحليل. فهل هناك إشكال علىٰ هذا الكلام؟ لا إشكال، هذا ما يخصّ التقسيم الأوّلي للإدراك.

كسب المعلومات النظرية بواسطة المعلومات البديهيّة:

انتبهوا رجاءً، الموضوع الثاني سهل جداً، هل هناك شكّ في أنَّ المدركات البديهيّة تشكّل قاعدة للحصول علىٰ المعلومات النظريّة؟

فلنتوجّه إلىٰ القرآن، لقد اعتنىٰ القرآن بهذين النوعين من المدركات، وسعىٰ لتشجيع الإنسانيّة علىٰ استفادة المدركات النظريّة من المدركات البديهيّة، واللفظة المتعارفة للحثّ علىٰ هذه الاستفادة هي لفظة (التفكير) ما معنىٰ التفكير؟ (أنا أفكّر) يعني: أنني أحاول الحصول علىٰ معرفة الأشياء التي أجهلها عن طريق المعلومات التي لديّ، وهذا يبدأ بواسطة استنتاج المعلومات النظريّة من المعلومات البديهيّة، وما يتحقق من المعلومات النظريّة بهذه الطريقة يمكن أن يكون هو أيضاً قاعدة للحصول علىٰ معارف نظريّة أخرىٰ. التفكير هو الجهد الذي نبذله للحصول علىٰ معرفة نظريّة من معارفنا السابقة، سواء كانت هذه المعارف بديهيّة، أو نظريّة تمَّ الحصول عليها سابقاً، والطريف أنَّ هذا المعنىٰ للتفكير هو الوارد في الكتب المختصَّة بهذا الفن، يقول الملاّ هادي السبزواري في منظومته:

الفكر حركة إلىٰ المبادىء ومن مبادىءٍ إلىٰ المرادِ

الفكر أن يلتفت الذهن إلىٰ موضوع ليس واضحاً بالنسبة إليه، ولأجل ذلك يتحرّك إلىٰ المعلومات التي من شأنها إيضاحه، ليعود ظافراً بمعرفة ما يريده.

وهناك كلمة أخرىٰ للتعبير عن التفكير، وهي (النظر) النظر يعني البحث الدقيق، ونقول الآن (أصحاب النظر) أي أولئك الذين يزاولون البحث المنتج والمثمر.

ويعبّر أيضاً عن الاستفادة المذكورة بكلمة (التدبّر). إنني لن أذكر جميع الألفاظ المتقدّمة، وإنما ذكرت هذا المقدار لنتمكّن فقط من معرفة معنىٰ كلمة (التدبّر) في القرآن الكريم.

معنى التدبّر والتدبير، والتعقّل:

[أحد الحاضرين]: ألا نستعمل كلمة (التجربة)؟

[الدكتور بهشتي]: كلا، لأجل أن نفهم معنىٰ التدبّر، لا بأس بأن نتعرّف علىٰ جذر الكلمة.

التدبّر مأخوذ من دَبْر ودُبُر، أي: خلف. التدبّر يعني: معرفة ما يكمن خلف الظواهر، يعني البحث عمّا خلف السطوح (فهو مقارب للتعمّق) رؤية ما وراء الجدار، رؤية الطبقات الأعمق للشيء، التدبّر من باب (التفعُّل) بمعنىٰ الطلب والسعي إلىٰ ما وراء السطوح، هل تلاحظون، لقد أصبح معنىٰ التدبّر جلياً، إنه رؤية ما خلف الواجهة.

[أحد الحاضرين]: ما معنىٰ التدبير؟

[الدكتور بهشتي]: التدبير هو نتيجة التفكير، إذن التدبّر هو رؤية ما وراء الشيء، وعدم الانخداع بظاهره، التدبّر عدم الاكتفاء بمعرفة الظاهر، والنفوذ إلىٰ ما وراءه، فهو مقارب معنًى للتعمّق، القرآن الكريم يستعمل كلمة (التدبّر) بدلاً عن (التعمّق).

ولدينا اصطلاح آخر هو (التعقّل) والحكمة، حينما يقال: تعقّل هذا الموضوع، يعني: تعمّق فيه. والعقل بمعناه المصدري في اللغة العربية يستعمل بمعنىٰ إعمال الذهن.

الفقه، التفقّه، الفهم، الاهتداء، الرَّشَد، الرُّشد:

هناك ثلاثة ألفاظ وردت في القرآن ذات علاقة بهذا الموضوع، نذكر

هذه الألفاظ أيضاً، ونتعرّف معانيها فيما بعد حينما نستشهد بالآيات التي وردت فيها، أحد هذه الألفاظ: الفقه والتفقّه، ومعناه: الفهم. وثانيها هو لفظ (الفهم) نفسه، الذي استعمل في موضع واحد فقط، وثالثها هو نتيجة الفكر والتدبّر والفقه والفهم، وهو لفظ (الاهتداء) أي: العثور علىٰ الطريق الصحيح، ويسمّىٰ الرَّشَد والرُّشد، بوصفه نتيجة لما تقدّم.

[أحد الحاضرين]: هل للعقل معانٍ أخرىٰ؟

[الدكتور بهشتي]: العقل بمعنىٰ الفكر والحكمة، هو موضع اهتمامنا، ولا حاجة للمناقشة في المصطلحات، وإنّما تعرّضنا لبيان جذر (التدبّر) لأجل إيضاح معناه.

[أحد الحاضرين]: وهل كلّ هذه الألفاظ تعني الانتقال من المعرفة البديهيّة إلىٰ المعرفة النظريّة؟

[الدكتور بهشتي]: نعم، كلها بمعنىٰ استنتاج المعلومات النظريّة من البديهيّة، أو من المعلومات النظريّة التي سبقَ أن تمَّ إدراكها؛ لأن التفكير حركة، والحركة لا بدّ أن يكون لها نقطة ابتداء ونقطة انتهاء، إنَّ لفظة (استدلال) لم ترد في القرآن، ولكن جذورها واردة في القرآن، إنَّ الدلالة مثل الهداية، تعني: الارشاد. فقط أريد أن تعلموا أن لفظة (استدلال) التي هي قريبة جداً من موضوع بحثنا، لم ترد في القرآن، وإنّما جاء فيه ألفاظاً أخرىٰ تشاركها في الجذر، وهي التي ذكرتها لكم، وسوف نقرأ الآيات المتضمّنة لها، ونشير إلىٰ آياتٍ أخرىٰ، يتمكن الراغب من مراجعتها. فالكلمات التي تحظى باهتمامنا هي عبارة عن: الفكر والتفكّر (وما هو من قبيلها) النظر، العقل، التدبّر. سنعتمد علىٰ هذه الألفاظ؛ لقوّة ارتباطها ببحثنا.

سأقرأ عليكم آية تضمّنت لفظ (الفكر) ولا شكّ أنه سبق لكم جميعاً معرفتها، وربما يحفظها كثير منكم، قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[1].

يتفكّرون في خلق السماوات والأرض، أي أنهم يحاولون أن يفهموا أمراً، ويحاولون أن يتوصلوا من خلال التأمّل في خلق السماوات والأرض لأن يدركوا شيئاً جديداً. التفكير الاستنتاجي نراه يُستعمل في ست عشرة آية كريمة، وهناك مورد آخر لم أذكره لأنه مرتبط بالشرط، وهو الوارد في قصة الوليد بن المغيرة ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾[2] وإنّما لم أذكرها ضمن بقية آيات التفكير، لأنّه يصعب عليَّ أن أذكر التفكير الشرّير، وإن طرحه القرآن الكريم للضرورة.

حسناً، هذا ما يتعلّق بالتفكّر، وبوسع الإخوة مراجعة بقيّة الآيات عن طريق الاستعانة بالمعجم، وإذا استفادوا منها فهماً جديداً، يمكنهم طرحه في الجلسة التالية.

كان المقرر استعراض الآيات بالتدريج، وقد قال لي أحد الإخوة: إنَّ الأمر لم يكن كذلك في الأسبوعين الماضيين. أقول: إننا في الواقع إنما دخلنا البحث واقعاً في هذه الليلة، والبحث في الأسبوعين المتقدّمين إنما كان لأجل تنقية الأذهان من التصوّرات الطائشة التي قد تواجهنا وتؤدي إلىٰ انحراف البحث، فلنتّجه إلىٰ الآيات.

النظـر:

آيات النظر أكثر من غيرها، وقد استعمل القرآن الكريم كلمة (النظر) في هذا المجال كثيراً، ولكن لماذا؟ لماذا اعتمد القرآن هنا علىٰ هذه الكلمة أكثر من غيرها؟ الجواب: لأنَّ في هذه الكلمة دقَّة أكثر. لاحظوا جيّداً،

---

(١) سورة آل عمران/ ١٩١.

(٢) سورة المدّثر/ ١٨ ـ ١٩.

أحد معاني النظر هو الرؤية، وقد استعملت الكلمة في القرآن بهذا المعنىٰ، النظر هو الرؤية المعتادة. هذه الرؤية أهي من المدركات البديهيّة أم النظريّة؟ إنها من النوع الأوّل، أنا أنظر الآن، فأرىٰ أحد الإخوة داخلاً، هذا لا يحتاج إلىٰ تأمّل ولا تفكير، وقد استعملت لفظة (النظر) أيضاً بمعنى الرؤية العميقة، أي: النظر من أجل الاستنتاج. كما استعملت كلمة (النظر) في القرآن بمعنًى ثالث، ستأتي الاشارة إليه في آخر البحث، والآن أسألكم: حينما يكون لكلمة (النظر) هذان المعنيان، فما هي النكتة الدقيقة لإكثار القرآن من استخدام هذه الكلمة؟

[أحد الأفراد]: إنها الانتقال من النظر العادي إلىٰ النظر الاستنتاجي.

[الدكتور بهشتي]: الاستنتاج من الحسّ يعني: الشروع من مبدإٍ حسيٍّ، ثم الوصول بمساعدة التفكير إلىٰ معلومات غير حسّية. هذا هو نفس الشيء الذي أثيرت حوله الضوضاء، يقولون: (نقطة الشروع لا بدَّ أن تكون الإحساس) حسناً، من قال إنَّ الأمر ليس كذلك؟ القرآن الكريم نفسه يلفت إلىٰ هذه النكتة الدقيقة بصورة عاديّة ومتعارفة، وبدون أيّ تكلّف، وقد ذكرت أنَّ معنىٰ التفكير في القرآن هو هذا، وهو متّحد مع معناه الاصطلاحي، غايته أنه يستخدم لهذا المعنىٰ كلمة (النظر) أيضاً، الاستنتاج والإدراك الذي يحصل عن طريق التأمّل والتفكير، هو شيء شبيه بالإدراك الحاصل عن طريق النظر والرؤية المتعارفة، وهناك بيت في الشعر الفارسي يعرض هذين المعنيين بشكل جذّاب، وهو:

ما يراه الشاب في المرآة يراه الشيخ في الطين

الفرق بين الرؤية وبين النظر:

لاحظوا بدقّة أنَّ (النظر) يختلف عن الرؤية، ولكن علىٰ أيّ حال، فإن بيت الشعر يساعد علىٰ فهم هذا المطلب، وهذا القدر من الاختلاف بين الرؤية والنظر لا يشكّل عائقاً يذكر (ما يراه الشاب في المرآة) هل هو من قبيل

الرؤية أم النظر؟ إنه من القسم الأوّل، يعني: أنَّ الشخص الذي يرىٰ جماله في المرآة (يراه الشيخ في الطين) من أيِّ قبيل؟ إنه من قبيل النظر.

إنَّ القرآن يستعمل كلمة (النظر) في كلٍّ من الرؤية البديهية، والرؤية الحاصلة من الاستنتاج، ويريد أن يصل الاستنتاج إلىٰ حدِّ الرؤية، ولكنها الرؤية عن بصيرة وتدبّر، ونفس هذه المسألة توجد فيما يتعلّق بالإبصار والبصيرة. الإبصار بمعنىٰ الرؤية بالعين، والبصيرة بمعنىٰ الرؤية القلبيّة الداخليّة، فلنتوجّه الآن إلىٰ الآيات.

اخترت لكم نموذجين من الآيات استعمل فيهما (النظر) بمعنىٰ الرؤية المتعارفة، الأولىٰ من سورة البقرة في سياق ذكر النِعم الوافرة التي أنعم الله بها علىٰ بني اسرائيل، وفضّلهم علىٰ غيرهم، لكنّهم كفروا بأنعم الله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾[1] النظر هنا بمعنى الرؤية الطبيعيّة العاديّة.

والآية الثانية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤٢ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٤٣﴾[2].

إنني عازم علىٰ طرح هذه الآيات في البحث التالي: بحث وسائل المعرفة. ولكنني آسف للمرور علىٰ كلمة الانظار دون توضيحها، ضعوا هذه اللفظة في القائمة المكتوبة لديكم، إلىٰ جانب الكلمات الدالّة علىٰ الاستنتاج.

تلاحظون أنَّ هذه الآية حينما تقول: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ﴾، إنما تريد النظر العادي، إذن في هاتين الآيتين، يُراد النظر العادي الذي لا يستتبع تفكيراً واستنتاجاً، خاصة الآية الثانية فإنها تذكر أنَّ هناك نظراً، دون

(١) سورة البقرة/ ٥٠.

(٢) سورة يونس/ ٤٣.

استنتاج، ولكن لدينا أيضاً آيات كثيرة يكون فيها النظر مصاحباً للاستنتاج، اذكر منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾[1] فإنه من الميسور جداً استفادة أنَّ مراد هذه الآية هو النظر المصاحب للاستنتاج، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[2] وهنا المراد أيضاً هو النظر بقصد الاستنتاج، والبحث عن معرفة الكيفيَّة، يعني البحث عن شيء خفيّ، ومن نماذج ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[3] أيُّ نظرٍ هذا؟ إنه النظر لأجل التعرّف والاستنتاج، إنَّ الله يأمر بالنظر من أجل الوصول إلىٰ النتيجة.

هناك آيات كثيرة من هذا القبيل بوسعكم استخراجها من القرآن الكريم بمساعدة المعجم، والاطّلاع عليها، وإذا استفاد أحدكم من هذه الآيات فائدة خاصة، يمكنه بيانها في الجلسة القادمة، لقد بيّنت لكم الليلة مجال البحث التالي، وبوسعكم مطالعة الآيات المتعلقة به.

قلت: إنَّ كلمة (نظر) لها في القرآن معنًى ثالث، ولأجل أن لا يقع البعض في الاشتباه عند المطالعة، أنبّهكم، ليس بعيداً عن المعنيين الأوّل والثاني، المعنىٰ الثالث هو (الإنظار) بمعنىٰ الإمهال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾[4] وهناك آيات كثيرة استعملت فيها هذه اللفظة بهذا المعنىٰ، وجاءت فيها جميعاً بصورة الثلاثي المزيد، ووردت في بعض الآيات مجرَّدة، مثلاً: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[5] ويلاحظ

---

(١) سورة الأعراف/ ١٨٥.

(٢) سورة الغاشية/ ١٧ ـ ١٨.

(٣) سورة يونس/ ١٠١.

(٤) سورة صٓ/ ٧٩.

(٥) سورة البقرة/ ٢٨٠.

أنَّ المعنىٰ الثالث ليس مقطوع العلاقة بالمعنيين الأوّلين، هل انقدحت في ذهن أحدكم هذه العلاقة؟ لقد تقرر إشراك الحاضرين في الكلام لإضفاء الحيويّة علىٰ البحث.

[أحد الحاضرين]: ربّما تمثّلت هذه العلاقة بمعنىٰ المكث والتأمّل والصبر.

[الدكتور بهشتي]: طبعاً، اقتربت قليلاً، ولكنّي أريد ارتباطها بالنظر.

[أحد الأشخاص]: الانتظار.

[الدكتور بهشتي]: الانتظار هو المعنىٰ الذي ذكرناه.

[أحد الأفراد]: في الاثنين يوجد قيد الزمان.

[الدكتور بهشتي]: كلا، أريد أن أبيّن ذلك بنحوٍ عرفيّ، إن الموضوع ليس فلسفيّاً تماماً، نحن نستعمل لفظة خاصة لإفادة إعطاء المهلة. مثلاً عندما يقول أحدهم: (هل يمكن إعطائي الكتاب بعد غدٍ؟) ما الذي يقوله صاحبه؟

[أحد الأفراد]: لا مانع من ذلك.

[الدكتور بهشتي]: يقول: لأنظُر، يعني بدلاً عن أن يجيب قائلاً: حسنٌ جداً، يقول: حتىٰ ننظر. هذان التعبيران (حتىٰ ننظر، حسنٌ جداً) هما بمعنًى واحد، وعن طريق تضمن كلمة (النظر) لهذا المعنىٰ، أفادت بالتدريج المعنىٰ الثالث.

[أحد الأفراد]: وهل كلمة (منتظر) تفيد هذا المعنىٰ أيضاً؟

[الدكتور بهشتي]: منتظر أيضاً مأخوذ من النظر، بمعنىٰ الرؤية.

تلاحظون أنَّ الآيات التي استعرضناها تريد أن تقول: توصَّلوا لمعرفة الأمور غير المرئيّة عن طريق معرفة الأمور المرئيّة، وهذا ما قلت إن القرآن

يبيّنه بوضوح، أي أنَّ القرآن يؤكّد استفادة النوع الأول من المدركات، بتوسيط النوع الثاني.

لاحظوا مقدار الراحة والبساطة التي تجاوزنا بها البحوث الفنيّة، ولم نحتج إليها أيّما حاجة في بحث المعرفة، وهذه الطريقة صالحة جداً لأهل الاختصاص، أنا نفسي حينما أجلس مع زملائي وأطرح هذا البحث، ونلاحظ معاً دقائقه وتطوراته، أشعر بمتعة، ولكن ما ذنبكم أنتم أيّها الإخوة لكي تتحملوا أعباء هذا البحث أيضاً، إنّ عملنا يتمثّل في التخفيف عنكم، لا الإثقال عليكم.

لفظة (العقل) ومشتقّاتها في القرآن:

إنَّ لفظة العقل من الألفاظ التي اعتمدها القرآن كثيراً، وقد استعملها في تسعة وأربعين موضعاً بمعنىٰ التفكير والاستنتاج، ومنها ما ورد في سورة يونس، هذه السورة البالغة البركة، التي تزودنا بالآيات المناسبة في كثير من البحوث، والآية التي اخترتها منها تنظر مباشرة إلىٰ الاستنتاج، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾[١].

يحسن للإخوة أن يحفظوا هذه الآية، ما معنىٰ (أفلا تعقلون)؟ يعني: ألا تحصلون علىٰ نتيجة واضحة من كوني قد عشت بينكم أربعين سنة، دون أن أدّعي القيادة والحكمة والجاه؟ لقد عاش النبي ﷺ الأربعين سنة الأولىٰ من عمره حياة عادية بعيدة عن الأضواء وعن طلب الشهرة، وقد عاش خمسة عشر عاماً من عمره مرفهاً من الناحية الاقتصاديّة، أي بعد أن أتمَّ خمسة وعشرين عاماً، وتزوّج من خديجة(رض) التي كانت تحيطه بالحبّ والرعاية، ورزق أطفالاً وتمتع بدفءِ الحياة الأسريّة، بعد المعاناة

---

(١) سورة يونس/١٦.

والصعوبات التي تعرّض لها في مرحلة الطفولة والشباب، هذا مع أنه يجب الإشارة إلىٰ أنَّ النبي ﷺ لم يكن من الطبقات المحرومة، لأنه كان من أسرة معروفة، وتربّىٰ في البادية، صحيح أنه لم يكن يتوسع في الانفاق، ولكن هذا لا يعني أنه يعاني من شظف العيش، وليس النبي ﷺ وحده، وإنما كثير من قادة العالم العظماء في نهضاتهم التحرريّة، كانوا من الطبقات غير المحرومة، ولكنهم كانوا يدافعون عن المحرومين.

[أحد الأفراد]: النبيّ الأميّ، يُراد به وقوفه إلىٰ جانب الأمة، والأمة أيضاً من الطبقات المحرومة.

[الدكتور بهشتي]: اسمحوا لنا لكي لا يتغيّر مجال بحثنا، لا ينبغي أن ندخل في هذه النقطة؛ لأنَّ بحثها سيطول، سأوضح هذا الموضوع بعد إتمام بحثنا لهذه الليلة، إنني فعلاً بصدد توضيح هذه النقطة، وهي أنَّ النبي ﷺ يقول: إنني قضيت بينكم علىٰ تلك الحالة أربعين سنة من عمري، دون أن أدعوكم لشيء، أليس لديكم عقل؟ أليس لديكم فكر، أليس لديكم قدرة علىٰ الاستنتاج من هذه المقدمة البديهية المشهودة، وهي أن يعيش انسان أربعين سنة من عمره علىٰ هذه الوتيرة بين قومه وقبيلته، ثم يحدث فجأة انقلاب في حياته؟ هل يعني العقل هنا (أفلا تعقلون) شيئاً غير معنىٰ الاستنتاج النظري من المقدّمات البديهيّة؟ لا شكّ أنَّ المراد هنا من التعقّل هو التفكير والاستنتاج، والتفكير المنتج يتلخص في الوصول إلىٰ معرفة غير بديهيّة، من المقدّمات الواضحة العاديّة. والمقدمة البديهيّة هنا هي: أنَّ النبي عاش بيننا أربعين سنة حياةً اعتياديّة، كما لو سُئلتَ: كيف كان أبوك يعيش؟ فهل يحتاج الجواب عن هذا السؤال إلىٰ تفكير وتأمّل؟ لا؛ لأنّه بديهي.

[أحد الأفراد]: عذراً، ألا نستطيع أن نستعمل ألفاظاً أخرى، مثل: أفلا تتفكّرون؟

[الدكتور بهشتي]: نترك هذا البحث لأسلوب القرآن، لا نريد أن نتعرّض الآن لكيفية انتخاب القرآن للكلمة، على كلّ حال لا بأس باستعمال الفاظ: أفلا تتفكّرون، أفلا تبصرون، أفلا تتدبرون.

المورد الثاني هو الآية العاشرة من سورة الملك، ولكي يتّضح معنى هذه الآية جيّداً، سأقرأ من الآية السادسة إلى العاشرة، قال تعالى:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾[1] هذه الآيات مقدّمة للآية المقصودة وهي: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾[2].

ما معنى التعقّل؟ يعني أن نتأمّل ونفكّر بشأن الأنبياء وما جاؤوا به، معنى التعقّل هنا واضح جداً.

[أحد الأفراد]: هل يمكن أن يكون التعقّل قد ورد بمعنًى آخر في غير هذا الموضع؟

[الدكتور بهشتي]: إنه جاء عموماً بمعنى الاستنتاج، اطّلعوا أيها الإخوة على بقيّة الآيات، فإذا عثرتم على معنًى جديد، تفضّلوا ببيانه.

[الشخص نفسه]: ماذا بشأن البديهيّات غير المفهومة؟

[الدكتور بهشتي]: هذه ليست بديهيّات، ما قلناه إنَّ التعقّل غير بديهي.

[الشخص نفسه]: من البديهيّات.

[الدكتور بهشتي]: لا يا عزيزي، لقد ذكرنا التعريف، ألم تسجله؟

---

(١) سورة الملك/ ٧ ـ ٩.

(٢) سورة الملك/ ١٠ ، ١١.

قلنا: التفكّر والتعقّل والنظر، يعني أن نتوصّل لإدراك ما لا نعرفه من الأمور التي ندركها، ونقطة الشروع هي البديهيّات، فمن البديهيّات نتوصل إلىٰ النظريّات، وكذلك من النظريّات التي سبق معرفتها إلىٰ نظريّات جديدة، نقطة الشروع في الآية هي أحوال الأنبياء وبيّناتهم ومعجزاتهم.

[أحد الأفراد]: هذه المسموعات المذكورة هنا. . .

[الدكتور بهشتي]: نعم، لو كانت لدينا أذن صاغية، لكنّا نسمع.

[الشخص نفسه]: لو كنّا نسمع ماذا كانت نقطة الشروع؟

[الدكتور بهشتي]: نفس ما كنّا نسمعه، الآيات التي كانت تطرق سمعنا.

حسناً، هذه لفظة العقل، ولفظة الابصار بيّناها قبلاً، لقد ذكرنا الألفاظ الأصليّة، وقلت: هناك آيات ورد فيها لفظ الفقه والفهم.

[أحد الحاضرين]: التدبّر.

[الدكتور بهشتي]: نعم، ذكرنا التدبّر، اسمحوا لي أن أوضّح معنىٰ التدبّر، قبل توضيح معنىٰ الفقه.

التدبّر ومشتقّاته في القرآن:

استعمل لفظ التدبّر في أربع آيات، منها قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[1] ماذا يعني التدبّر في آيات الكتاب؟ يعني أن نحصل علىٰ شيء عن طريق التدقيق وحب الاطّلاع والاستنتاج.

الآية الأخرىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[2] في هذه الآية ورد التدبّر بالقلب، وسوف نتعرّف بعدُ أنَّ القلبَ يأتي في القرآن بوصفه أداة للتعقّل والتفكّر.

---

(١) سورة صٓ/ ٢٩.

(٢) سورة محمد/ ٢٤.

الفقه ومشتقّاته في القرآن:

وردت لفظة الفقه في عشرين آية كريمة، منها: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾﴾[1].

قالوا لشعيب: إننا لا نفهم كثيراً من كلامك، هل معنىٰ ذلك أنهم لم يفهموا المعنى الظاهر من كلامه، أم المعنىٰ العميق المستنتج من كلامه؟ أيّهما؟

[الحاضرون]: الاستنتاج.

[الدكتور بهشتي]: نعم، وإلاّ فإنهم لم يكونوا مثلاً ناطقين بالفارسيّة، والنبي يكلّمهم باللغة التركية، أو أنهم ناطقون بالتركيّة، والنبي يتحدّث بالألمانيّة. إن النبي يكلّم قومه بلغتهم، وقولهم: لا نفهم. يعني المعاني العميقة التي ينطوي عليها كلامه.

الفهم ومشتقّاته في القرآن:

وردت كلمة (الفهم) في موضع واحد من القرآن الكريم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ ﴿٧٩﴾﴾[2].

ما معنىٰ (فهمناها)؟ هل المراد ظاهر الأمر أم روحه؟ المراد معرفة الحقيقة، فالذي (فهّمناه) سليمانَ هو الحقيقة الكامنة وراء الظاهر، لقد استعمل القرآن الكريم كلمة الفهم في هذه الآية فقط، ولم يستعملها في موضع آخر.

---

(١) سورة هود/ ٩١.

(٢) سورة الأنبياء/ ٧٨ ، ٧٩.

تلاحظون أنني عند الكلام علىٰ لفظة (النظر) أضفت كلمة (الإبصار) وكلمة (الرؤية) وقد استعمل القرآن كلاً من كلمتي (الرؤية) و(النظر) بمعنيين، أولهما النظر المعتاد، والآخر الاستنتاج، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾[1].

حسنٌ، ما هو المراد من الرؤية هنا؟ أيراد مجرّد النظر؟ أم استنتاج العبرة منه؟ وإنَّ هذا الطائر هو جسم تفرض قوانين الجاذبية أن يقع علىٰ الأرض، فما هي الخصيصة التي أخذت في خلقته لكي يتحرر من قانون الجاذبية، ويبقىٰ محلّقاً في الهواء؟

يقول الطائر: انظروا لي كيف أحلّق في الفضاء، أنتم تحاولون قتلي علىٰ الأرض، ولكنَّ الله أعطاني ـ أنا الطائر الصغير ـ قدرة للوقوف بوجهكم، علىٰ جميع البشر أن يكونوا مقابل بقيّة القدرات، مثل الطائر مقابل الأرض.

لن أقرأ بقيّة الآيات، لأنني لا أريد أن يتوسّع البحث كثيراً، فقط نريد الاعتناء بالألفاظ التي تتفاوت معانيها مثل: نظر، تفكّر، تعقّل، تدبّر. يستطيع الإخوة استخراج الآيات المقارنة لكلّ من هذه الألفاظ، ويتفضّلون بطرحها في الجلسة القادمة.

[أحد الأفراد]: لم تذكر الرؤية.

[الدكتور بهشتي]: إنها بمعنىٰ النظر أيضاً، وفي سورة يوسف حكاية عمّا رآه في المنام ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[2] هنا يُراد الرؤية المتعارفة.

وقد ذكرت قبلاً أنني أشير فقط إلىٰ الآيات المتعلّقة بالدليل والاهتداء.

---

(١) سورة الملك/ ١٩.
(٢) سورة يوسف/ ٤.

وآيات الاهتداء هي: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[2] ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾[3].

إنَّ الفهم في هذه الآيات الثلاث قريب جداً من الاستنتاج.

ولم ترد لفظة (استدلال) في القرآن، ولكن وردت مشتقّة من مادة (دلَّ) مثل: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4] وفي قصة موسى عليه السلام حكاية عن أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾[5] بوسع الإخوة أن يراجعوا مادة (دلَّ) و(دلَلَ) في معجم آيات القرآن.

هنا وجدنا القرآن الكريم يقسّم المعارف إلىٰ قسمين أساسيين (بديهيّة ونظريّة) ويبيّن الطريق الطبيعي للحصول علىٰ المعارف النظريّة واستنتاجها من المعارف البديهيّة، بدون تكلّف وبعبارات مختلفة.

وسائل المعرفة:

نبحث هنا عن طرق الحصول علىٰ المعارف البديهيّة والنظريّة، يعني: استنتاج غير البديهي من البديهي، ذكر القرآن الكريم عدداً من هذه الوسائل، وهو: السمع، البصر، الفؤاد، القلب، اللّب، الحِجر. وذكر معها (الصدر) أيضاً، ومن الآيات التي تضمّنت ذلك: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ

---

(١) سورة الأنعام/ ٩٧.

(٢) سورة البقرة/ ١٧٠.

(٣) سورة النساء/ ٩٨.

(٤) سورة الصف/ ١٠.

(٥) سورة طه/ ٤٠.

تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[1] ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[2].

يستطيع الإخوة الراغبون في المشاركة في الجلسة القادمة بحضور ذهن أن يراجعوا الآيات المنطوية على هذه الألفاظ، إلى هنا ينتهي البحث في هذا المجال، وأرى من الضروري أن أبحث معنى وصف النبي ﷺ في القرآن بأنّه (أُمّي) الذي سأل عنه أحد الإخوة، لأنّه من البحوث الحسّاسة.

معنى (أُمِّيَّة) النبيّ ﷺ:

عرضت أوّلاً أنَّ النبي ﷺ كان من أسرة تحمل تلك الخصوصيّة، وأنَّ جده هاشماً من المبرزين من أبناء عبد مناف. ولكنه كان شعبيّاً، وكان ذا موقع قويّ، ونشاط اقتصاديّ جيّد، ولكنه كان يعيش مع الناس، ويتقاسم ما عنده معهم.

يذكر التاريخ الاسلامي أنَّ جذور العداوة بين بني أميّة وهاشم راجعة إلى أنَّ بني أميّة كانوا من الأثرياء والمترفين، ولكنهم كانوا بخلاء، وأمّا هاشم فقد كان إنساناً فعّالاً ومؤثراً ونافعاً للناس ومساعداً للآخرين، عليّ عليه السلام نفسه، كان يحفر البئر، ثم يقوم بوقفه للناس، وهناك كثير من الأراضي التي أصلحها عليّ عليه السلام وحفر لها الآبار وبقيت تُعرف من بعده بـ(صدقات عليّ) وكان الفرق بين هاشم وأميّة، يتمثّل في عليّ عليه السلام ومعاوية أيضاً، عليّ سليل هاشم، ومعاوية سليل أميّة، كان عليّ ثرياً، ولكنه لم يستخدم ثروته للتعالي وطلب الجاه، وكان معاوية وأبو سفيان من ذوي الثراء أيضاً، ولكنه ثراء أُريد به التعالي وطلب السيادة.

كان النبي ﷺ من ذرّية هاشم، وعبد المطلب كان ابن هاشم، وقد

---

(١) سورة النحل/ ٧٨.

(٢) سورة المؤمنون/ ٧٨.

توفي عبدالله والد النبي ﷺ إمّا قبل ولادته، أو بعدها بقليل، فتولّىٰ عبد المطلب مهمة تربية النبي، ومن بعده أبو طالب، وكان أبو طالب سيداً، لكنه لم يتاجر بسيادته، بل كان مصداقاً لقولهم: سيّد القوم خادمهم، وهكذا كان النبي ﷺ مع الأمّة.

من الممكن أن تقوم بين البشر روابط طبقيّة مغلقة تؤدّي إلىٰ آثار سيئة في المجتمع الطبقي، ومن الممكن أن لا تقوم مثل هذه الرابطة، ممّا يؤدّي بالطبع إلىٰ تماسك المجتمع.

أمّا كلمة (أُميّ) حينما يقال: النبيّ من الأمة، فليست بمعنىٰ أنه كبقيّة الخلق ولا يتميزّ بشيء عن الآخرين، صحيح أنَّ بعض الأصدقاء والكتّاب يريدون أن يستفيدوا هذا المعنىٰ من كلمة (أميّ) ولكن ليس من الصحيح أن يعمد كل ذي رأي إلىٰ تحميل قناعاته علىٰ القرآن، إنَّ ما يذكرونه من كون النبي إنساناً عاديّاً شيء جذّاب، ولكنه لا ينسجم مع معنىٰ (الأميّ) في القرآن، وإنّما يعني أنّه من ناحية التحصيل العلمي كبقيّة الناس، أي إمّا أنه لا يجيد الكتابة، أو يجيدها بمستوىٰ عامّة الناس، وأنه ليس من العلماء ذوي الشهادات العلميّة كالدكتور والبروفيسور، فالقرآن يصف النبيّ بأنه (أميّ) بهذا المعنىٰ.

كلمة (الأميّ) تستعمل في القرآن برؤيتين مترابطتين، إحداهما في مقابل أهل الكتاب الذين يقول القرآن عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾[1] فهذا يتعلّق باليهود الذين يرون أنفسهم أسياداً وأهل كتاب، وأنَّ جميع الناس أميّون، تماماً كوجهة نظر اليونانيين بالنسبة إلىٰ البربر، فقد كان أهل أثينا يعتبرون أنفسهم سادةً وأحراراً، ويعتبرون غيرهم عبيداً أرقّاء.

فالآية الكريمة تريد أن توضح ما يقوله أهل الكتاب عن غيرهم وأنّهم

---

(١) سورة آل عمران/ ٧٥.

هم فقط أهل الكتاب، وأمّا غيرهم فهم أميّون لا كتاب لديهم، وأنّه لا مانع من أن نفعل بهم ما نشاء، ومرادهم بالكتاب والعلم، هو الكتب الدينيّة السماويّة. وعليه فالمجتمع الذي ليس له كتاب، سيكون محروماً من العلم، وبالتالي أُميّاً. وقد انتقل هذا الاصطلاح فيما بعد إلىٰ الكنيسة، واكتسب معنًى جديداً له قصّة مفصّلة، يطول شرحها. إجمالاً فإنَّ المعنىٰ الجديد هو ما عبَّر عنه بكلمة (علماني) التي لم يكن لها معنًى كنسي، وإنما هي كلمة أوروبية مرَّت بمراحل من التطوّر علىٰ النحو التالي: فقد أطلقت أوّلاً علىٰ الشخص الذي لا صلة له بالدين، وهو في الأصل معنًى الشخص الذي يفتقد الروح والنور الديني الكنسي، بل حتىٰ روح الأديان السابقة علىٰ الكنيسة، كانت كلمة (علماني) تطلق بمعنىٰ الأميّ وغير العالم، ولكنها في عصر التحضّر الأوروبي اكتسبت معنًى جديداً، وهذا الاصطلاح يستعمل في عصرنا الحاضر، وفي الأقطار الأوروبية يطلق علىٰ كثير من العلماء والدكاترة، أي: لا إلمام لهم بعلم الدين، وفي مجتمعنا يُطلق لفظ العلماء علىٰ علماء الدين خاصّة، وأمّا غيرهم فلا يسمّون علماء. يقال: هذا السيّد من أهل العلم، وذاك ليس من أهل العلم، وهذا تقليد لاستعمال نفس تلك الكلمة الكنسيّة، طبعاً هذا لا يعني أننا أخذنا ذلك من الكنيسة، وإنما هو استعمال له جذر هناك، وقد أشرت إلىٰ أنَّ فقه اللّغة (فيلولوجي) وعلم المصطلحات هو واحدٌ من شعب علم الاجتماع، وأحياناً يكون له عطاء جيد، وبحثه مفصّل، ولأنني قد أنجزت عملاً علميّاً بشأن لفظة (أميّ) في القرآن، وحققت في الجذور السابقة لهذه الكلمة، ولذا قادني شعوري بأنَّ البحث عن الوحي والنبوّة يحتاج إلىٰ الإدراك الدقيق لمعنىٰ كلمة (أميّ) في القرآن، ولذلك أجريت بحثاً موسّعاً حول هذه الكلمة، وهذا التحقيق مدوّن بلغة علميّة، وهو لم يطبع لحدّ الآن، حيث لم تسنح لي الفرصة لتهيئته للطبع.

إذن اصطلاح (علماني) كان يستعمل مرادفاً لكلمة (أميّ) وكان أهل

الكتاب يطلقونه علىٰ غير أهل الكتاب بوصفهم غير متعلمين، هذه هي كلمة (أميّ) في القرآن.

معنًى آخر لكلمة (أميّ):

لكلمة (أميّ) معنًى آخر في القرآن الكريم، يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[1] والضمير (هم) في قوله (ومنهم) يعود إلىٰ أهل الكتاب، فهذه الآية تقسّم أهل الكتاب إلىٰ قسمين، قسم منهم أُميّون، وهذا يفترق عن المعنىٰ الأوّل المراد به ما يقابل أهل الكتاب، وهناك يراد به بعض أهل الكتاب، وأنهم أميّون، بمعنىٰ أنهم لا معرفة ولا اطّلاع لديهم علىٰ الدين، إلاّ بصورة الأمانيّ، انهم يسقطون أمانيّهم علىٰ مضامين الكتاب (القرآن) وكثير من الناس يفعلون ذلك اليوم، يحمّلون القرآن نزواتهم ورغباتهم، وهذا ما يجدر أن نتجنّبه بقوة، وسبب ذلك أننا أساساً في غنًى عنه، إننا نستطيع بعون الله، أن نصل إلىٰ أرفع درجات المعرفة الإلهيّة والبشريّة، شريطة أن يكون علمنا مقروناً بالعمل والتقوىٰ.

فإذن سؤالكم بأيّ معنًى أطلقت كلمة (أميّ) علىٰ النبي ﷺ؟ إنها استعملت بهذا المعنىٰ، وهو أنه كان كعامّة الناس، لم تتوفر له أجواء الدراسة والتحصيل العلمي.

[أحد الحاضرين]: هل نستطيع القول إنَّ من خصائص الأمّة انخفاض المستوىٰ العلمي؟

[الدكتور بهشتي]: نعم، النظر هنا إلىٰ هذه الخصيصة، لا إلىٰ غيرها، إنَّ الدافع إلىٰ سؤالك ما ذكرته من أنَّ التاريخ يشير إلىٰ كون النبيّ ﷺ من أسرة بارزة ذات موقع ومكانة. . .

---

(١) سورة البقرة/ ١٠٢.

[الشخص نفسه]: هنا تأتي مسألة، إنَّ القرآن وصف النبي ﷺ بأنه أمّي بقصد التعظيم والإشارة إلىٰ كونه شخصاً بارزاً، ولكن قولنا: فلان أمّي، لا يدل علىٰ المدح، وإنما يدلّ علىٰ التحقير، لست أفهم ذلك!

[الدكتور بهشتي]: يقال: إنه (أُميّ) باعتبار ما ذكرته، من أنَّ جميع تلك المعلومات لم تكن عن طريق المدرسة.

قال الشاعر:

حبيبي الذي لم يذهب للمدرسة ولم يخطَّ حرفاً أصبح في لمحة أستاذاً لمئة معلم[1]

إنَّ هذه إحدىٰ الدلائل علىٰ نبوّة النبي ﷺ، وقد أشير إليها أيضاً في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾[2].

دقّقوا، إن خاصّية كون النبي (أميّاً) أنه لم يتلق معلوماته عن طريق التعلّم والدراسة، وأن ما لديه علم إلهيّ، ومن هذه الجهة تأتي أهميّة الأمر.

[الشخص نفسه]: تثبت بديع الخلقة.

[الدكتور بهشتي]: نعم، تثبت عظمة الخلق، وإنَّ عظمة الخالق حقّ، ولكن في الوقت نفسه، لو أردنا القول: إنَّ المراد بكون النبيّ ﷺ (أُميّاً) انتماؤه إلىٰ الطبقة المحرومة من المجتمع، نكون قد خالفنا الواقع التاريخي، وبنينا كلامنا علىٰ أساسٍ من الذوق والمزاج، ومعلوم أنَّ ضعف الأساس يؤدّي إلىٰ انهيار ما فوقه من البناء. إنَّ تاريخ حياة النبيّ ﷺ واضح جداً، وليس مغلقاً، لقد سألتم عن معنىٰ كلمة أمّي، فبيّنته لكم، كان النبي

---

(١) حافظ، من قصيدة غزليّة، مطلعها:

نجمة سطعت وأضاءت نادينا وأصبحت أنيساً لقلبنا النافر

(٢) سورة يونس/١٦.

من عامّة الناس، ليس نبي الاسلام وحدهُ، بل جميع الأنبياء، وقد سبق أن قرأت لكم قبلاً قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾[1].

ترون أنَّ الذين آمنوا بنوحٍ في البداية هم الأشخاص العاديّون، أو بتعبير الكفّار: أراذل القوم، لأنهم لم يكونوا ينتمون إلىٰ الطبقة الاجتماعية العليا، وهكذا كان الأمر مع كثير من الأنبياء، ومسألة كون الأنبياء قادة شعبيين صحيحة تماماً، ولكن هذا لا يجعلنا بحاجة إلىٰ افتراض كون الأنبياء ينتمون إلىٰ طبقة مسحوقة.

أنتم تعلمون أنَّ موسى عليه السلام تربّىٰ في ترفٍ ونعمة، ولكنه كان دائماً إلىٰ جانب المحرومين والمستضعفين.

[أحد الحاضرين]: ولكنَّ موسىٰ لم يُبعَث نبيّاً، إلاّ بعد أن عمل راعياً عدّة سنوات لدىٰ شعيب، ونبيّ الاسلام نفسه لم يكن من أسرة مرفَّهة، إذ أنّه بعد بضعة سنوات انفصل عن مرضعته، لعدم القدرة علىٰ توفير أجورها، وأبو طالب عمّ النبيّ اضطرّ إلىٰ توزيع أبنائه علىٰ إخوانه نظراً لحاجته وفقره، والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه عمل راعياً أيضاً.

[الدكتور بهشتي]: هناك خلطٌ في هذه المسألة، صحيح أنَّ النبيّ مارس رعي الغنم، ولكن ما أردت قوله هو: من أيّ أسرة انحدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ لقد بدأ حياته في أسرة عبد المطلب، في وضع اقتصاديّ جيّد نسبيّاً، وبعد وفاة عبد المطلب، أي في سن الثامنة، جاء أبو طالب، ولم تكن ظروفه الاقتصادية بمستوىٰ الرفاه الكامل، ولكنه علىٰ كل حال كان كبير قومه، الذي يكثر تردد الناس علىٰ بيته، وقد اختارته عشيرته سيّداً عليها، لقد كان من المعروفين في مكّة، وعلى الرغم من أنَّ حياته علىٰ

---

(١) سورة هود/ ٢٧.

مستوىٰ الأغنياء، ولكنها لم تكن أيضاً بالمستوى الذي قد يأتي إلىٰ الذهن، وحينما أراد أن يوزّع أبناءه، ذهب أحدهم إلىٰ بيت أخيه العباس، وهو من أثرياء مكّة، وذهب أحدهم إلىٰ منزل محمد ﷺ الذي كان قد تزوّج خديجة عليها السلام وتحسّن وضعه الاقتصادي، أنا أقرر الوضع في هذه الحدود، ولا أدّعي أنَّ النبي لا عهد له بالفقر اطلاقاً، لقد كانت نفوس مدينة مكة ما يقارب ستة إلىٰ سبعة آلاف نسمة، وترجع مكانتها إلىٰ وجود الكعبة فيها، ولم تكن تتمتع بالشرائط المساعدة الصالحة للعمران والزراعة وتربية الحيوانات، وعليه لم يكن هناك مجالٌ للبطالة أو اللّهو، والأثرياء فيها كأبي سفيان، لم يكونوا ملازمين لبيوتهم، وليس لديهم مكاتب وتلكس لممارسة العمل، وإنّما كانوا يعملون بالتجارة مستخدمين قوافل الجِمال في رحلاتهم من مكّة إلىٰ الشام تارة، وإلىٰ اليمن تارةً أخرىٰ، أي كانوا كادحين. والنبي ﷺ أيضاً، حينما بلغ سنَّ الثانية والعشرين، بدأ يمارس العمل بالتجارة، وأبو طالب كان يسافر إلىٰ الشام للتجارة، ولم يكن مجرّد بائع متجوّل، والنبي ﷺ مارس الرعي أحياناً لأبي طالب أو لغيره، واشتغل عاملاً في تجارة خديجة عليها السلام، هكذا كانت حياة النبي ﷺ ولا يحسن أن ندّعي له مفاخر إلىٰ جانب مفخرة النبوّة، بادّعاء أنه كان ينتسب لأكثر عوائل العرب فقراً وحرماناً؛ لأنَّ هذا مخالف للواقع التاريخي، وأنا لا أعلم أصلاً ما هي ضرورة هذا الادّعاء، لماذا لا نبذل هذا الجهد لإثبات أنَّ لينين ينحدر من عائلة فقيرة، هل كان كذلك؟

[أحد الحاضرين]: يقولون إنه كان كذلك.

[الدكتور بهشتي]: كلا، إنني مطّلع علىٰ تاريخ جميع هؤلاء الرؤساء، وأعلم بجميع الوجوه القياديّة للثورة الماركسيّة، إنَّ اختصاصي يفرض عليَّ أن أطّلع علىٰ نبذة تاريخيّة فيما يخصّهم، ماركس مثلاً، صحيح أنه عاش فترة من حياته فقيراً، حتىٰ أنّه اضطر لبيع معطفه لكي يطبع كتابه. ولكنَّ هذا لا يعني الادّعاء أنه من عائلة وضيعة، لقد كان أبوه محامياً، وأمه إحدىٰ أميرات ألمانيا،

ومن العوائل المشهورة هناك. وأما انجلز، الرجل الثاني في الماركسيّة، فقد كان من الأثرياء، وكان والده الألماني يمتلك مصنعاً في مانشستر في بريطانيا، وكان والد لينين طبيباً، ومن هذا نعلم كيف كان يعيش.

[أحد الحاضرين]: عفواً، إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام يتحدَّث في نهج البلاغة عن عَوَز الأنبياء وفقرهم، ولو كان الأنبياء أثرياء، لأمكن أن يتبعهم الناس من أجل ثرواتهم، إنَّ غالب الأنبياء لم يكونوا أثرياء وأصحاب رؤوس أموال، وهذا له مغزًى، وهو أن لا يجتمع الناس حولهم طمعاً في أموالهم.

[الدكتور بهشتي]: وهناك مغزًى آخر أيضاً، وهو واضح بالنسبة لنبيّنا صلوات الله وسلامه عليه، وبالنسبة إلىٰ كثير من الأنبياء أيضاً، وهو: أنَّ الانسان الذي لا يمتلك الثروة، علىٰ نحوين، أحدهما: أنَّه لا يمتلك الثروة لعدم تمتعه بإمكانات الحصول عليها، والثاني: أنه يمتلك القدرة علىٰ الحصول علىٰ الأموال وتجميعها، ولكنه لا يسعىٰ لصرف طاقته في هذا السبيل، وإنما يجعل جميع طاقاته في خدمة الله وعباد الله. وبين هذين النحوين فرق كبير، والذي نعلمه أنَّ الأنبياء من النحو الثاني، اقرأوا تاريخ النبي صلى الله عليه وآله في الرحلة الأولىٰ لتجارة خديجة عليها السلام، كان موفّقاً جداً، وعاد بأرباح عميمة، وهذا يعني أنَّ له ذهنيّة اقتصاديّة، وكان بوسعه جمع الأموال، لكنه لم يفعل، مع أنَّ بإمكانه أن يمارس النشاط الاقتصادي ويصبح من الأثرياء في مدّة قصيرة، ولأجل ذلك لم يكن معدوداً من الأثرياء، ولذا نرىٰ القرآن الكريم يحكي كلام أهل مكّة: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[1] يقولون: لماذا لم ينزل القرآن علىٰ أحد البارزين من وجوه مكّة أو الطائف؟ كان بإمكان النبي صلى الله عليه وآله أن يكون من الأثرياء، ولكن الثروة لم تكن في نظره من دواعي العظمة، لقد كانت نفسه أعظم من أن يسعىٰ لجمع الثروة، وحينما تزوّج خديجة ذات الثراء، أنفق جميع أموالها في

---

(١) سورة الأعراف/ ٣١.

سبيل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وهذا فرق بين النحوين أردت تأكيده.

إذا لم يكن الأنبياء ذوي ثراء، فهذا لا يعني قصور قدرتهم عن جمع الثروة، وإنما مرجع ذلك إلىٰ عدم اهتمامهم بذلك، وهذا ما أردت توضيحه. واقعاً إذا أراد الإنسان أن ينفق ثروته في سبيل القيم الإلهيّة، فإنَّ هذا من دواعي العظمة، بل حتىٰ انجلز ـ بلا تشبيه ـ لا إشكال في أن نصِفَه بالعظمة، لقد وضع كافة الإمكانات التي وفَّرها له المصنع في خدمة الثورة التي يؤمن بها، ولم ينفق أمواله في مواخير الفاحشة والقمار، هذه عظمة أيضاً. الواقع يجب أن يُقال، وأما ما يقال من أنَّ أنجلز كان من أصحاب رؤوس الأموال، وأنه لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً، فهذا خطأ.

لقد كان النبي ﷺ كذلك، ولا ينبغي أن نستفيد من كونه أميّاً أنه كان من عائلة مغمورة، طبعاً هذا البحث ذو أبعادٍ متعددة، وسنصل في مستقبل بحث المعرفة إلىٰ هذه المسألة، وهي: هل يكفي أن يعلم الانسان بمعاناة وآلام الناس، أم لا بدَّ أن يكون واحداً منهم لكي يلمس معاناتهم؟ وإنني ملتزم جداً بأن أقول: إننا نحصل من هذه المطالب الواضحة والموثّقة علىٰ جميع النتائج المبتغاة والنافعة، فلا حاجة بنا إلىٰ اللجوء إلىٰ أمور واهية نحاول أن ندعم بها هذه المطالب المحكمة المتينة، إنَّ محكمات الدين ومحكمات المعرفة البشرية تكفي لإنارة طريقنا، وليست هناك أية حاجة لضمِّ المتشابهات إليها، إنني أحبّذ أن أتابع هذا البحث بنحوٍ يساعدنا جميعاً علىٰ سلوك الطريق الصحيح للمعرفة، وإلاَّ إذا أردنا أن نسلك في بحث المعرفة طريقاً منحرفاً، فإننا سنغدو علماء غير عاملين، أو جهلاء منحرفين.

[أحد الحاضرين]: في نظري، إنَّ هذا الفهم المطروح في مجال(أُميّة) النبي ﷺ، وأنه فرد ينتمي إلىٰ طبقة مسحوقة، لا يزال يعيش إلىٰ الآن في دنيا المسلمين، بصورة مجموعتين من الاسلاميين، إحداهما ترتدي الزي الديني، والأخرىٰ تتلقىٰ العلم في الجامعات.

[الدكتور بهشتي]: معمّم؟

[أحد الحاضرين]: نعم، والآخر هو ما يصطلح عليه بالجامعي، وكلّ واحد من هذين الاثنين يصرّ علىٰ أنّه هو الذي يشخّص الطريق الأقصر والأقرب، والحال أنَّ كلَّ واحد منهما يمتلك مقداراً من الأصالة والاخلاص، ولكنه يعاني من بعض النواقص أيضاً، ولا بدّ أن يتعاون الطرفان، أنا نفسي لست من رجال الدين، وفهم الجامعيين للدين يروق لي أكثر من الفهم الآخر، ولكننا حينما نأتي هنا يجب أن نتلقّىٰ الفهم من معلّم وأستاذ، لأجل ما ورد في النداء[1]، من أنَّ هناك أشياء كثيرة علينا أن نتعلّمها، كما أنَّ علينا أن نطرح الأشياء التي نعلِّمها، وعلى السادة أن يستفيدوا منها، وهذا من مواطن تطرّفنا نحن الجامعيين. طبعاً أنا أعدّ نفسي من الجامعيين، ولحسن الحظ ان الجناح الفعّال والمتصدّي في الوقت الحاضر للقيادة، مؤلَّف من الفريقين. أما فيما يتعلّق بما ذكرتموه عن (جهنّم) من أنَّ علينا نحن الجهنميين في هذه الدنيا، أن نعمل لكي لا ندخل جهنّم، أردت أن تركّزوا البحث في هذه الدائرة، لا أريد أن أقول: إنَّ هذا البحث كلامي أو لغوي، إنَّ لهذه البحوث مجالاً واسعاً، إلاَّ أننا حينما نصل إليها، نحاول عدم التأكيد علىٰ هذه الأمور، فلنلتفت قليلاً إلىٰ التفاصيل، لنرَ ما هو حديث الساعة وما هو موضوعه؟

[الدكتور بهشتي]: لقد ذكرت بصراحة كاملة، وكرَّرت ذلك، أنني وأنتم، كلانا متعلِّم، وبمساعدة بعضنا لبعض نتعلَّم شيئاً، وأنتم تشعرون بأنني أتعامل مع جميع الإخوة، لكي نتعلَّم ونتفهَّم معاً، في بعض المجالات تكون لديَّ القابليّة، وبالتعاون معكم نتفهَّم الأمور بنحوٍ أسرع، وفي مجالٍ آخر يكون لديكم استعداد، وبإمكانكم أن تقدّموا العون في هذا المجال، وكنت قد ذكرت...

---

(١) الظاهر أنَّ مراده أحد نداءات الإمام الراحل.

[الشخص نفسه]: عفواً، الأفضل أنه. . . أنَّ المرحوم الدكتور[1] قال أيضاً، أودّ لو كنت كيس ملاكمة، لكي تمارسوا الرياضة بتوجيه اللّكمات لي.

[الدكتور البهشتي]: رائع! [يضحك الحاضرون] رائع، ولكن بشرط أن لا تلبسوا القبضة الحديدية [يضحك الحاضرون] لقد سجَّلت الليلة مذكّرة لما نأخذه بنظر الاعتبار، أقترح (طبعاً ستكون مسؤوليتكم ثقيلة) أقترح علىٰ الإخوة من ذوي القابليّات بشأن أدوات المعرفة ووسائلها أن يراجعوا كتب التشريح (اناتومي) وكتب وظائف الأعضاء (فسيولوجي) وكتب علم النفس، وينقلوا فقرات ممتعة منها ليتفضّلوا بقراءتها هنا علىٰ زملائهم، إنَّ بحث وسائل المعرفة ربما استغرق جلستين أو ثلاثاً، ولدينا بحث حسَّاس جداً عن القلب، وإنني قد حصلت خلال هذه السنوات الثلاث أو الأربع علىٰ معلومات بشأن القلب لم أرها مدوَّنةً في مكان آخر، وقد اتسعت هذه المعلومات وتوثّقت بالتدريج، ولو تبيَّن أنها وجدت في مكانٍ آخر فسيكون ذلك من دواعي سروري، إنني أفرح لو أنَّ الإخوة بحثوا في بقية المصادر وحصلوا علىٰ هذه الفوائد، وإنني أحبّ أن تكون هناك سوابق لما توصّلت إليه، فهذا أفضل، وإن أمام الإخوة الأعزَّاء منذُ الآن إلىٰ جلستين قادمتين، لا أقلّ خمسة عشر يوماً، بإمكانهم أن يحققوا خلالها في مجال بحث وسائل المعرفة، الذي سوف يستغرق من وقتنا جلستين أو ثلاثاً.

---

(١) مراده الدكتور شريعتي.

الجلسة الخامسة

في مبحث (المعرفة في القرآن) سنطرح هذه النقطة، وهي: أنَّ الأساس الطبيعي والفطري والعامّ والدائم للمعرفة المطروحة في القرآن، هو عبارة عمّا يصل إلينا عن طريق الحواس، بوصفه نقطة الأساس والبداية، وأمّا الأمور التي لا نستطيع الاطّلاع عليها عن طريق الحواس مباشرة، فيجب أن ندركها ونستنتجها من المعلومات التي تقدّمها لنا الحواس. لاحظوا أنَّ هذا المبنىٰ واضح، ونحن جميعاً نعمل وفقه، وأن البحوث الفنية المطروحة بشأنه لا تستطيع أن تفقدنا الثقة به، وإن أمكن المناقشة في حدوده وامتداداته.

ولأجل استنباط هذه القضية من القرآن، يمكننا أن نرجع إلىٰ ما ورد في القرآن تحت عنوان: النظر، الإبصار، الرؤية، السمع، الفقه، العمل، التدبّر، والتفكّر. وإنني قد استخرجت هذا الأسبوع الآيات التي ترتبط بكلّ من هذه الكلمات بشكل كامل، وكنت قد طلبت من الإخوة أن يقوموا هم أيضاً باستخراج الآيات المتعلّقة بهذه المسألة، وأن يضيفوها في حال الضرورة إلىٰ البحث، ولكن بما أننا نريد أن نلج بحثاً جديداً، فلنصرف النظر عن تعداد هذه الآيات، والآن لنرَ ما هي الوسائل والأدوات التي تزوّدنا بكل المعارف التي نستفيد منها.

حركة المعرفة:

المعرفة هي حركة، تبدأ من نقطة، ثم تتقدم متحرّكة إلىٰ نقطة أخرىٰ، وقد ذكرت تلك الليلة أنَّ الفكر في التعريف الاصطلاحي المتداول بين المفكرين في العالم الاسلامي منذ القديم مطروح بوصفه عبارة عن

حركة وجريان، وأنَّ ما يطرح اليوم في البحوث الفلسفيّة والاجتماعيّة بعنوان تطوّر المعرفة، ويُثار حوله الضجيج، هو ما طرحه المرحوم السبزواري في منظومته في البيت الذي قرأته لكم:

والفكر حركة إلىٰ المبادىء ومن مبادىءٍ إلىٰ المراد

الفكر هو عبارة عن حركة إلىٰ النقاط التي يبدأ منها الاستنتاج، ومنها إلىٰ النتائج التي نريد الحصول عليها، فما هي الوسائل والأدوات التي نستفيد منها في هذه الحركة؟

إنَّ هذه الأدوات تقسَّم إلىٰ قسمين أساسيين، سنبحث أحد القسمين في هذا المقطع من البحث، ونؤجِّل الكلام عن القسم الثاني إلىٰ مقطع آخر. القسم الأول هو عبارة عن الأدوات والوسائل، والقسم الثاني هو عبارة عن الطرق والأساليب، وهذا ما سنبحثه في مقطع مستقلّ بعنوان: أسلوب المعرفة.

لا تعجبوا من أنني ذكرت الأسلوب بعنوان الأداة، فإنَّ هذا أيضاً اصطلاح قديم جداً، من الأسماء القديمة للمنطق (أورگانون)[1] والأرگان يعني الأداة، الأداة التي تستخدم في نظام معيّن، وفي تعريف المنطق المسجّل في الكتب التي نتداولها حالياً، قالوا: المنطق آلة قانونيّة تعصم مراعاتها الذهنَ عن الخطأ في الفكر.

وبناءً علىٰ ذلك فإنَّ لدينا بحثين تحت عنوان: أدوات المعرفة، الأول بحث الأدوات والوسائل العينيّة التي تستعمل في مجال المعرفة، والثاني أسلوب المعرفة، الذي له أيضاً حكم الأداة.

وسائل المعرفة:

تنقسم الوسائل المستخدمة في الحصول علىٰ المعرفة إلىٰ قسمين

(١) Organon.

أساسيين، أحدهما: الوسائل المودعة في أبداننا ووجودنا، والآخر: الوسائل الخارجة عن كياننا الخاص. وهذه الوسائل الخارجيَّة إنما هي في الحقيقة وسائل مساعدة للوسائل الكامنة في داخلنا. إنني الآن مضطر إلىٰ استعمال هذه العوينات، ما هي العوينات؟ إنها أداة مساعدة لعيني، وحينما يثقل السمع، تحتاج الأذن للسمّاعة، فالسمّاعة عاملٌ مساعد للأذن، وأحياناً لا تكون القضيّة قضيّة خِفَّةٍ أو ثقل، ولكننا نريد زيادة قدرة وسائلنا، فنلجأ لاستعمال الأدوات، أي أنَّ وسائلنا الذاتيَّة قد تكون في أوج قوتها الطبيعيَّة، ولكنَّ هذه القوّة لا تكفينا، ونريد زيادة مداها كثيراً جداً، مثلاً نستعمل الميكروسكوب، لأنَّ عين الانسان مهما كانت قويّة لا تستطيع رؤية الميكروب، ولذلك نلجأ إلىٰ الاستفادة من الميكروسكوب، وأحياناً نستعمل المكبِّرات لزيادة مدىٰ الإبصار، والتلسكوب كذلك أيضاً، إنه يضاعف قدرة الانسان علىٰ الرؤية إلىٰ مسافات بعيدة، وإنَّ الأذن الاعتيادية مهما كانت قويَّة فإنها لا تستطيع أن تسمع دقَّات القلب، أو صوت الصدر والرئتين، فنستفيد من السمَّاعة لهذا الغرض، لنسمع ما يصدر عن تلك الأعضاء بنحوٍ أوضح. وعلى هذا النحو بقيَّة الأدوات المساعدة لقدراتنا الخاصَّة، كأدوات الفحص والقياس، التي لن نتحدَّث عنها فعلاً.

الوسائل الداخليَّة:

أمَّا الوسائل الداخليَّة، التي توجد في أبداننا، فإن بعضها لا نشكّ في كونه من الوسائل، ولكنَّ بعضها الآخر مورد تردّد، علىٰ الرغم من كونها ذات تأثير في حصول المعرفة.

وتنقسم هذه الوسائل أيضاً إلىٰ ثلاثة أقسام: الحواسّ الظاهرة، الحواسّ الباطنة، الحواسّ المغايرة لهذين القسمين. أما الحواسّ الظاهرة فالمراد بها ما يمكن أن يُرىٰ علىٰ سطح البدن: العين (عضو الإبصار)، الأذن (عضو السمع)، الغدد الخاصَّة في اللسان (عضو التذوّق)، الأعصاب

الخاصَّة في الأنف (عضو الشم)، الأعصاب المنتشرة تحت الجلد للإحساس بالنعومة والخشونة والحرارة والبرودة، والتي يُطلق عليها جميعاً حاسَّة اللمس. فهذه كلّها تُسمَّىٰ عادة بالحواس الظاهرة، وهم يعدّونها فعلاً خمس حواس، ولكن من المحتمل أن يعرف منها في المستقبل خمسمئة قسم، ولكن هذا لا يؤثّر في بحثنا علىٰ كلِّ حال، وهناك من المستقبلات في داخلنا أيضاً، مثلاً: هل أنا الآن في حالة توازن أم لا؟ هل أنا مضطرب أم في حالة تعادل؟ بأيّ وسيلة أدرك ذلك؟ هذا ما لا أستطيع إدراكه بحاسة البصر أو السمع، ولا الشم، ولا بواسطة الغدد المنتشرة تحت الجلد، أو علىٰ طرف اللسان، وإنما يدرك بشيء آخر وحاسّة خاصَّة، وهي ما يسمَّىٰ بحاسَّة التوازن. والألم الداخلي، بأي شيء أدركه؟ حينما أُوخز بإبرة، فإنني أشعر بالألم، لا أقصد الضغط الخارجي علىٰ يدي، لأنَّ الضغط شيء والألم شيء آخر. وبأيّ شيء أدرك العطش والجوع، وسائر الحالات الداخليَّة؟ هناك وسائل خاصَّة لها آثارها في المعرفة، فلو تعطَّلت العين عن العمل، لفقدنا المعلومات التي تصلنا بواسطتها، وهناك أيضاً خمساً وستاً وسبعاً وألفاً من الحواس الداخليَّة، ولكن لدينا أيضاً معلومات ومدركات عن طريق غير هذين الطريقين، وعليه فلا بدَّ من وجود نوع ثالث من الوسائل يكون سبباً لهذه المعلومات. إنني حينما أحاول استنتاج معلومة من معلومة أخرىٰ، إنما أنجز عملاً معرفيّاً، هنا أيضاً هناك عمل ينجز في داخلي، عمل معرفيّ، هذا العمل لا يرتبط بالعين، ولا بالأذن، ولا بالأنف، ولا باللسان، ولا ببشرة البدن أو بالأعصاب التي تحتها، إنه عمل ينجز عن غير طريق القسمين الأوّل والثاني، أي عن طريق ثالث غير الحواسّ الخارجيّة، وغير الحواس الداخليّة.

هناك موضوع نعلم به، وهو وجود أداة دقيقة ومعقَّدةٍ، لا يبلغ دقّتها وتعقيدها أي جزء من مكوّنات البدن الأخرىٰ، ولهذه الأداة المعقَّدة أثرها في المعرفة، وهذه الأداة هي: الدماغ أو المخّ. وعليه يكون الدماغ من أدوات

المعرفة، ومرادنا بذلك الأقسام المختلفة للدماغ، من المخّ والمخيخ والنخاع الشوكي، والتلافيف الداخليّة للمخّ. ويجب الالتفات إلىٰ أنَّ معرفة المخّ وأقسامه إجمالاً هي من المعلومات القديمة جداً، قد يتخيّل الإخوة أنَّ علم التشريح وأدوات المعرفة الجديدة هي التي أزاحت الستار عن معرفة المخّ وأقسامه، ولكنَّ هذا ليس صحيحاً، فإنَّ لدينا مؤلَّفات قديمة كمؤلَّفات ابن سينا، تشرح لنا أقسام المخ (طبعاً تحت عنوان الدماغ)[1] وتبيّن لنا أيَّ قسم يرتبط بالحافظة، وأيّ قسم يرتبط بالإحساسات، الخ، وهذه البحوث ترجع إلىٰ ما قبل الاسلام، وعليه، فإنَّ معرفة المخّ إجمالاً، وتأثيره في الإدراك والمعرفة، وأقسامه المتنوّعة، هي من الأمور التي جرىٰ البحث فيها منذ القِدَم.

هذا توضيح مجمل ومضغوط بشأن أدوات المعرفة ووسائلها، فلنتوجّه الآن إلىٰ القرآن الكريم.

القرآن وأدوات المعرفة:

حينما يتحدّث القرآن عن وسائل المعرفة، فإنه يعرض لنا ثلاث وسائل: السمع، والبصر، والفؤاد. نقرأ الآيات المرتبطة بهذا المجال، منها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[2] وقال أيضاً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[3] وقال أيضاً: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ

---

(١) تحدَّث أبو علي بن سينا في مواضع عديدة من كتابه (القانون في الطب) عن (الدماغ) راجعوا القانون، الكتاب الرابع (الأمراض التي تصيب الرأس إلى القدم) الفصل الثاني (تشريح الدماغ) وفصولاً أخرىٰ من الكتاب الرابع.

(٢) سورة النحل/ ٧٨.

(٣) سورة المؤمنون/ ٧٨.

(٤) سورة السجدة/ ٩.

سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾[١].

هذه آيات تبيّن أنَّ ما يعدّه القرآن من أدوات المعرفة هو: العين والأذن والقلب. وهناك آيات كثيرة تذكر كلَّ واحدة من هذه الأدوات علىٰ حدة، وسوف أعرضها لكم هذه الليلة، وهناك آيات تعرَّضت لأداة أخرىٰ غير هذه الثلاثة، وهي (الصدر) وما له من ارتباط بالمعرفة، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾[٣] وهذه الآيات تتعلّق بقبول الاسلام، في مقابل الصدر الضيّق المضغوط.

ومن الموارد الأخرىٰ (اللبّ) والألباب، ما معنىٰ اللبّ؟ هذه الكلمة التي وردت مكررة في القرآن، وكذلك كلمة (حِجْر) قال تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾[٤] طبعاً وردت كلمة الحجر في آياتٍ أخرىٰ، ولكنها في هذه الآية فقط جاءت بهذا المعنىٰ المرتبط بالمعرفة، وسوف نتعرَّض لذلك في نهاية هذا القسم من البحث، وأمّا ما نريد بحثه فعلاً فهو ما يتعلَّق بالسمع والأذن، والبصر والعين، والفؤاد والقلب.

البصر في القرآن:

أما بشأن البصر والعين، الذي استُعمل ـ بصورة مفرد: البصر. وبصورة جمع: الأبصار ـ في القرآن مكرراً، فأذكر لكم نماذج من الآيات التي استُعمل فيها لفظ البصر بوصفه أداةً للرؤية والمعرفة، منها قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[٥] وفي هذا المجال لدينا آيات

---

(١) سورة الأحقاف/٢٦.
(٢) سورة الزمر/٢٢.
(٣) سورة طه/٢٥ ، ٢٦.
(٤) سورة الفجر/١ ـ ٥.
(٥) سورة الأنعام/١٠٣.

كثيرة، منها:

١ - ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾[1].

٢ - ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[2].

٣ - ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾[3].

وفي بعض الآيات يكون البصر أكثر مناسبة لمعنىٰ الرؤية أو القدرة علىٰ الرؤية، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾[4] وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾[5] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾[6] هنا يستعمل السمع والبصر بمعنىٰ مناسب للقدرة علىٰ السماع والرؤية، وهناك آيات تشير إلىٰ أنَّ بعض الناس لهم عيون، ولكنّهم لا يستفيدون منها في الرؤية؛ والمراد من الرؤية في هذه الآيات الرؤية العميقة، ومنها: قوله تعالى:

١ - ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾[7].

---

(١) سورة النحل/ ٧٧.
(٢) سورة الاسراء/ ٣٦.
(٣) سورة النجم/ ١٧.
(٤) سورة الملك/ ٤.
(٥) سورة قٓ/ ٢٢.
(٦) سورة الأنعام/ ٤٦.
(٧) سورة البقرة/ ٧.

٢ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾[1].

٣ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾[2]، فلنقرأ الآيات المتقدمة على هذه الآية لكي يتّضح لنا من هم أولئك الذين فعل الله تعالى بهم ذلك، يقول تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[3].

وإنّما قرأت الآيات المتقدّمة والمتأخّرة عن الآية موضع الشاهد لكي يتّضح جيّداً أين يطرح القرآن مسائل المعرفة، فهذه الآيات معروضة في مجال الاستفادة العمليّة من المعرفة.

يقول تعالى أنّه ختم على سمعهم وأبصارهم، ليس معنى ذلك أنه أعمى أبصارهم، كلا، فإن عيونهم لا تزال سليمة، ولكنها عاجزة عن العمل الواقعي ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾[4] إنَّ عيونهم لم تصبها آفة التراخوما، ولم يوضع عليها حجاب، إنها ترى كلَّ شيءٍ إلاّ الحقّ، فإنها لا تُبصره.

العين في القرآن:

الآيات المتعرّضة للعين والأعين كثيرة أيضاً، منها:

---

(١) سورة النحل/١٠٨.

(٢) سورة محمد/٢٣ .

(٣) سورة النحل/١٠٦ ـ ١١٠.

(٤) سورة الأعراف/١٧٩.

١ - ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾[١]
وهذه الآية تتكلّم عن العين بوصفها عضواً من أعضاء البدن.

٢ - ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾[٢].

٣ - ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[٣].

٤ - ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[٤].

وهذه الآيات تتحدَّث عن العين بوصفها وسيلة للرؤية والنظر، وأما العين بوصفها نموذجاً لآيات الله، ففي قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ﴾[٥].

هذه الآية تتحدث عن الأصنام، قال: ما الذي تتمتع به هذه الأصنام لتقوموا بعبادتها؟ هل تمتلك أرجلاً تمشي بها؟ هل تمتلك أيدي تعمل بها؟ هل لها أعينٌ تبصرُ وآذان تسمع؟ تلاحظون أنه استعمل العين هنا صراحة بوصفها أداةً للرؤية.

العين قد لا تقوم بمهمتها ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾[٦] ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾[٧] ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾[٨].

وفي القرآن الكريم آيات ترتبط بناحية أخرىٰ من نواحي القرآن، هي

---

(١) سورة المائدة/ ٤٥.
(٢) سورة البلد/ ٨.
(٣) سورة المائدة/ ٨٣.
(٤) سورة غافر/ ١٩.
(٥) سورة الأعراف/ ١٩٥.
(٦) سورة الأعراف/ ١٧٩.
(٧) سورة الكهف/ ١٠١.
(٨) سورة القمر/ ٣٧.

الناحية الروحية التي تخصّ العين، ومن أمثلة هذه الآيات: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾[1] ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[2] والآية التي أحبّ أن أقنت بها في الصلاة، لأنها عبارة عن دعاء يحكيه القرآن عن لسان المؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[3].

السمع والأذن في القرآن:

إنَّ ما ذكرناه من الآيات فيما يتعلّق بالبصر والرؤية والعين، بوصفها أداة للمعرفة، يوجد مشابه له فيما يتعلّق بالسمع والأذن، والآيات هنا كثيرة، منها: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[4] ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾[5] ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾[6].

وقد استعمل لفظ (أُذن) في القرآن بمعنيين، أولهما: بمعنىٰ الشخص الذي يستمع لكلام الناس، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[7] أي أنهم يتهمون النبيّ ﷺ بأنه سَمّاعةٌ لكلّ كلام، فيردّهم الله تعالى بأنه كذلك، ولكنّه إنّما يستمع ما فيه خير لكم، والمعنىٰ الآخر: قوّة السمع التي تستطيع أن تحتفظ بالكلام، قال تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[8].

ويلاحظ أنَّ القرآن لم يذكر بقيّة الحواس كالذائقة والشامّة واللامسة، كما ذكر العين والبصر والأذن والسمع، فما هو سبب ذلك؟

---

(١) سورة القصص/ ٩.
(٢) سورة طه/ ٤٠.
(٣) سورة الفرقان/ ٧٥.
(٤) سورة الكهف/ ١٠١.
(٥) سورة يونس/ ٣١.
(٦) سورة لقمان/ ٧.
(٧) سورة التوبة/ ٦١.
(٨) سورة الحاقة/ ١٢.

[أحد الحاضرين، كلامه غير واضح].

[الدكتور بهشتي]: نعم؛ لأننا قلنا: إنَّ الأذن وسيلة للسمع، وإنها في الوقت نفسه تتعطل عن العمل، فإذن هذه الآية تذكر هذين الأمرين بالنسبة للعين، وما يشابه هذين الأمرين يوجد بالنسبة للعين.

[أحد الحاضرين]: قلتَ مرةً: إنَّ الأذن بمعنىٰ أحد أعضاء البدن، وذكرتَ آيةً، ومرةً أخرىٰ قلتَ: إنَّ الأذن بمعنىٰ أداة السمع، وأودّ أن أسأل ما الفرق بين الأمرين؟

[الدكتور بهشتي]: كلا، ذكرت آية وردت فيها كلمة الأذن بمعنىٰ أنَّها أحد الأعضاء، دون القول بأنها عضو السمع، وكذلك الأمر بالنسبة للعين، تارة تذكر بوصفها عضواً، وأوردنا لذلك عدَّة آيات، منها ما ورد بشأن القصاص من أنه تعالى ذكر في التوراة «**العين بالعين والأذن بالأذن**» ولم يرد القول بأنَّها أداة للسمع أم لا.

حسنٌ، ذكر القرآن من أعضاء الحس: الأذن والعين فقط بوصفهما وسيلتين للمعرفة، ولم يذكر بقيَّة الحواس، فما الذي يشير إليه ذلك؟

[أحد الحاضرين]: ربما قلَّة الاستعمال.

[الدكتور بهشتي]: هل يستحيل احتمال أنَّ عدم ذكرها سببه الغفلة؟

[أحد الحاضرين]: لا وجود لهذا الاحتمال.

[الدكتور بهشتي]: هل يحتمل أنَّ القرآن كان غافلاً عن أعضاء السمع؟ هذا مستحيل، ولو فرضنا أنَّ شخصاً لا يعدّ القرآن كلام الله، ولا يعدّ من نزّل عليه القرآن نبيّاً، ويقول إنَّ القرآن هو كلام محمد ﷺ نفسه، ولم ينزل عليه من السماء، وما فيه هو كلامه لا كلام الله. فهل يحتمل مثل هذا الشخص أنَّ النبي ﷺ ليس ملتفتاً إلىٰ أنَّ لسانه يتذوّق طعم الغذاء، هل يوجد مثل هذا الاحتمال؟

كل متكلّم عاديّ يعلم أنَّ الانسان يدرك الروائح بأنفه، فإذن عدم ذكر حاسَّة الذوق والشمّ، لا يمكن بحال أن يكون دليلاً علىٰ عدم معرفة هاتين الحاستين، وأنَّ الشخص مهما كان وسواسيّاً، لا يمكن أن يخطر علىٰ ذهنه هذا الاحتمال، فمن الواضح أنَّ ذكر حاسَّتي البصر والسمع فقط حين ذكر أعضاء الحسّ، إنما هو لأجل تأثيرهما الأساسي في دائرة المعرفة، وأمّا سائر الحواس، فإن تعطّلها عن العمل ـ وإن أدّىٰ إلىٰ فقدان بعض المدركات ـ إلاّ أنها مدركات قليلة. لاحظوا، انني لا أدّعي نفي تأثير هذه المدركات في الحياة بالمرَّة، بل يمكن أن يكون تأثيرها مهمّاً، لكنه ليس واسعاً، فإنَّ مجالها محدود جداً. فلو فقد الانسان حاسَّة الشم، فإنه سيتعرض لكثير من الأخطار. افترض أنَّك جالس في المنزل، ووقعت قطعة جمر علىٰ اللحاف، فلو كانت حاسَّة الشم سليمة، فإنَّك تعلم فوراً بأنَّ هناك شيئاً يحترق، فتعمد لمعالجة الأمر بسرعة، وأما إذا كانت حاسَّة الشمّ عاطلة عن العمل، فإنك لن تشعر بالأمر إلىٰ أن تحرق النار بدنك. ولو فقد الانسان حواسّه الأخرى، فإنه سيحرم من نعمة عظيمة، إلاّ أنَّ هذه الحواس ليس لها تأثير واسع في عمليّة الإدراك والمعرفة.

[أحد الحاضرين: كلامه غير مفهوم].

[الدكتور بهشتي]: هذا أفضل! اتفاقاً أنَّ هذه عين المسألة التي نحن بصدد الاقتراب منها، ولكنك تعجَّلت بعض الشيء في طرحها، هناك غير مسألة سعة المجال والأهميَّة، مسألة أخرىٰ تطرح، وهي: الهدف من المعرفة، ولكنَّ ما أعرضه الآن قبل الهدف هو مسألة الأهميَّة والقيمة، وهذه المسألة لها موقعها بالنسبة للانسان، إنَّ مقدار المدركات التي يتلقّاها الانسان عن طريق الأذن والعين، واسع جداً بالقياس إلىٰ مقدار المعلومات التي تأتي عن طريق الحواسّ الظاهريَّة الأخرىٰ. إنَّ حاسَّة البصر والسمع لهما امتيازهما الخاص علىٰ سائر الحواسّ بما في ذلك الحواسّ الخارجيَّة والداخليَّة.

أثر الأذن في تحصيل المدركات:

للعين والأذن والبصر والسمع تأثير واسع في مجال المعرفة، وإننا نستطيع أن نشخّص تأثير العين بسهولة، انه معرفة الألوان والأشكال، والصغر والكبر، وكثير من الأشياء الأخرىٰ، وأمّا الأذن فما هو تأثيرها الواسع؟ إذا كان المراد أننا نميّز بها الأصوات، والألحان، وصوت هذا الانسان أو ذاك، فهذا المقدار من المدركات لا يمكن أن يكون أوسع من الذوق والشمّ، إذن فما هو المراد من تأثير الأذن؟ إنَّ الأذن كانت هي الوسيلة الوحيدة لتبادل المعلومات، ونقلها من جيل إلىٰ جيل قبل اختراع الكتابة والخطوط، وهذا هو المهم في تأثير الأذن. واللسان مهمّ بهذه الدرجة أيضاً، وإن لم يكن من وسائل المعرفة والإدراك، ففائدة اللسان تكون تبعاً للأذن التي هي وسيلة الإدراك، وعليه فإن التأثير الأساسي للأذن يتمثَّل بسماع كلام الآخرين.

[أحد الحاضرين]: ولكننا نقوم بنقل أفكارنا عن طريق اللسان.

[الدكتور بهشتي]: حينما نتكلّم باللسان، فإنَّ الأذن هي وسيلة انتقال الكلام إلىٰ المخّ، واللسان إنما يساعد علىٰ إيصال الكلام إلىٰ الأذن، وعليه تلاحظون أنَّه بعد أن اخترع الانسان الكلمات والأصوات التي تدلّ علىٰ المعاني، وقبل أن يتمكن من اختراع الأشكال، كانت الأذن قبل ذلك بزمان طويل، هي الوسيلة الوحيدة لانتقال الأفكار والمعاني من إنسانٍ إلىٰ آخر، ومن جيلٍ إلىٰ جيل، وأنتم تعلمون لو أننا عدمنا هذه الوسيلة من وسائل المعرفة، لكانت ثقافة البشر ومحتواهم الفكري ضحلاً وصبيانياً، إنّ التكامل الفكري متوقف علىٰ تبادل الأفكار وانتقالها.

[أحد الحاضرين]: إنه لولا السماع والكتابة والرؤية أيضاً [كلام غير واضح].

[الدكتور بهشتي]: تقدّم أنه قبل اختراع الخطّ، حتىٰ قبل اختراع

الخطوط والتصاوير والعلامات.

حسنٌ، هل أنَّ تأثير الأذن أصبح قليلاً بعد اختراع الخط والعلامات والقراءة والكتابة؟ كلا، لقد وجد عامل مساعد، وإلاَّ فإنَّ تأثير الأذن في هذا المسار في تصاعد دائم، ما الذي أفعله الآن وأنا ماثل أمامكم؟ إنني أطرح موضوعات، وأنتم تستمعون، وتضيفون أفكاراً إلىٰ أفكاركم بمساعدة آذانكم التي تواصل عملها فعلاً. لو أنَّ جميع صفوف الدرس قد أُلغيت، واستعيض عنها بالدراسة عن طريق المراسلة، ماذا سيحدث؟ هل سيتكامل الفكر البشري؟ أم أنَّه سوف يسير في قوس نزولي؟ إنَّ القراءة والكتابة إنَّما وجدا بمعونة الأذن، فهي التي رفعت ووسَّعت من مجال الاستفادة من العين. وفيما يتعلَّق بدرسنا، نقول إن وكالات الأنباء، ووسائل الاتصال الجمعي، ما هو مستوىٰ اعتمادها علىٰ الأذن؟ وما هو مستوىٰ اعتمادها علىٰ العين؟ هناك تفاوت بالغ بين المستويين، لو أنَّ الأذن تعطَّلت عن العمل، وأصبحت جميع الأفلام صامتة، ما هو مقدار الفرق التعليمي بين استعمال الفيلم الصامت والفيلم الناطق؟

وعليه، صحيح أنَّ اختراع الخط والقدرة علىٰ القراءة والكتابة، قد وسَّع من مجال فائدة العين وتأثيرها، وساعد الإنسان علىٰ الاستفادة من العين في مجال المعلومات التي كان مضطراً لتلقّيها عن طريق الأذن، إلاَّ أنَّ هذا كلَّه لم يقلل من أهميَّة تأثير الأذن، بل إنَّ حجم تأثيرها في تزايد دائم، إنكم تلاحظون الآن أننا إذا أردنا أن نبيّن أداتين من الأدوات الحسّيَّة ذواتي تأثير واسع وعميق في المعرفة الانسانيَّة، فإننا سنذكر الأذن والعين، ولا ثالث لهما.

[أحد الحاضرين]: ولهذا نجد القرآن يذكر البصر بعد السمع، فهذا يبيِّن أهميَّة السمع من البصر.

[الدكتور بهشتي]: يعني هناك أولويَّة للسمع علىٰ البصر، هذا المعنىٰ

محتمل، ولكن هناك احتمالات أخرىٰ، ولكن بما أنني أحبّ مهما أمكن تركيز هذا البحث، فإنني لا أطرح البحوث الجانبيّة، ولكن حينما يسأل الإخوة أكون مضطراً لإعطاء الجواب. في نظري هناك احتمال آخر أقوىٰ، يرتبط بعمل النبي، أي: عمل القرآن، بأيّ حاسَّة وعضو يريد القرآن الوصول إلىٰ أذهان السامعين؟ إنها الأذن، إنني أحتمل أنَّ تقديم السمع راجع إلىٰ هذا الاعتبار، فإن للسمع أولويَّة في تحقيق غرض القرآن، لأنه لا بدَّ للمخاطبين من سماع كلام النبي ﷺ والتفكير به، وحتىٰ فيما بعد أيضاً حينما يُراد الاستفادة من العين، لا بدَّ للنبي أن ينفذ إليهم عن طريق الأذن.

[أحد الحاضرين]: إنَّ هذا منحصر بزمان معيّن، ولا ينسجم مع تبليغ القرآن دوماً.

[الدكتور بهشتي]: بماذا؟

[الشخص نفسه]: يعني أنَّ اعتماد النبي ﷺ علىٰ الأذن كثيراً في مجال الدعوة، إنما هو في السنوات الثلاث والعشرين، ولكن ماذا عن بقيَّة عصور البشر؟ إنَّ القرآن ليس خاصاً بالمرحلة الأولى.

[الدكتور بهشتي]: أنتم الآن تفعلون ذلك أيضاً، في ذلك الوقت كان هناك خط وكتابة، ولكن الدعوة الآن أكثر ما تكون عن طريق المشافهة.

[الشخص نفسه]: إذن هذا هو النحو الأوَّل، وأنت قلت الأسلوب الثاني أقوىٰ.

[الدكتور بهشتي]: كلا، إنني أتحدث عن دعوة القرآن، ليس معنىٰ الأقوىٰ أن تأثير الأذن أهم بنحو مطلق، وإنما المقصود القرآن، في العمل القرآني لا يزال تأثير الأذن مهمّاً، هذا أوّلاً، وثانياً: أنَّ هذه المسألة مرتبطة بفترة الثلاث وعشرين سنة، ولا يمكن أن تكون في كلّ زمان، وفي جميع الأماكن، أي جواب لديكم عن هذا أيّها الإخوة؟ وأي توضيح؟

[أحد الحاضرين]: حاليّاً نأخذ تفسير القرآن غالباً عن طريق الأذن وحاسّة السمع.

[الدكتور بهشتي]: كلا، غير هذا.

[أحد الحاضرين]: إنني أعتقد أن فكر البشر وإدراكهم مرتبط بهذين العضوين، أعني أنَّ الانسان كثيراً ما ينخدع أو يطّلع عن طريق هذين العضوين، لهذا السبب يكونان مرجّحين علىٰ بقيَّة الأعضاء.

[الدكتور بهشتي]: كلا؛ فإنهم يرجّحون العين علىٰ الأذن.

[الشخص نفسه]: الأذن أرجح، يمكن للانسان أن يدرك عن طريق السمع، وبواسطة الأذن يمكن أن يتعرّض للخديعة أكثر.

[الدكتور بهشتي]: يعني أنك ترىٰ أنَّ المعلومات الواردة عن طريق الأذن، أكثر دائماً ممّا يرد عن طريق العين؟

[الشخص نفسه]: نعم.

علّة كون القرآن عربيّاً، وعدم نزوله بلغة غير العربيّة:

[الدكتور بهشتي]: قلت إننا لا نستطيع علىٰ وجه الدقّة أن نقبل هذا، لديَّ احتمال آخر، وهو: أنَّ علَّة اعتماد الآيات القرآنية علىٰ السمع هي أنَّ القرآن في ذلك الظرف كان يمارس تأثيره عن طريق الأذن، وأحبّ أن أطرح جواباً كلّيّاً عن سؤال السيد الموسوي، وهو: أنَّ المحتوىٰ القرآني يتَّسم بالعموم الزماني والمكاني، ولكن هل يجب أن يكون أسلوب تعبيره متّسماً بالعموم الزماني والمكاني أيضاً؟ كلا، أصلاً كيف يمكن ذلك؟ أنتم تعلمون أنَّ بعض ألفاظ القرآن لم تعد مألوفة في هذا العصر حتىٰ لدىٰ العرب، فنزول القرآن باللغة العربية ماذا يعني؟ معناه أنَّه باللغة الأصليَّة للمخاطبين، ما نريد قوله: لا يا سيّدي، إنَّ القرآن نزل بالعربيّة لأنّها أفضل من جميع اللغات، هذا ما لا أفهمه، لماذا نزل القرآن باللغة

العربيّة، لأجل ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾[1] حينما يريد النبي دعوة قومه، بأيّ لغة يخاطبهم؟ بلغتهم طبعاً، هل تعني عربيّة القرآن أنَّ العربيّة لغة عالميّة وخالدة؟ كلا، بل محتوىٰ القرآن عالميّ وخالد، وهذه الخصوصيّات مرتبطة باللغة، وأنَّ خصائص الزمان والمكان يجب مراعاتها في تنظيم العبارات، فالقرآن يقول: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧﴾[2] ما معنىٰ ذكر (الابل) هنا؟ هل يعود ذلك إلىٰ حيثيّة عالميَّة الإبل وخلودها؟ أم إلىٰ حيثيّة محيطها وزمانها؟ الثاني هو الصحيح، يعني ربما لو كان النبي ﷺ بين العرب في هذا العصر، لقال شيئاً آخر، في ذلك الزمان والمكان، حينما يريد النبي ﷺ دعوة الانسان إلىٰ التفكّر في الحيوان، فإنَّه يشير إلىٰ الحيوان الضخم الذي يتعاملون معه ليلاً ونهاراً، وهذه المسألة في غاية الوضوح. وعليه فإنَّ جميع خصوصيّات العبارات في الآيات لا يمكن أن تكون عالميَّة وخالدة، يكفي أنَّ السمع في تلك البيئة وذلك الزمان كان له التأثير الأوَّل في الدعوة إلىٰ الدين، ما أردت عرضه هو جواب كلّي عن جميع الذي يمكن أن يطرح في هذا المجال.

[أحد الحاضرين]: علىٰ هذا لِمَ لا نقرأ الصلاة بالفارسيَّة دون العربيَّة؟

[الدكتور بهشتي]: نحن نقرأ الأدعيَّة باللغة العربيَّة، فمن قال اقرأوا أدعيتكم بالعربيَّة؟ يجب أن تدعوا باللسان الذي تفهمونه وتخاطبون به ربكم بلا تكلّف، ولكنَّ الصلاة ليست مجرد دعاء، إنها أكثر من ذلك، وعليه، فتأثيرها يرتبط ببقيَّة التأثيرات. الصلاة هي نوع من الدعاء، إنه دعاء يجب أن يقرأ بصورة جماعيّة، والمراد بالجماعة جماعة المسلمين، الأمر سهل جداً، في الحج السنوي الذي يصلّي فيه المسلمون من مختلف اللّغات والأقطار والأجناس خلف إمام واحد في المسجد الحرام، فهل ترون أنَّ الصلاة هناك لو كانت بلغة موحّدة تكون أشدَّ تأثيراً في تحقيق الأخوة

---

(١) سورة إبراهيم/ ٤.

(٢) سورة الغاشية/ ١٧.

والترابط وتقرير المصير؟ أم أنَّ تأثيرها يكون أشدَّ إذا كانت بلغات مختلفة؟

[أحد الحاضرين: كلامه غير واضح].

[الدكتور بهشتي]: لا يا عزيزي، قلتُ إنَّ الصلاة تتمتع بهذا التأثير، هناك بحث عن لغة القرآن، وبحث عن لغة الصلاة، وبحث عن لغة الدعاء، أنتم أحرار في لغة الدعاء، ولغة القرآن جاءَت تبعاً لظروف المنطقة والزمان، ولغة الصلاة هي لغة القرآن التي انتخبت لتحقيق التأثير في أتباعه في مرحلة وظروف نزوله. إذن لكلّ واحدٍ معناه، ولا نقيس أحدها بالآخر، والصلاة بالتأثيرات المتنوّعة المطلوبة منها، يمكنها إحداث تأثير أكبر إذا أُقيمت باللّغة العربيّة، وخاصة الجمل التي تتألف منها فصول الأذان والإقامة للصلاة، وهي سبع وعشرون جملة قصيرة، يكررها الانسان كلَّ يوم، ما أسهل ذلك؟ يمكن أن يدَّعي البعض أنَّ المسلمين غالباً لا يفهمون معنىٰ كلمة (صلاة) فأقول هذا من علائم الكسل، إنَّ معظم المسلمين اليوم يعرفون معنى Good afternoon, good morning, How are you ولكنهم لا يعرفون كيف يفهمون معنىٰ هذه الجمل السبع والعشرين، إن تعلّم معاني هذه العبارات من السهولة بمكان.

حسنٌ، جواب ذلك السؤال أنَّ السمع يمكن أن يكون ارتباطه بدعوة القرآن أشدَّ من ارتباط البصر.

[أحد الحاضرين]: عفواً سيّدي الدكتور، هل يمكن أن يقال: إنَّما قدّم السمع علىٰ البصر لأنه أعمّ، مع أننا إذا أردنا أن نفهم موضوعاً لا بدَّ أن نكون متمكنين من القراءة والكتابة، لكي نستلهمه من القرآن، مع أنَّ السمع ليس متوقفاً علىٰ ذلك؟

[الدكتور بهشتي]: يعني تريد أن تقول: إنَّ السمع له الأولويَّة في كل وقت لا يكون للقراءة والكتابة عموميّة فيه بشأن فهم المطالب؟ هذا صحيح، وقد ذكرت لكم أنَّ الدعوة في ذلك الزمان كانت وسيلتها المتعارفة

هي استماع القرآن.

[أحد الحاضرين]: ... لذا يقولون: ما راءٍ كمن سمعَ. يعني: السمع والبصر وتلك المعرفة القلبية.

[الدكتور بهشتي]: يعني ترتيبها بحسب درجة الأهميَّة.

[الشخص نفسه]: يعني مستوىٰ المعرفة، وأيّها أعلىٰ.

[الدكتور بهشتي]: كلا، وإنما نعني ترتيبها علىٰ عكس ذلك، أي نبدأ بالأسفل، ثم نصعد إلىٰ ما يولّد اليقين، هذا مطلب أيضاً يعني الانتباه والتوجّه. ولكن اصبروا ريثما نصل إلىٰ هذه المسألة في مبحث الفؤاد، طبعاً ذكرها هنا في محلّه؛ لأنَّ مبحث السمع والبصر قد طرح، ولكن اسمحوا لنا حتىٰ نصل إلىٰ ذلك البحث، لنرىٰ هل أنَّ مورد النظر ما ينجم عنه اليقين، أم أنَّ ما يولّد اليقين ليس مطروحاً؟ وعلى كل حال فإن طرح هذه المسألة حسنٌ وفي محلّه.

[أحد الحاضرين]: عذراً، هل أنَّ (ختَمَ الله) عكس ذلك؟ يعني هل أنَّ المسألة تُعكس في (ختَمَ الله) علىٰ قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة.

[الدكتور بهشتي]: كلا، لقد عرضتُ هذه الآيات، الآيات التي تعدُّ السمع والبصر والفؤاد من الأدوات الأساسيّة للمعرفة.

حسنٌ، بناءً علىٰ اتفاقنا، فإنني أنهي بحثي هنا، إذا كان هناك سؤال يخصّ السمع والبصر فاطرحوه، وفي اللقاء القادم سنبحث عن الفؤاد والقلب وعلاقتهما بالمعرفة.

[أحد الحاضرين: كلامه غير واضح].

[الدكتور بهشتي]: لقد قلت، الآن فعلاً.. طبعاً فإن تقسيمات المخّ والمخيخ تختلف، إنَّ مركز المعرفة يستقرّ فيها، ومركز الرؤية يستقرّ فيها،

وقد ذكرت لكم بأننا نقول بصورة كلّية إنَّ للمعرفة أقساماً لها ارتباط بذلك، وإن أقساماً منها تتعلّق بحفظ التوازن، وإنَّ لها قسماً إضافياً هو المجموعة الثالثة، وهنا نستطيع القول: إنَّ الأذن تشكّل رأس الخيط في المعرفة، وكذلك العين، وإن كان هناك شيء دخيل في الأمر، فهو لا يشكّل رأس الخيط هنا، وإنما نضعه في المجموعة الثالثة، أقسام المخّ والمخيخ. . .

[أحد الحاضرين]: الوسائل الخارجيّة كالعوينات والسمّاعات التي لم تكن في متناول البشر، كيف يمكن أن نعدّها من أدوات المعرفة البشريَّة؟

[الدكتور بهشتي]: نحن لم نعدّها من وسائل المعرفة.

[الشخص نفسه]: في التبويب قلتم إنها من أدوات. . .

[الدكتور بهشتي]: في العرض الأوّلي قسَّمنا أدوات المعرفة إلىٰ قسمين، الأدوات البدنيَّة، والأدوات غير البدنيَّة، ذكرنا هذين النوعين دون أن أريد القول إنهما دائمين وفي كل مكان.

[الشخص نفسه]: أليسا من تلك المجموعة؟

[الدكتور بهشتي]: نتيجة الأمر، هل هما من أدوات المعرفة أم لا؟

[الشخص نفسه]: نعم، هما كذلك.

[الدكتور بهشتي]: غاية الأمر أنهما ليسا عامّين.

[الشخص نفسه]: فيما يخصّ قوم عادٍ وثمود، ذكرتم أنَّ القرآن يقول أعطيناهم شيئاً لم نعطه لغيرهم، أردت أن أعرف ما هو ذلك الشيء؟

[الدكتور بهشتي]: طبعاً هذا خارج عن نصّ القرآن، ولكن الاحتمال القويّ الذي يستنبط من بعض الآيات الأخرى أن ذلك الشيء يتعلّق بمساكنهم.

[أحد الحاضرين]: الحياء والاحساس بالطهارة أو الدّنس، لأيّ واحد يرجع؟

[الدكتور بهشتي]: تقصد الوجدانيّات؟

[الشخص نفسه]: نعم.

[الدكتور بهشتي]: إنها ليست واحداً منها، ولأجل ذلك سنذكرها جميعاً ضمن القسم الثالث، لا في الحواس الداخليَّة، ولا في الحواسّ الخارجيَّة، سنضعها جميعاً في المجموعة الثالثة، ولأنَّ هذا التقسيم متعارف ويرتبط إلىٰ حدٍّ مّا بالسمع والبصر والفؤاد، فلذلك ذكرناه.

[أحد الحاضرين]: بالالتفات إلىٰ قوله تعالى: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[1] فما هي الضرورة لفصل العين والأذن واعطائهما أهميَّة أكثر؟

[الدكتور بهشتي]: نحن لم نذكر الأهميَّة، وإنّما بيَّنا نسبتهما إلىٰ غيرهما، نحن لا نريد الآن أن نطرح أهميَّة السمع والبصر. سأل الإخوة: لماذا يأتي ذكر السمع دائماً في البداية؟

[أحد الحاضرين]: فيما يخصّ الأذن والسمع والبصر قلتم إنَّ القرآن يستعمل (العين والبصر) في كلِّ مورد بمعنًى ظاهري وباطني.

[الدكتور بهشتي]: يعني العين بمعنىٰ الرؤية، والبصر أيضاً بمعنىٰ الرؤية، نحن تارة نقول: العين، وأخرىٰ: البصر. وتارة نقول: الأذن، وأخرىٰ نقول: السمع. إنَّ هذا يتعلَّق باختلاف التعبير، يعني أحياناً نذكر العضو مع قطع النظر عن وظيفته، وأخرىٰ نذكره مع لحاظ عمله، البصر يعني العين التي ترىٰ، فقط نريد أن نعلم اختلاف التعبير القرآني.

[أحد الحاضرين]: ما هو حسّ التوازن؟

[الدكتور بهشتي]: قلت إنَّ حسَّ التوازن وحسّ الألم من الحواس الداخليّة، وكذلك حسّ العطش والجوع.

[أحد الحاضرين]: عفواً، يمكن من الناحية البيولوجية أن تكون هناك فعاليَّة لأعضاء خاصة في البدن، ولأننا لا نعلم بالمكوّنات الداخلية للجسم،

---

(١) سورة الإسراء/ ٣٦ .

فإننا لا نلحظ تلك الأعضاء، يمكن من حيث علم الأحياء أن يكون هناك عضو خاصّ له علاقة عمل بفقد المواد الغذائيَّة، ونحن نحسّ بردّ فعله بصورة الجوع.

[الدكتور بهشتي]: إنَّه كذلك أساساً.

[الشخص نفسه]: ولأننا لا نعرفه نقول ليس له عضو.

[الدكتور بهشتي]: كلا، علىٰ العكس من ذلك، قلت له عضوٌ، لكنَّه غير معروف، إنه من الإحساسات الداخليَّة، أي أنه لا يقال له عين أو أذن أو أنف أو ذائقة أو جلد، إنه شيء آخر.

[الشخص نفسه]: فيكون ضمن المجموعة الثالثة؟

[الدكتور بهشتي]: كلا، إنه من المجموعة الثانية، قالوا: اضرب لنا مثالاً للاحساسات الداخليَّة، فذكرته.

[أحد الحاضرين]: بشأن اقتصار القرآن علىٰ ذكر السمع والبصر، هل يمكن إرجاع ذلك إلىٰ حيثيَّة كون القرآن هدًى للناس وهدًى للمتقين، وأنَّ هدف القرآن يتوقف تحقيقه علىٰ الاستفادة من هاتين الحاسَّتين دون بقيَّة الحواس.

[الدكتور بهشتي]: الأخ يطرح مسألة الهدف، ولكن لنرجىء ذلك إلىٰ حين وقت الكلام عن الهدف، وهذا لا يعني صرف النظر عن هذه المسألة بالمرّة، ويجب القول إنَّ الهدف إذا كان يستدعي حواسّاً أخرىٰ، فإن هذا لا يقلل من التأثير الواسع والعميق لحاسّتي السمع والبصر، وهذا المقدار كافٍ، حتىٰ لو وجدت أسباب أخرىٰ، فلا بأس في ذلك؛ لأنَّ هذه الأسباب ستأتي في محلِّها، سنبحث بعدئذٍ عن أنَّ بقيَّة الحواس تساهم في تحقيق الهدف أم لا، ولكنها مهمّة بمقدارٍ ما، إذ تقع في رقعتها كثير من المسائل التي يمكن أن توصل الانسان إلىٰ معرفة الله، ولكننا نكتفي بهذا فعلاً، إنَّ لدينا قدراً متيقناً ـ ولا تنقض اليقين بالشك ـ فإذا كان لدينا شيء

واضح ويقيني، فلا ضرورة لأن نثير سؤالاً يثير إشكالاتٍ ويكون سبباً للأخذ والردّ.

[أحد الحاضرين]: فيما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ. . .﴾

[الدكتور بهشتي]: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1].

[الشخص نفسه]: أردت القول إنه لا ضيرَ في أن نقول بذلك الترتيب، لأنَّ المسؤوليَّة ليست بذات مراتب.

[الدكتور بهشتي]: كلا، لقد كان مراده بما أنَّ المسؤوليَّة ملقاة علىٰ الكلّ، فلماذا نصرّ علىٰ مراعاة سلسلة المراتب والدرجات؟ قلت: إنَّ ذلك باعتبار المحافظة علىٰ هذا الترتيب في جميع المواطن، وعندها يفرض هذا التساؤل نفسه: لماذا لا بدّ من الحفاظ علىٰ هذا الترتيب في جميع المواطن؟ حسنٌ، يبدو أنه لم يبقَ سؤال يتعلّق بهذا الشأن، لنعد إلىٰ سؤال الأسبوع الماضي.

[أحد الحاضرين]: أردت أن أسأل عن فهرست المعارف البديهيّة، الذي دار الكلام حوله في الجلسة الماضية، وهل هو ثابت في كلِّ مقطع زمانيّ أم لا؟ وهل إنَّه يختلف تبعاً لاختلاف الأفراد، أم لا؟

[الدكتور بهشتي]: نعم، إنَّه يختلف، وهو ليس ثابتاً.

[الشخص نفسه]: هل ينتقل بمرور الزمان شيء من قائمة المعارف الاستنتاجيَّة إلىٰ قائمة المعارف البديهيَّة، أم لا؟

[الدكتور بهشتي]: سواء حصل ذلك أم لا، فإنه خارج عن دائرة بحثنا، لاحظوا، أنَّ كلَّ ما نريد طرحه، يجب أن يكون داخلاً في صلب البحث، وإلاَّ إذا أردنا أن نرجع إلىٰ الحواشي، فإنَّ بحث المعرفة وأدواتها

---

(١) سورة الاسراء/ ٣٦.

ووسائلها وأقسامها، فيه من المطالب ما يستغرق العمر بأكمله، ولكن هذا بحثاً ليس له أولويَّة بالنسبة لما نحن بصدده، إنَّ ما يهمنا هنا هو أنَّ هناك شيئاً بديهيّاً، وآخر غير بديهي.

[الشخص نفسه]: صحيح، ولكن هناك موارد تكون فيها إحدىٰ المسائل بديهيَّة جداً بالنسبة لشخص، وليست بديهيّة بالنسبة لغيره، أودّ أن أعلم هل هذه مسألة نسبيّة؟

[الدكتور بهشتي]: نعم، إنها نسبيّة بلا شكّ، والنسبيّة تختلف زماناً أيضاً، والتعاريف تختلف، حتىٰ كيفيَّة تعريف البديهي. ففي وقت عرَّفوه بأنه ما لا تتوقف معرفته علىٰ أيّ تأمّل، هنا يكون نسبيّاً، ولو قيل: البديهي هو الذي لا يشك فيه أيّ أحد علىٰ وجه الأرض، فعليه لن يكون هناك وجود لمثلِ هذا البديهي، لأنَّ الشكّاكين يشكّون في كلِّ شيء، أحياناً يقال: البديهي هو الذي لم يرد فيه شكّ معتبر، لما يطلق الشك علىٰ الوساوس، ففي هذه الصورة، ستكون البديهيّات أموراً محدودة، وباقي المعلومات تكون نظريَّة، فهذا يرتبط بتعريفكم للبديهيّ، ولكنَّ ما ينفع في بحثنا هو أن نعرّف البديهي من المعلومات بأنَّه ما لا يحتاج إدراكه إلىٰ إعمال الذهن والفكر، وأن ما يقابله من المعلومات هو ما يحتاج لذلك، هذا كافٍ لنا؛ لأننا نريد القول: إن التفكير هو أحد عوامل المعرفة، وأنه عبارة عن الشروع من نقطة للحصول منها علىٰ شيء، والفهرست الذي سجّلناه لم نُرد به الاستقراء، وإنما أردنا أن نعرض نماذج وأمثلة، طبعاً مثل هذه الأسئلة لا بأس به خارج الدرس، ما أردت تأكيده أنه في داخل الجلسة يجب أن نحرص مهما أمكن علىٰ تجنّب هذه الأسئلة.

حسنٌ، لقد سبق أن قرَّرنا أنَّ بإمكان الإخوة أن يطرحوا ما حصلوا عليه من المعلومات أثناء المراجعة في هذه الجلسة، ولكن يبدو أنَّ أحداً لم يجلب شيئاً بهذا الخصوص. والآن، سيدور البحث في الجلسة الآتية عن

القلب والفؤاد، وبوسعكم متابعة الآيات المتعلّقة بذلك، وأن تسجّلوا ملاحظات علىٰ ما سوف أطرحه عليكم، لتشاركوا في بلورة موضوع البحث.

في اللّغة الفارسيّة وغيرها من اللّغات، تستعمل تراكيب كثيرة فيما يتعلّق بالمعرفة، نقول مثلاً: القلب المضيء، القلب الأسود، القلب الحيّ، القلب الميّت، وأمثال ذلك. وهذا موضوع يناسب بحثنا، وقد استخرجت كثيراً من هذه التراكيب وسجّلتها لديَّ، بوسع الإخوة في هذا الأسبوع أن يسجّلوا جميع ما يدور في ذهنهم، ويرتّبوه علىٰ الحروف الهجائية، وحينما أقرأ عليهم ما لديَّ، يضربون خطاً تحت ما سجّلوه، ثمَّ نقوم بإلحاق الزائد إلىٰ هذه المجموعة. لقد جمعت حوالي ثلاثين تعبيراً، حتىٰ التراكيب، وأحياناً الأشعار، مثل: مالك القلب، بلا قلب، وما إلىٰ ذلك من التعابير التي لها ارتباط شديد ببحثنا، ويستطيع الإخوة أن يفعلوا ذلك أيضاً، ولكننا لا نريد أن يصبح لدينا ديوان من الشعر.

[أحد الحاضرين]: عفواً أستاذ، إنَّ لديَّ سؤالاً أظنّ أنَّه يرتبط بهذا البحث. هذه المسائل الواضحة في عصرنا للفلاسفة وأمثالهم، كمسألة أدوات المعرفة، هل كانت واضحة أيضاً للنبي ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام؟

[الدكتور بهشتي]: أيّها تعني؟ تلك الخارجة عن دائرة بحثنا؟

[الشخص نفسه]: لا فرق، سواء كانت تلك، أو هذه التي تذكرها.

[الدكتور بهشتي]: ما قلناه لحدّ الآن، ليس وقفاً علىٰ الفلاسفة، نحن لم نتحدث فلسفياً، إنني منذ البداية أوردت الكلمات العرفيَّة، وفي هذه الليالي الثلاث أو الأربع كنّا نتحدث بلا تكلّف، يعني لأجل فهم الموضوعات، ولم أحتج لأيّ ذوق فلسفيّ، هل رأيتم ضرورة لذلك، هل كانت هناك حاجة لعلم الفلسفة؟

[الشخص نفسه]: قصدي إدراكهم لهذه المسائل، مثلاً هل كانوا يعلمون أنَّ تأثير حاسَّة الذوق في المعرفة أقلّ من تأثير العين؟

[الدكتور بهشتي]: هذا ما يعلمه كل إنسان، إنه من البديهيّات، إنّ مقام النبي والإمام محفوظ، إلاّ أنَّ محمداً ﷺ قبل النبوّة، وعليّاً عليه السلام قبل الإمامة، يعلمان هذه المسائل، معلوم أنَّ تأثير البصر أكبر بكثير، هذا واضح جداً.

[أحد الحاضرين]: هل أنَّ درجة الفكر والوعي لدىٰ الأفراد تؤثّر في درجة اعتبار الحواس؟

[الدكتور بهشتي]: نعم، إنها مؤثّرة في الاستفادة من الحواس.

[الشخص نفسه]: إلىٰ أيّ حدّ؟

[الدكتور بهشتي]: من المسلَّم به أنَّ حدّ ذلك متغيّر.

الجلسة السادسة

انتهينا إلىٰ مبحث أدوات المعرفة في القرآن الكريم، وعلمنا إلىٰ حدّ مّا بوسائل إدراكنا لما نملكه من معلومات عامّة، ثم انتقلنا إلىٰ البحث عمّا يعتبره القرآن أدواتٍ للمعرفة، وتبيّن أنَّه: السمع والبصر والفؤاد. وأكملنا البحث عن السمع والبصر، وبقي الكلام عن القلب والفؤاد، ومن جملة الآيات التي ذكرتها بهذا الشأن، قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[١] وبمناسبة طرح البحث عن الفؤاد وعلاقته بالمعرفة، طلبنا من الإخوة أن يتتبعوا ما يرتبط بالقلب في اللغة والأدب الفارسي، وقد قمت أنا بالمتابعة هنا أيضاً، ولذا فقبل أن نتوجّه إلىٰ البحث عن الفؤاد والقلب في القرآن الكريم، لا بدّ من جولة بشأن ما يتعلّق بالقلب في ثقافتنا العامة، لكي نرد البحث القرآني من أفق أوسع.

في معاجم اللغة الفارسيَّة المفصّلة والموسّعة مثل: معجم معين، ومعجم دهخدا ـ وهو عبارة عن دائرة معارف ـ نجد لحسن الحظ كثيراً ممّا يرتبط بما نريد عمله، ومقداراً من الألفاظ والتراكيب المرتّبة ترتيباً الفبائيّاً، وقد استخرجت عدداً من هذه التركيبات من معجم معين، وأضفت إليها ما ليس فيه، وإن كان لديكم تعابير أخرىٰ سنضيفها إلىٰ هذا الفهرست.

التعابير المرتبطة بكلمة (القلب):

لاحظوا أنَّ لدينا في اللغة الفارسيّة تركيبات بادئة ومتوسّطة ولاحقة

---

(١) سورة النحل/ ٧٨.

لكلمة (القلب) وهي تستطيع إلىٰ حدٍّ مّا أن تعرّفنا برابطة القلب بالمعرفة، مثل: معشوق القلب، مهدّىء القلب، ظالم القلب، محزون القلب، مسلّي القلب، مضطرب القلب، محطّم القلب، مُفَرِّح القلب، مغلق القلب، شجاع القلب، جذّاب القلب، بارد القلب، أسود القلب، محروق القلب، مأخوذ القلب.

تلاحظون أنَّ هذه عبارات متعارفة جداً، ونحن نكرّرها نهاراً وليلاً، وفي جميعها نستعمل كلمة القلب.

الدمـاغ:

من هنا، أظن أن الإخوة بدأوا يدركون لماذا أوردنا هذه القائمة من الكلمات قبل أن ندلف إلىٰ البحث القرآني، ولكي يكون إدراككم دقيقاً أسألكم ما هي التركيبات الموجودة في اللّغة الفارسيّة ممّا له ارتباط بالدماغ أو المخ؟ لدينا: ذو مخّ، عديم المخّ، وماذا غير ذلك؟ تقريباً لا شيء! تلاحظون لا أثر للمخّ في التراكيب والتعبيرات، بالقياس إلىٰ كلِّ تلك العبارات الواردة بشأن القلب وتأثيره الفعّال في اللّغة الفارسيّة، يمكن أن يقال: إنَّ الناس ليس لهم اطّلاع زائد علىٰ المخّ، ولكن ماذا بشأن الدماغ؟ الدماغ كلمة عربيّة ومستعملة بمعنىٰ المخ منذ قديم الزمان، يقال: الدماغ الفاشل.

[أحد الحاضرين]: بلا دماغ.

[الدكتور بهشتي]: ليس لدينا كلمة (بلا دماغ).

[أحد الحاضرين]: الدماغ المزكوم.

[الدكتور بهشتي]: ليس لدينا دماغ مزكوم، لقد استعملت الدماغ بمعنىٰ الأنف، ومرادنا من الدماغ هو المخّ[1]، ثم ماذا؟ هذه جميعها

---

(١) يلاحظ أن كلمة (دماغ) في اللغة الفارسيّة مشترك لفظي بين معنيين هما: المخّ والأنف.

تراكيب تخصّ القلب، ولكن ماذا لدينا بشأن الدماغ في المعجم الفارسي.

يمكن القول: إنَّ هذه التراكيب في الفارسيَّة المعاصرة يمكن أن تكون مستلهمة من القرآن، والجواب على ذلك، أولاً: إنَّ كثيراً منها لا يوجد في القرآن الكريم، وثانياً: هل أنَّ هذه التراكيب مرتبطة باللّغة الفارسيّة المعاصرة للقرآن، أو مرتبطة باللّغة الفارسيّة فقط؟ لو رجعتم إلى كلمة (heart) في الانجليزية، وكلمة (Herz) في الألمانية، وما يماثلها في اللغات الأوروبيّة، التي لا علاقة لها بالاسلام أو القرآن، ولا بثقافتنا، لوجدتم الأمر على هذا النحو أيضاً، فهناك تراكيب كثيرة مشابهة لما هو موجود في الفارسيّة، نحو heart وHerz المعادلان لكلمة (دل) في اللغة الفارسيّة وكلمة قلب وفؤاد في اللغة العربيّة، يقال مثلاً: good heart، أي: القلب الطيّب.

وعليه فالملاحظ أنَّ البشر (لا المسلمون ولا الايرانيّون فقط) لهم تأثيرات مختلفة عاطفيّة ونفسيّة، ترتبط بهم بوصفهم بشراً، تؤثر في ثقافتهم، لها علاقة بالقلب، هذه مسألة يجب أن تفهم، لأنها مسألة جدّية وليست هزليَّة، ليست المسألة أن نسأل لماذا ذكر القرآن السمع والبصر والفؤاد، ولم يذكر المخّ والدماغ، بل المسألة أوسع من ذلك، وسأتكلم عن ذلك فيما بعد، وأودّ أن يسجّل الإخوة ما يخطر في أذهانهم من النقاط المرتبطة بذلك، ليسألوا عنها بعدئذٍ.

لدينا تراكيب أخرى سأذكرها: القلب المستنير، القلب المظلم، القلب الواعي[1]، القلب القاسي، القلب الشجاع، القلب الجبان، القلب القوي، القلب الضعيف.

تلاحظون مقدار تأثير القلب في معجمنا اللغوي، من الضياء والظلمة والقلب الواعي وأمثالها ممّا يرتبط بالقلب من الخصال والعواطف والملكات.

---

(١) نستطيع أن نقول أيضاً القلب الخامل، ولم أذكرها لأنها ليست رائجة (البهشتي).

وعبارات أخرىٰ مثل: أماني القلب (أمل قلوب الشعب الايراني ـ العبارة التي تكتب خلف الحافلات) سرّ القلب (بحث له بأسرار قلبي) صفاء القلب، يقول شهريار: لو عرف القلب الله... تلاحظون أنَّ القلب مطروح هنا له رابطة بالمعرفة وبمعرفة الله: مرض القلب، القلب اليائس، القلب الساذج، القلب الحاقد، القلب يهدي إلىٰ القلب، سقط قلبي أو هبط قلبي ـ سأعتمد علىٰ هبوط القلب هذا كثيراً في المستقبل ـ الايمان القلبي، الاعتقاد القلبي، الاطمئنان القلبي، القلب الطيّب، القلب الخبيث، هذه تعابير تستعمل مع القلب عادة. من أعماق القلب، قول شيء ما في القلب أو قلبياً حضور القلب (في الصلاة والإحساس بالحضور أمام أحد) هذه تعبيرات وتراكيب تبيِّن الآثار المتنوّعة للقلب، ولها أيضاً ما يماثلها بالنسبة للمخّ والدماغ، في اللّغة الفارسيّة والعربيَّة والصينيّة والهنديّة والأوروبيّة واليونانيّة، وفي المعاجم العلمية، وثقافة عصر النهضة.

تأثير القلب:

حسنٌ، ماذا نفهم من هذا؟ نفهم منه أنَّ للقلب تأثيراً فعّالاً وبناءً في حياة الإنسان، فكل شيء مرتبط بالقلب. أظن الآن أن المسألة قد حلّت إلىٰ حدّ كبير، قبل أن نقرأ آيات القرآن، أي: لماذا ذكر القلب والفؤاد في القرآن بهذه الكثرة، ولم يأتِ ذكر للدماغ وللمخّ وأمثالهما؟ إنَّ القرآن يريد أن يتحدَّث باللّغة المتعارفة لدىٰ الناس، ولو أنه أراد أن يوجد نقطة تغيير، ويتحدث بنحوٍ مخالف للعرف اللّغوي، فلا بدَّ لذلك من سبب، هل أنَّ إعطاءَ كلّ هذا التأثير للقلب ناشيء من عدم اطّلاع الناس علىٰ تأثير الدماغ والمخّ؟ هل أنهم لا يعلمون بأنَّ الانسان له دماغ ومخّ ورأس، وأنَّ هذا المخّ والرأس له تأثير في الحياة؟ إذا كان الأمر كذلك فإنني أسأل: لماذا وكيف كان الناس جاهلين بتأثير المخّ؟ وإلى متىٰ كانوا جاهلين؟ وأين كانوا جاهلين بذلك؟ إنَّ هذا إمّا أن يكون راجعاً إلىٰ ميتافيزيقيّة فكر الناس، أي:

لأنهم في العصور الماضية كانوا يفكرون بطريقة ميتافيزيقيّة، وكان التفاتهم إلىٰ المادة والطبيعة قليلاً، لذلك أعطوا القلبَ كلَّ هذا التأثير . . . حسنٌ، انظروا إلىٰ الثقافات المادِّيَّة في القرنين الأخيرين، وفي اللغة الأدبيّة للمجتمعات التي هي مادّيَّة بالكامل في هذين القرنين الأخيرين، فكيف تجدون الوضع؟ مثلاً في الأدب السوڤياتي أو الصيني، هل وضعوا الآن في جميع التراكيب المتقدِّمة كلمة الدماغ مكان كلمة القلب؟ أو وضعوا مكانها كلمة المخّ؟ بل إننا في السنوات المتأخّرة نجد في الثقافة الغربية استعمالاً لكلمة الدماغ هي: غسل الدماغ (brain wash) أو مصطلح: هجرة الأدمغة (brain drain) الذي سرىٰ إلىٰ اللّغة الفارسيّة، وأصل هذا التعبير قلَّما نجده في اللغات والمطبوعات الأوروبيّة، فهذه اصطلاحات حديثة، وإلاّ فإنَّ دور القلب في أدبيّات اللّغات الأوروبيّة لا تزال قائمة، أي أنَّ الثقافة الماديّة والأدب المادي والفكر المادّي وغير الميتافيزيقي، التفكير الفيزيائي والطبيعي والناتوراليستي لم يحدث تغييراً في هذا المجال، فما هي المسألة إذن؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال ورؤية ما هي المسألة وعرض بعض الآيات القرآنيَّة، أريد من الإخوة ـ إن كانوا جمعوا شيئاً من التراكيب التي تخصّ هذا البحث ـ وإذا كان لديهم تعبير إضافي ـ أن يعرضوا ما لديهم لأدوّنه ويدوّنه الإخوة الآخرون، لكي نكمل ما لدينا من الألفاظ هنا، كما فعلنا بشأن ألفاظ المعرفة التي أكملناها بتعاونكم.

[أحد الحاضرين]: القلب المتحمّس.

[الدكتور بهشتي]: طبعاً لدينا القلب القلق، ولكن القلب المتحمّس هي عبارة حسنة، يمكنكم إضافتها.

[أحد الحاضرين]: القلب الأعمىٰ.

[الدكتور بهشتي]: نعم.

[أحد الحاضرين]: القلب المضطرب.

[الدكتور بهشتي]: القلب المضطرب، نعم.

[أحد الحاضرين]: القلب المظلم.

[الدكتور بهشتي]: نعم، القلب المظلم.

[أحد الحاضرين]: القلب الغافل.

[الدكتور بهشتي]: أيّها القلب الغافل، هذا آخر ما كان يجب عليك قوله.

هناك تعبير آخر نسيت أن أذكره، وهو: حسرة القلب، مثلاً نقول: مات فلان من حسرة القلب.

[أحد الحاضرين]: ما يأخذ القلب.

[الدكتور بهشتي]: يعني القلب المأخوذ.

[الشخص نفسه]: نعم.

[الدكتور بهشتي]: القلب المأخوذ أفضل من أخذ القلب، اكتبوه.

[بعض الحاضرين: كلامه غير واضح].

[الدكتور بهشتي]: لقد رأيت ذلك، ولكنني لم أكتبه، قلت لكم الأشياء التي ليست مألوفة جداً لم أكتبها، والآن أكرّر أيضاً، إنني أصرّ علىٰ اننا في هذا البحث والتحقيق والتحليل يجب أن نتعامل مع الألفاظ العامة التي نحصل عليها بسهولة، ولا نذهب أبعد من تلك الدائرة، أما إذا كان هناك ما هو أعمق فلا بأس بذلك، ولكننا ينبغي أن لا نتوسّع بلا فائدة.

[أحد الحاضرين]: الصدر الملتهب.

[الدكتور بهشتي]: إلهي هب لنا صدراً ملتهباً، سنتكلّم عن الصدر فيما بعد، كلامنا فعلاً حول القلب والفؤاد.

[أحد الحاضرين]: القلب الأصيل.

[الدكتور بهشتي]: ليس متعارفاً جداً.

[أحد الحاضرين]: القلب الطيّب.

[الدكتور بهشتي]: ذكرناه سابقاً، ما ذكرناه كان مرتباً أبجدياً، فانظر إلىٰ ذلك الفهرس ثم تكلَّم، لئلاّ يذكر إن كان مكرراً.

[أحد الحاضرين]: واعي القلب.

[الدكتور بهشتي]: أو القلب الواعي، حسنٌ، أو القلب الغافل.

[أحد الحاضرين]: القلب الهَرِم.

[الدكتور بهشتي]: أهو متعارف؟ أو القلب الشاب؟

[أحد الحاضرين]: نعم.

[الدكتور بهشتي]: إذا كان متعارفاً، فاكتبوه.

[أحد الحاضرين]: القلب المعتصر (يضحك الحاضرون).

[الدكتور بهشتي]: لا تشتبهوا، لقد عنىٰ: القلب العاشق، هذا مراده، لكنه غير متعارف، هذا موجود في المعجم، ولكنني لم أكتبه، ولكن: أنيس القلب هو من التعابير الشائعة جداً.

[أحد الحاضرين]: رائق للقلب، بمعنىٰ مقبول.

[الدكتور بهشتي]: المستعمل هو: حبيب القلب، أي: محبوب، قولوا ما هو متعارف.

[أحد الحاضرين]: لدينا اصطلاح ليس موجوداً في المعجم، علىٰ الرغم من أنه شائع، وهو: القلب النشط.

[الدكتور بهشتي]: بالمناسبة هذا حسن، اكتبوه، يعني: القلب الفاعل الحيوي، في مقابل: القلب الميّت.

[أحد الحاضرين]: القلب الساذج.

[الدكتور بهشتي]: نعم، حسنٌ.

[أحد الحاضرين]: القلب المحترق.

[الدكتور بهشتي]: تعالوا يا ذوي القلوب المحترقة، والتفّوا حولي، حسنٌ.

[أحد الحاضرين]: القلب البسيط.

[الدكتور بهشتي]: نعم، صحيح، يعني سريع التصديق.

[أحد الحاضرين]: القلب المتعاطف.

[الدكتور بهشتي]: حسنٌ جداً.

[أحد الحاضرين]: القلب المنساق للعواطف.

[الدكتور بهشتي]: نعم، اكتبوه.

[أحد الحاضرين]: القلب المفجوع.

[الدكتور بهشتي]: نعم، اكتبوا، يكفي لقبيلة مفجوع واحد.

[أحد الحاضرين]: القلب المتأوّه.

[الدكتور بهشتي]: آهة القلب، لا بأس، تأوّه من صميم قلبه.

[أحد الحاضرين]: القلب المفتوح.

[الدكتور بهشتي]: يعني القلب المأخوذ.

حسنٌ، نكتفي بهذا، لا نريد أن نتوقف هنا طويلاً، لاحظوا أنَّ لهذه العبارات تأثيراتٍ واسعة في اللغة الفارسيّة بالنسبة للقلب، والآن من أجل أن نرىٰ هذا القلب...[1].

---

(١) في هذا الموضع من الشريط سقط كلام.

تفسير معنىٰ القلب:

ما هو المراد من القلب؟ هل مركز الدورة الدموية، إنَّ بعض العبارات السابقة تشير لهذا المعنى، كقولهم هبط قلبي، مرادهم هذا القلب الذي يضخّ الدم، ويعنون تلك الحالة التي تعتري الانسان وتتغيّر فيها الدورة الدموية، وهو شبيه بعبارة القلب الساخن والقلب البارد، نقول مثلاً: الانسان الفلاني عطوف، أو حار الدم، وغير العطوف، بارد الدم، أي المسألة مرتبطة ارتباطاً كاملاً بالدم.

وعليه فإن البحث بشأن القلب أو الفؤاد، يظهرنا علىٰ معانٍ كثيرة أخرىٰ، والقول بأنَّ هذه المعاني ليست مرتبطة بهذا العضو الخاص، هو قول لا يروق لي، (ولأننا نبحث ذلك في إطار اللغة الفارسيَّة، فإنني مضطرّ لمراجعة معجم فارسي) ففي معجم معين حينما يستعرض معاني القلب، يقول: (١ـ القلب هو العضو الموجود داخل البدن، صنوبري الشكل، وتؤدّي ضرباته إلىٰ دوران الدم ٢ـ البطن ٣ـ الخاطر والضمير [نير القلب: نير الضمير، مطمئن القلب: مطمئن الضمير] ٤ـ الروح والنفس ٥ـ المخّ ٦ـ قلب الشجرة وأمثالها [نقول مثلاً: شقَّ قلبها أو شقَّ قلبه] ٧ـ وسط الشيء أو داخله، ٨ـ المركز [في قلب الهيكلية، أي: في مركزها] ٩ـ الجرأة والشهامة [جريء القلب قويّ القلب] ١٠ـ اللّطف الربَّاني والروحاني أو المنحة الإلهية، أو الروح التي هي حقيقة الانسان، وهي القوَّة المدركة العالمة العارفة والعاشقة، تلك اصطلاحات صوفية، وهذا ما قاله صاحب المعجم أيضاً، وكذلك هما المعنيان الحادي عشر والثاني عشر ١١ـ محل تفصيل المعاني أو النفس الناطقة، ١٢ـ مخزن أسرار الله).

وأورد أيضاً تعبيرات أخرىٰ، نحو: قلب الليل، أي منتصفه، وقلب السماء، أي: وسطها، ومن هذا القبيل تركيبات كثيرة[1].

---

(١) كل ما ورد بين هذين القوسين [ ] هو من توضيحات الدكتور بهشتي.

تلاحظون أنَّ هذا المعجم ذكر اثني عشر معنًى للقلب، والسؤال: من أين أتت هذه المعاني؟ وهل أنَّ المعاني الأحد عشر الأخيرة كلّها مأخوذة من المعنىٰ الأوّل؟ وقولنا: القلب بمعنىٰ وسط الشيء، هل هو مأخوذ من كون القلب بمعناه الأوّل موجود في وسط بدن الإنسان؟ أو أنَّه وسط ومركز الدورة الدمويَّة، وكذلك الأمر بالنسبة للبطن، فهل سبب تسميته بالقلب راجع إلىٰ قربه من القلب؟ وهل عمَّمنا كلمة قلب لهذا الاعتبار، أم أنَّ القلب يعني كل وسط؟ وحينما نقول هو كامن في القلب، هل نعني أنه كامِنٌ في بطن الموضوع؟ وهكذا استعمل لفظ القلب بالتدريج بمعنىٰ البطن؟ ولكن ماذا بشأن الخاطر والضمير والروح والنفس؟ ألم تكن باعتبار هذه التراكيب؟ يعني لدينا القلب المفجوع والخاطر الكسير، فاقترن القلب بالخاطر بنحوٍ تدريجي، ولكن ماذا بشأن استعمال القلب بمعنى المخّ؟ إنني لا أفهم مستند استعمال تعبير القلب عن المخّ، ولم أستطع لحدّ الآن أن أعثر علىٰ تركيب أو تعبير استعمل فيه القلب بمعنىٰ المخّ، ولكن لا بدَّ أن يكون هناك سند يعلمه صاحب معجم مُعين، ولكنه لم يسجّله، وربّما يوجد هذا السند في معجم دهخدا، لو أنَّ أحد الإخوة راجع ذلك وأخبرنا في الأسبوع القادم، فإنني سأكون مسروراً. أما استعمال لفظ القلب لوسط الشجرة فهو المعنىٰ الذي ذكر آنفاً.

ماذا بشأن الجرأة والشهامة؟ هل القلب بمعنىٰ الجرأة والشهامة؟ هل معنىٰ القلب المفعم هو القلب الجريء، وهل هذا مأخوذ من القلب لا من شيء زائد عليه؟

حسنٌ، فلنتّجه إلىٰ المعاني الثلاث للمتصوّفة: (اللطف الرباني والروحاني، وهي حقيقة الانسان المدرك والعالم والعارف وعاشق الله) هل هذا معنًى جديد للقلب، أم أنه مرتبط بالمعنى الأوَّل، أي: لأنَّ العشق والعرفان والادراك لها علاقة بهذا القلب الصنوبري، استعمل فيه لفظ القلب، وأنه ليس معنًى جديداً بالكامل لهذا اللفظ، أم أنه استعمل من باب

تشبيه المخ والوسط به؟ وكذلك مسألة (محل تفصيل المعاني، والنفس الناطقة، ومخزن أسرار الله) من الأمور التي لا نظنّ أنَّ القلب استعمل فيها استقلالاً.

الذي أراه أن القلب يطلق علىٰ هذا الشكل الصنوبري، ولكنَّ البشر لأسباب ووجوه معيَّنة لا بد من معرفتها استعملوه في معانٍ أخرىٰ من الأعمال والعواطف الانسانيّة، كالعشق والارادة والحبّ والغضب والتصميم والتردّد، بسبب العلاقة بين القلب وبين هذه الأمور، وأُسندت كل هذه التأثيرات إلىٰ القلب في الأدبيّات الانسانيّة، وليس الأمر علىٰ ما يقال من أنَّ القلب كان يستعمل أوّلاً في معنًى آخر، ثم ظهرت التركيبات الأخرىٰ، بل إنَّ معنىٰ القلب هو ما ذكرناه، وهذه التركيبات الأولىٰ قد استعملت القلب بمعناه هذا، أي بمعنىٰ هذا الجسم الصنوبري الشكل، ثم وجدت المعاني الجديدة والمجازية في ثقافة البشر ولغاتهم، هذا الرأي قويّ في نظري، وقبل أن ننتقل إلىٰ القرآن، أودّ أن أتباحث مع الإخوة بشأن بحث عام، وهو هل نؤيد صحَّة هذا الرأي، ولنتباحث فيه لكي نستطيع حينما نرد القرآن الكريم أن نقرأ الآيات ونجتازها بسهولة.

الإدراكات المؤثرة والإدراكات غير المؤثرة في عمل الإنسان:

بحثنا الأصلي عن القلب والمعرفة وعلاقة المعرفة بالقلب، إنَّ البشر يتعاملون مع نوعين من المعارف والمدركات، إنَّ الأفكار والعلوم والمعارف البشريَّة لجهة ما تقسّم أساساً إلىٰ نوعين وقسمين، معلومات جافَّة الجانب من سيرة الإنسان، أي المعلومات التي ليس لها تأثير في حياة الانسان وسلوكه ومصيره وعمله، لا بصورة مباشرة، ولا بصورة غير مباشرة، ولا شبه مباشرة، فسواء كان الماء مركَّباً من أوكسجين وهيدروجين أم لم يكن كذلك، فإنَّ هذا لا يؤثّر في حياة الفلاّح، فلو أنَّك ذهبت إلىٰ إحدىٰ القرىٰ، ورأيت مزارعاً مشغولاً بسقي حقله، فناديته قائلاً: تعال هنا، إنَّ

لديَّ خبراً وأمراً مهماً أريد أن تعرفه، وهو أنَّ هذا الماء الذي تسقي به زرعك إن كل ذرة منه مركَّبة من ذرَّات الأوكسجين والهيدروجين. فإنه سيقول لك: اذهب لشأنك، دعني أنهي عملي وأخلد إلىٰ الراحة. ولكنَّ هذه المسألة للأثر العملي بالنسبة للفيزيائي، ولذلك الذي يريد إنتاج المطر الصناعي، وأما في دائرة إدراك الفلاّح فإنها ليست بذات تأثير في روحه ونفسه وفي ردود أفعاله، فليس لها أيَّ قيمة عملية بالنسبة له، وليس لها قيمة في نظره. ولكن لو أنَّك ناديته وأبلغته بأنهم سيغلقون الماء الآن، فإنَّ ردّ فعله سيكون فوريّاً، ويعدو حاملاً مسحاته ليفتح مجرىٰ الماء، فهذه المعلومة لها تأثير ورد فعل عمليّ في سلوكه.

وإذن فمعلومات الانسان وإدراكه علىٰ قسمين أساسيين: معارف ليس لها تأثير مباشر في حياة وسلوك فرد معيّن أو جماعة خاصة، ومعارف لها هذا التأثير.

لاحظوا أنَّ المعرفة ـ التي هي محور بحثنا ـ يمكن أن تكون تارة بصورة محور وعامل مؤثر جداً في سلوك الانسان، وتارة أخرىٰ تكون أمراً مستقلاً عن سلوكه، وفي كل مورد يكون للمعرفة والعلم والادراك أثرٌ في سلوك الانسان وردود أفعاله، فإنَّ هناك عضواً من أعضاء الانسان يتغيّر وضعه وحالته بسبب ذلك أسرع وأكثر من جميع الأعضاء الأخرىٰ، وهو هذا القلب الذي هو مركز ضخّ الدم. حينما تكون في حال دراسة شيء معيّن، وتتوصل إلىٰ اتخاذ قرار بشأنه، تجد أنَّ هذا التصميم الذي اتّخذته، قد ترك أثره في خفقان القلب وحركة الدم هذا الأمر يتعلق بأعصاب السيمپاتيك والباراسيمپاتيك، لكن علىٰ أيّ حال إن ما يحسّ به البشر هو الأثر الذي يقع علىٰ حركة دمه وقلبه. قد ينقلون لك خبراً يخيفك، إنَّ أوّل تأثير لهذا الخوف يكون علىٰ القلب والدورة الدموية، وقد ينقل لك خبر مُفرِح، فتشعر بالسرور، وهذا السرور يترك أثره على قلبك، فعندما يقول أحدهم: إن قلبي حزين إلىٰ درجة لا يرغب حتىٰ بزيارة الحديقة. وهذا

ليس لأنه يريد بالقلب معنًى آخر، إنه يحسّ في الواقع أنَّ قلبه هذا مأخوذ، ويرىٰ أنَّ دورة دمّه ودقّات قلبه ليست علىٰ ما يرام، وبعد أن يتجاوز الأزمة يقول: لقد اطمأنَّ قلبي. إنه يحسّ واقعاً بأنَّ هذا القلب المعهود قد هدأ، وأنَّ ما كان يعترض مجرىٰ دمه قد زال، هذا هو الإحساس الواقعي للبشر، وليس هذا مخصوصاً باليوم والأمس وغدٍ، بل هو واقع دائم، وليس مرتبطاً بجهل البشر، بل هو مرتبط بأوّل مدركات الانسان فيما يخصّ قلبه. وعليه فإن أمثال هذه العبارات: القلب المطمئن، القلب المأخوذ، القلب المتعاطف وأمثال ذلك، هي عبارات ترتبط بهذا العضو الذي هو القلب، وبالآثار العمليّة التي تتركها في الانسان مدركاته وعوامل معارفه. إنَّ العلاقة بين القلب والمعلومات، تشبه ما تراه داخل السيارة التي تركبها من أجهزة تخبرك بما يجري فيها، من ارتفاع حرارة ماكنتها أو انخفاضها، والحال أنَّ الجهاز لم يسخن ولم يبرد، وإنما الذي طرأ عليه ذلك هو ماكنة السيارة.

وبالنسبة للبشر، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، فإنَّ القلب له دور فعَّال وحسَّاس ودقيق في الإشارة إلىٰ هذه الأمور، أي أنَّ القلب بوسعه أن يكون من عوامل المعرفة. إنَّ المعلومة التي حصلنا عليها، تترك أثرها في مجرىٰ الدم، ومن ثمَّ تؤثّر في القلب تأثيراً حسَّاساً، ونحن نتّخذ من هذا الأثر الحسَّاس وسيلة لمعرفة حالنا، ولذلك يقول الانسان: إنني حزين، قلبي منفطر. أي: إنني أشعر بالحزن بعلامته التي هي انفطار القلب، إنَّ هذه المسألة من الوضوح بمكان إلىٰ درجة أننا نسمّي الأمور غير الحسّيَّة بآثارها المحسوسة لنا.

وعليه فإنَّ للقلب دور كامل فيما يخصّ المعرفة، لا أريد القول بأنّه عضو للمعرفة كالعين والأذن، إنه ليس عضواً تبدأ منه المعرفة، هناك فرق بين القلب، وبين العين والأذن، وهو: انك حينما تبصر الشيء، فإنَّ الضوء يصدر أوّلاً ثم ينتقل إلىٰ عينك، إلىٰ الشبكيّة والقرنيّة و. . . ويترك أثره فيها، وبهذا تتمّ رؤيتك للشيء، أي أنه من خلال العلاقة الدقيقة والتحليل

العلمي الدقيق فإن الرؤية ترتبط معك ابتداءً من خلال جهاز النظر. وكذلك السمع، فإنه يبدأ من تأثير الأمواج الصوتيّة علىٰ طبلة الأذن، ثم يحصل العلم بالصوت، وأما القلب فإننا لا نريد القول إنه كذلك، ما نريد قوله هو أنَّ له تأثيراً محسوساً وملموساً وواسعاً في المعرفة والادراك، بنحو يمكن معه أن تكون كلّ هذه التعبيرات مأخوذة حقاً من القلب بمعنىٰ هذا العضو الذي يضخّ الدم.

حسنٌ، بناءً علىٰ ما تقدَّم، إذا أردنا أن نضع اصبعنا ـ من وجهة نظر ثقافة معينة أو مذهب فكريّ معيّن ـ علىٰ ما تصدر عنه المدركات والمعارف المؤثرة في حياة الانسان وسلوكه العملي، فهل يمكن لتلك المذاهب الفكريَّة أن تسمّى المخّ؟

إنَّ المخّ والدماغ هما من وسائل المعرفة، إنهما مشابهان للعين والأذن، علىٰ الرغم من الفارق بينهما، ولكنهما أشبه شيء بهما، لو أنَّ قسماً من المخّ تعطّل عن العمل، فإنَّ ذلك سيؤدّي إلىٰ ذهاب قسم من معلومات الانسان، فالمخ والدماغ هما من وسائل المعرفة، ولكنَّ السؤال إذا أردنا أن نضع أصبعنا علىٰ المعرفة والإدراك بجملة واحدة وبيان موجز وفلسفة محددة، فما هي علاقتهما بسلوك الإنسان، لنقول إن موضوع بحثنا هو هذا النوع من المعرفة والإدراك.

فقد ذكرنا أنَّ المدركات علىٰ نوعين أساسيين، نوع يرتبط بسلوك الانسان، ونوع ليس له ارتباط به. فلو أراد مذهب فكري أو فلسفة أن يعيّن المدركات المؤثّرة في سلوك الانسان، فهل يمكنه أن يذكر حينئذٍ أدوات الإدراك مثل: المخّ والدماغ؟ كلا؛ لأنَّ المخّ هو من الأدوات المشتركة بين المدركات التي لها تأثير في سلوك الانسان وعمله، وبين المدركات التي لا تأثير لها في ذلك. لو كان البحث حول التأثير الأساسي للمخّ، كما لو طرح البحث حول مسألة معرفة المخّ مثلاً، لا من باب المعرفة المؤثرة في العمل، وأما إذا كان البحث عن المعرفة المؤثّرة في السلوك، وأردنا الإتيان

بكلمة تتضمن كل تلك المعارف، فأيّة كلمة نختار؟ أعتقد أننا سنختار كلمة (القلب) التي يعهدها جميع البشر ويفهمون معناها فهماً كاملاً، فإذا قلنا: إن الله أعطاك السمع والبصر والقلب (يعني القلب الذي له علاقة بجميع المدركات التي تؤدّي إلىٰ ردود فعل في جميع تصرّفات الانسان) فمرادنا أنَّ الله منحك أداة المعرفة التي تبني سلوكك وعملك وتبني ذاتك، إذا أردنا أن نربط المعرفة والمدركات المؤثّرة في السلوك والعمل بأحد أعضاء البدن، وأردنا أن نفصل مثل هذه المدركات عن تلك التي لا أثر لها في السلوك، فإنني أعتقد أنَّ الأولى لا يمكن ربطها إلاً بعضو واحد، هو القلب.

القرآن هو كتاب عمل:

بناءً عليه، فالقلب هو أداة المعرفة، أداة يمكن إيرادها في نطاق البحث عن المعارف التي لها تأثير في العمل، وله خصيصة أنَّ هذه المدركات لها ارتباط خاص به، وليس هناك أيّ عضو من الأعضاء المشهودة والمحسوسة التي نعرفها يمكنه أن ينوب عن القلب، وهذا ما تلمسونه في عصرنا الحاضر، في الثقافة العامة لأهل الأرض، علىٰ مختلف مذاهبهم الفكريّة، فحينما يريد الكاتب أو الخطيب أو المنظِّر أن يتكلم عن المعارف البنّاءَة في حياة الإنسان، فإنَّه لا بدَّ أنه سيلجأ إلىٰ ذكر القلب والتعابير المتعلّقة به. وعليه فإذا ذكر القلب والفؤاد إلىٰ جانب السمع والبصر، فما ذلك إلاً لأنَّ المذاهب الفكريّة والنظريّات إنما تتعامل مع أنواع المعرفة ذات العلاقة بالعمل. إنَّ المذاهب العمليّة لا تريد البحث حول المسائل الفلسفيّة والذهنيّة والعقليّة والتحليليّة للمعرفة، وإنما تريد البحث عن المعارف ذات الصلة بعمل الانسان، هذا هو محور البحث. وحينما يكون ذلك هو محور البحث، حينئذٍ تورد المعارف المتعلقة بالعضو المتعلّق بهذا المحور، فما هو محور البحث في هذه المعرفة؟ ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾.

حسنٌ، الآن تريدون أن تعلموا شيئاً، أيّ شيء يجب أن تعلموه من وجهة نظر القرآن؟ يجب أن نرىٰ ما هو العلم الذي يستند إليه القرآن؟ هل يستند إلىٰ العلم المؤثّر في سلوك الانسان بنحوٍ مباشرٍ أو غير مباشر، أم أنه يستند إلىٰ العلم المحض؟ حتىٰ معرفة الله هي علىٰ هذا النحو. فهل يرىٰ القرآن أنَّ معرفة الله ليس لها أثر عملي في حياة العبد، وأن المال والعملة ذات قيمة؟ فلا معرفة الله والاعتقاد به، ولا معرفة المعاد والاعتقاد به، ولا معرفة الوحي والاعتقاد به بصورة فلسفيّة محضة، التي ليس لها تأثير في حياة الانسان والفيلسوف والعالم، ولا تعود عليه بأيّ فائدة، هذا هو العلم الذي لا يعتبره القرآن علماً، وهو ليس مورداً للبحث أصلاً، مهما خضتم في بحوث المعرفة بشكل تخصصي حول هذا الموضوع، فإنه لا علاقة له بالقرآن؛ لأنَّ القرآن كتاب عمل، كتاب بناء للانسان، كتابٌ يريد توجيه الانسان عمليّاً، ويأتي به للوجود.

حسنٌ، فإذا كان القرآن يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ ثم أعطاكم ما تتوصلون به إلىٰ المعرفة، فذكر السمع والبصر، وذكر الفؤاد بوصفه الأداة التي تقوم بتحليل المعلومات، وله علاقة بسلوك الانسان وعمله مباشرة أو غير مباشرة، لذا ترون أن تأثير الفؤاد في القرآن (وسنقرأ آياته بعدئذٍ) ودور القلب الذي آياته أكثر، كلّه تأثير عمليّ. ففي كلِّ موضع يذكر القلب أو الفؤاد، يذكر الدور العملي، وهذه نكتة واستنتاج نستفيدهما، لمعرفة سبب اعتبار القرآن أنَّ القلب من الأدوات الأساسيّة الثلاث للمعرفة.

وأمّا المطلب الآخر، فهي علاقة الدماغ أو المخّ بالإدراك، فكما قلت آنفاً، ليست هناك علاقة تشبه علىٰ نحو الدقة علاقة العين والأذن وأعصاب الأنف واللمس والذوق وأمثال ذلك بالادراك، وإنما هي علاقة أكثر تعقيداً، دققوا جيّداً، ففي رأي عدد من العلماء (لا عدد من المذاهب) إنَّ التفكير والتعقّل - حتىٰ في العلوم النظريّة للمخّ، وحتىٰ في تلك المعارف التي ليس

لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالعمل - هما من فعل وإنتاج شيء واقعيّ عينيّ يسمّىٰ (الروح) الروح الانسانية، لا نريد أن نقول هنا إنَّ هذا الرأي صحيح أم ليس صحيحاً، ولكن نريد أن نرىٰ ما يقوله هذا العدد من العلماء فيما يخصّ دور المخّ. نريد أن نرىٰ أنَّ أولئك الذين يرون من وجهة نظر علميّة أو فلسفيّة أنَّ داخل الانسان موجود باسم الروح والعقل، وبه يستطيع الإنسان أن يدرك ويعلم ويتوصّل للمعلومات غير الحسّيَّة، ما الذي يراه هؤلاء بشأن عمل المخ؟ إنهم لا يقولون: إنَّ المخ أداة للمعرفة، وإنما يقولون: المخّ هو ذلك العضو الذي تحدث فيه أفعال وانفعالات خاصة، وذلك حينما تريد الروح القيام بأعمال فكرية، وهم يقولون هذا أيضاً في سائر المسائل المرتبطة بالحياة، يقولون إنَّ دورة الدم هي فعل الروح أيضاً، فهي التي تصدر أوامر لهذه الدورة، وإذا كان للقلب الفعّالية المركزيَّة في دورة الدم، فالواقع هو عضو يفعل ذلك بأوامر من الروح. تعلمون أنَّه في الماضي السحيق لم يفكّر أحد بعلاقة الدورة الدمويَّة بالمخّ، بينما الآن كلّكم تعلمون أنَّ لدورة الدم مركز خاص في المخّ ينظّم جريان الدم في الجسم، أي أنَّ جميع الأعمال التي يقوم بها القلب، تكون بإشراف من ذلك المركز، وهي مسألة مطروحة بجديَّة، وهناك نماذج منها ينقل عن المرتاضين، إنَّ أولئك الذين لهم اتصال بالمرتاضين وراقبوا حالاتهم، ذكروا في مذكراتهم، أنهم رأوا أحد المرتاضين يمتلك القدرة علىٰ قطع أحد أوردته دون أن يتدفّق منها الدم، طبعاً لمدة قصيرة جداً، ومعنىٰ ذلك أنَّ ذلك المرتاض يمتلك القدرة والارادة علىٰ إيقاف عمل جهاز الدورة الدمويَّة لمدَّة قصيرة، هذا خبر، قد يكون قطعيّاً وقد يكون مشكوكاً، ولكنه علىٰ الأقل يمكن أن يكون باعثاً علىٰ البحث العلمي حول ما إذا كان صحيحاً أنَّ في مركز إدارة جسم الانسان مثل هذه الرابطة العلميَّة بين إرادة الانسان والدورة الدمويَّة أم لا؟ وعلى أي حالٍ فهي مسألة لا يمكن تلقّيها بأنها مسألة منتهية.

أكرر أيضاً، أنني لا أريد الآن أن أطرح مسألة الاعتقاد بالروح، وأنها

موجودة أم لا، وإنما أحاول طرح مسألة أخرىٰ بشأن المعرفة، وهي أنَّه من وجهة نظر الذين يرون أنَّ الروح والعقل الانساني هما عاملي المعرفة وفاعليها، وأن علاقة المخّ بالمعرفة شيئاً مشابهاً لعلاقة اليد بالحركة، أي أنَّه أداة تحت تصرّف الروح، وعليه فإننا نقول إن القرآن يريد أن يضع إصبعه على الإدراك والمعرفة اللذين يرتبطان بعمل الإنسان وسلوكه. أي أن المعرفة في نظره هي عمل الروح، وبالنسبة لهذه المعرفة فبدلاً من أن يضع القرآن إصبعه علىٰ المخّ والدماغ، وضعه علىٰ القلب، واعتبر أنَّ القلب والمخّ كليهما أداةً تحت تصرّف الروح، وأن عامل المعرفة في الواقع هو هذه الروح، وطبعاً يبقىٰ البحث جارٍ علىٰ هذا المبنىٰ في أنَّ الانسان له واقعاً روح مجرَّدة أم لا؟ ولكن علىٰ فرض أنَّ الانسان له روح مجرّدة، لا يمكن القول مباشرة: لم يذكر القرآن المخّ، لأنه من المعلوم أنَّ علاقة المخّ والقلب بالروح المجرّدة ليس فيها تفاوت يذكر، واننا سنقوم بتفصيل الكلام في هذا الموضوع فيما بعد، وإنما اكتفي بالإشارة إليه، لأنني لا أريد الخلط بين الموضوعات.

تقسيم المعرفة إلىٰ تحليلية وشهوديّة:

للبشر نوعان من المعرفة والإدراك (دقّقوا، إننا لا نقول: نوعان من الأفكار، إذ ربما لم يكن هذا التعبير رائقاً جداً) أمَّا المعرفة التحليليَّة التي كثيراً ما نطلق عليها الفكر، فإنها عمل المخّ، وأمَّا المعرفة الشهوديّة أي: المعرفة التي ليست بحاجة إلىٰ تحليل تلك المعارف التي ليست بحاجة لتحليل هل لها علاقة بالمخّ أم لا؟ في هذا المورد، وبملاحظة آخر الأشياء التي حصلت عليها، لم أحصل علىٰ جواب علميّ واضح عن هذا السؤال، وكما ترون فإنَّ هنري برجسون[١] الفيلسوف الفرنسي الذي كان أوّل الأمر عالماً طبيعيّاً، ثم تحوّلَ إلىٰ فيلسوف وعارف، كان يصرف النظر عن الفكر

---

(١) Henri Louis Bergson (١٨٥٩ ـ ١٩٤١) فيلسوف فرنسي مشهور.

ومخّ المفكر وقدرته علىٰ حلّ معضلات البشر، حتىٰ في مجال المعرفة.
وكان يقول إذا كان اليقين والمعرفة يحلاّن المشكلة، فهذا في مجال القلب لا في مجال الفكر والمخّ. وإذا لم أكن مخطئاً فإن برجسون كان في البداية طبيباً، ثم أصبح فيلسوفاً. طبيب اختصاصه الأول التشريح ومعرفة وظائف الأعضاء، وحينما يرد المجال الفكري فإنه يقول: إن البحوث حول المعرفة وحول إمكانيَّة الوصول إلىٰ اليقين بواسطة المعرفة حتى يصل إلىٰ دور الفكر وارتباطه تلقائيّاً بالمخّ، لا يوصلنا إلىٰ شيء. وعندما يصل إلىٰ اليقين البنّاء واليقين الواضح واليقين الذي يهدي إلىٰ الطريق، فيعتقد أنه ليس من عمل المخ، وإنّما يعتبره من عمل القلب. هذا كلام من القرن العشرين، وليس من العصور القديمة، إنه كلام عالم عاش في أكثر البلدان رقيّاً علميّاً في زمانه، أعني في فرنسا. وعليه لاحظوا أنَّ هناك موضوعاً يطرح، وهو قوله: المعارف اليقينيَّة، هي المعارف التي بوسعها أن تمنح الإنسان اليقين والطمأنينة والإيمان والهدوء والحركة والتحرّك، وهي خارجة في الأساس عن نطاق وميدان عمل المخّ والفكر الذي يعدّ من عمل العقل. إنها عمل القلب، إنَّ هذه المسألة جديرة بالمطالعة والبحث، ونحن لحدّ الآن إذا كنّا قد اكتشفنا أثر القلب في تنظيم الدورة الدمويّة فقط، فإن هذا لا يعني أنَّ القلب ليس له تأثير آخر في مجال المعرفة، لم نكتشفه لحدّ الآن، ويجب أن نبحث عنه. وللأسف كما تعلمون فإن العلوم الطبيعيّة لا تتابع هذه المسألة، لأنها لا تقبل أصلها، لأنها تعتبر هذا النوع من المعرفة والادراك واليقين هو غير علميّ أساساً، وتقول: ليس بوسع العلم الكشف عن هذه المسألة، وإن اكتشاف هذه العلاقة ليست في نطاق قدرة العلم.

وعليه ففي علاقة القلب بالمعرفة التي هي مورد نظر القرآن (وهي عبارة عن المعرفة التي تعطي اليقين، والتي تجلب الإيمان وتعطي الاعتقاد والإيمان واليقين والمعرفة المؤثّرة في عمل الإنسان وبنائه) في هذا المجال، فإنه بناءً علىٰ الآراء الثلاثة التي تقدّم ذكرها، لا بدَّ أن يعبّر بالقلب:

١ ـ بناءً علىٰ الرأي القائل: المخّ أساساً هو مركز جميع الأفكار، ووسيلة المعرفة (في النوع الثالث) ولكنه في الوقت نفسه وسيلة مشتركة، لا يمكن سلوكها للوصول إلىٰ المعارف البنّاءة التي لها قابليّة توجيه العمل، لأنَّ المعارف البنّاءة والموجّهة لعمل الإنسان لها تأثير علىٰ عضو آخر وهو تأثير واضح ومخصوص وهو القلب، وإن كان تأثيره يتمثَّل في ردَّة فعله، وليس بوصفه أداة. ولكن يفترض من هذا الاتجاه الفرضي حينما يريد ذكر أدوات المعرفة أن يذكر القلب بدلاً عن المخّ، هذا هو الموضوع الأوّل الذي ذكرناه بالتفصيل.

٢ ـ أ ـ علىٰ الرأي الذي يضع القلب في باب وسائل المعرفة، ليس معنى ذلك إلغاء التأثير الأوّل للمخّ في الادراك والمعرفة، فإنَّ هذا الرأي قد يقبل تأثير المخّ في حصول جميع المدركات غير الحسّيَّة، ولكن لأنَّه يتعامل مع تلك المدركات غير الحسّيَّة المؤثرة في عمل الإنسان فقط، فبدلاً من ذكر اسم تلك الوسيلة المشتركة (يعني المخّ)، فإنه يورد اسم العضو الذي يفرّق به بين المدركات غير الحسّيَّة المؤثرة في السلوك، وبين المدركات غير الحسّيَّة التي لا تأثير لها فيه، وهذه الوسيلة الوحيدة هي القلب وحده، ولو باعتبار ردّ فعله، وانعكاس تلك المدركات علىٰ القلب والدورة الدمويّة. فيقول: خفتُ، هبط قلبي، هَلَعْ، قلب يتحرّق. كلّ هذه خاصّة بالقلب.

ب ـ إذا طرح القلب بوصفه أداة للإدراك، باعتبار أن عامل المعرفة أساساً ليس هو المخّ ولا القلب، وإنّما هي الروح، وأنّ المخّ والقلب هما وسيلتان تحت تصرّف الروح والعقل؛ فسبب ذلك أنه يريد ذكر المدركات المؤثرة في العمل فقط، فمن الطبيعي أن يذكر القلب، لأنه يتأثَّر بهذه المدركات، بمعنىٰ كونه العضو الذي يتأثر بالمدركات فعلاً وانفعالاً، ففي هذا النوع من المدركات المؤثرة في العمل، يحصل الفعل والانفعال في كلٍ من المخّ والقلب.

٣ ـ والاحتمال الجدير بالذكر أنَّ للقلب تأثيراً مشابهاً لأداة المعرفة، في بعض المدركات اليقينيّة ومعارف الانسان الأساسيّة التي تقع في نطاق الإيمان والاعتقاد، ومن ثمَّ في مجال العمل والسلوك. طبعاً لحدّ الآن لم يكتشف العلم هذا الدور، ولكننا لا نستطيع نفيه.

هذه ثلاث نقاط طرحناها في مجال علاقة القلب بالمعرفة، بوصفه أداة من أدواتها. وفي جميع هذه النقاط طرح القلب بمعناه المتعارف، ولم نقل إنه هنا بمعنىٰ الروح أو العقل (وسنقرأ المعاجم العربية أيضاً حينما نقرأ الآيات القرآنية وسنرىٰ أنَّ الأمر كذلك) أنا لن أقوم بذلك حالياً لأجل أنه ورد في آية أو آيتين: القلب الذي في جوف الانسان، والقلب الذي في صدر الانسان ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[1] وظاهر ذلك أنَّ المراد بالقلب هو هذا العضو المعروف الموجود داخل الصدر، ولسنا بحاجة إلىٰ هذا التأويل في أيٍّ من آيات القلب الأخرىٰ التي سنقوم بقراءتها فيما بعد، إذن بإمكاننا أن نحتفظ بهذا المعنىٰ الأصلي للقلب في فهم جميع الكلمات المرتبطة بالادراك والمعرفة والسلوك والقلب، سواء في اللغة الفارسيّة، وما يماثلها في اللغات الأخرىٰ، ونقول: إنَّ جميع المعاني الأخرىٰ هي معانٍ فرعيّة، وكذلك الأمر في آيات الفؤاد التي سنقرؤها إن شاء الله.

ثلاثة من الإخوة طلبوا الحديث، وقد انتهىٰ بحثنا لهذه الليلة، وفي الأسبوع القادم سنقرأ الآيات إن شاء الله.

سؤال وجواب:

[أحد الحاضرين]: يبدو أننا لو تابعناكم علىٰ هذا التعبير عن القلب، فإنه ستبرز جملة من العقبات، إذا تمكنّا من اجتيازها، أمكننا أن نثبت علىٰ هذا الموضع، ولكن بما أنني لا أعلم هل أنَّ جميع التأثيرات الثابتة للقلب

(١) سورة الحج/٤٦.

بمعناه الفارسي، ثابتة له أيضاً في اللغة العربية والقرآن. . . لأنك طرحت للقلب اثني عشر أو ثلاثة عشر معنًى، فيجب أن نرىٰ أوّلاً هل أنَّ القلب يستوعب جميع هذه المعاني أم لا؟ لأنَّ بحثنا عن القلب، ولكننا نرتّب النتائج المستحصلة علىٰ القلب، فهل نثبت هذه المعاني للقلب في العربية، ولأنني لا أعلم فعلاً. . .

[الدكتور بهشتي]: كلا، افترض أنَّها كذلك، وابحث علىٰ أساس هذا الفرض.

[الشخص نفسه]: إنني سآخذ الآن بتلك الجهة من القضيّة، ولأنني أبحث عن القلب في اللغة الفارسيّة، فإن هناك مشاكل تطرح، وهي، أولاً: أنَّ هذا القلب بمعنىٰ العضو الصنوبري الشكل، الذي بقيت حقيقته مجهولة قروناً، ولكنهم مع ذلك استخدموا له كل هذه العبارات، هذه في نظري مشكلة أساسيّة، لا يعلم أنَّ هذا هو العضو، ولا يدري من أين أتىٰ، فحتىٰ عندما يقال: ذبح الخروف وأخرج قلبه، وكان يرىٰ قلبه، لكنه لم يكن يدري أنَّ الذي عند البشر مثله تماماً. يجب أن ننظر أساساً إلىٰ التشريح بهذا المعنىٰ، إنَّ هذه اللفظة هل هي صادرة من فيلسوف أم من جرّاح أم من عالم تشريح، أم أنها تكوَّنت من قِبَل الناس؟ الناس الذين لا يعلمون حتىٰ الآن ما هي حقيقة القلب، لا بدَّ أنَّ هذه المصطلحات قد وضعت من قِبَل المتخصصين بالتشريح.

[الدكتور بهشتي]: هل ترىٰ أن أجيب عن سؤالاتك بالتدريج؟ أم أنتظر إلىٰ نهاية بحثك لأجيب عنها؟

[الشخص نفسه]: اسمح لي أن أطرحها جميعاً، ثم أجب عنها.

[الدكتور بهشتي]: حسنٌ جداً، لا بد إذن أن أسجّلها، ممّا قلته أنهم لا يدركون القلب ولا يعرفونه.

[الشخص نفسه]: وأولئك الذين كانوا يعرفون القلب ليسوا هم

الواضعين لهذه الكلمة، وأولئك الذين يستعملون هذه التعابير والكلمات، ليس لديهم ذلك النوع من المعرفة بالقلب.

والإشكال الآخر هو أنك قلت في آخر ملاحظاتك، إنَّ العلم لم يدرك حقيقة القلب، ولكن يحتمل أن يدرك ذلك، وحينما يطرح الاحتمال، يمكن القول أيضاً: إنه يحتمل عدم إدراك ذلك أيضاً، يمكن أن يظهر البحث علىٰ شيء لكن قد يظهر علىٰ شيء آخر، أو عضوٍ آخر. وبناءً عليه فالقلب بالمعاني المعلومة حتىٰ الآن، وفي نظر الذين يعرفونه ليس له أيَّة رابطة من الروابط المذكورة، ولا يكشف عن وجود هذه العلاقة التي نريد الحصول عليها بين القلب والمعرفة، غاية الأمر قلتم يمكن اكتشافها مستقبلاً، ولكن يجب الالتفات إلاَّ أنَّه من الممكن أن يكتشف بعد ذلك شيء آخر.

[الدكتور بهشتي]: إذن هذا فعلاً ليس إشكالاً.

[الشخص نفسه]: بل، إنَّه إشكال؛ لأنه بمجرد احتمال أنه سيأتي وقت نصل فيه إلىٰ مركز كهذا في القلب، ويعرف ذلك المركز، لا يمكننا أن نجزم منذ الآن بوجوده.

[الدكتور بهشتي]: نحن لا نجزم، وإنما نقول: لا يمكننا أن ننفي وجوده.

[الشخص نفسه]: هذا الاحتمال يضعّف وجوده.

[الدكتور بهشتي]: كلا، إنَّه لا يضعّفه، نحن نريد القول: إنَّ الجهل لا يمكنه أن يقف في وجه العلم، لطفاً تابع أسئلتك، وسأقوم بتسجيل هذا المورد أيضاً.

[الشخص نفسه]: النقطة الأخرىٰ: أنَّ هذه الألفاظ المستعملة هنا، أكثر ما تحلّل وتعرف في علم النفس، ومراكزه معلومة أيضاً، وليس لها أي

علاقة بالقلب أصلاً. فعلم النفس لا يعالج قلب الانسان الجبان، وإنما يعالج الانسان نفسه. إذا أردنا معالجة الخوف فإننا لا نتجه لمعالجة القلب، وإنما نتجه إلىٰ مواضع أخرىٰ فيه لمعالجة الخوف عنده، وإنما طرحت هذه الإشكالات ليكون الإخوة علىٰ علم بها، أردت القول: إذا قبلنا القلب بالمعنىٰ الذي يطرحه الدكتور، فما هي العقبات التي تعترضنا، وما هو طريق العلاج في نظري؟ إني أرىٰ أنه إذا أردنا أن نأخذ القلب بمعناه الداخلي (بجميع الأبعاد التي ذكرتها، وباللغة الفارسيّة) فإنه سيكون مستعصياً عن الحلّ، القلب بمعناه الداخلي: قلب البحر، قلب الوادي، قلب السماء، يعني باطن البحر والوادي والسماء، فإذا أخذنا القلب بمعنىٰ الباطن فسيشمل أيضاً القلب الصنوبري، ويشمل الروح. وإذا قلنا: إن المعرفة تكون بواسطة الروح، فالروح باطنة أيضاً، أي يمكننا أن نقول: إن إنساناً عاديّاً أُمّيّاً، لا عِلم له بالتشريح، يحصل علىٰ قسم من معارفه بمساعدة أعضائه الخارجيَّة، وعلى قسم آخر بمساعدة غير هذه الأعضاء الخارجية (طبعاً ما ذكره القرآن من الأعضاء الخارجيَّة هو العين والأذن فقط، ولكن المعلومات تأتي باللمس واللسان وأمثالهما من الأعضاء الخارجيَّة أيضاً) التي هي عبارة عن حسّ الأعضاء الداخليَّة، والآن أيّ هذه الأعضاء الداخليَّة، أو ما سيكتشف منها، ـ وهذا غير معلوم حالياً ـ أو كما تقول أنت سيكون داخل القلب، أو علىٰ أساس استدلال أولئك داخل الروح، وأي منهما كم يكتشف حتى الآن، يجب أن نقول: إنَّ كلمة داخلي تستعمل فيه أكثر؟ إذا كانت كلمة قلب في اللغة العربية، والفؤاد في القرآن والعربية تعطي هذا المعنىٰ الداخلي، ربما أمكننا أن نعمم ذلك علىٰ ما ذكرناه في اللغة الفارسيّة، وأمّا إذا لم تكن تعطي هذا المعنىٰ، فلا بدَّ أن نرىٰ ما هو معنىٰ القلب والفؤاد هناك؟ ومن ثمَّ نتجه مباشرة لتفسيرها من خلال تحليل تلك الألفاظ، إنني لا أعتقد أننا سنكون مجبورين حتماً أن نعرف القلب في القرآن بوصفه أداةً للمعرفة.

[الدكتور بهشتي]: أشكرك، تفضلتم أوّلاً بأنهم لا يعرفون القلب، فإذن يجب أن نرىٰ أوّلاً أنَّ كلمة القلب حينما ترد في المعجم الفارسي، أو العربي، أو كلمة heart حينما ترد في المعجم الانكليزي، فبأيِّ معنًى ترد أوّل مرّة؟

إنَّ طريقة المعاجم هي أنها تذكر دائماً المعنىٰ الأصلي للكلمة بوصفه أوّل معانيها، انظروا في معجم معين الفارسي تجدوا أنَّ المعاني التي يذكرها للقلب هي هذا العضو الصنوبري الشكل، وكذلك الأمر في المعاجم العربية، والألمانية والانجليزية، يعني أنَّ هذه اللفظة موضوعة لهذا العضو الداخلي. أما بالنسبة لقولك إنهم يجهلونه، فإن ظاهر هذه الكتب اللغويّة، وفي حدود حدسنا، فإنَّ ما يتصوره الناس من سماع كلمة قلب لأول مرة هو هذا الشيء الموجود داخل الصدر، وأنت تقول: إنَّ الناس لا يعلمون! إنَّ أكثر الناس أميّةً يعلم أنَّ القلب هو العضو الذي يخفق داخل البدن. إنَّ البشر البدائيين، الذين كانوا يقومون في الحروب ببقر بطون أعدائهم ويمثّلون بهم، كانوا يرون ذلك الشيء النابض في داخل البدن، وهذا المقدار من الإدراك لوجود هذا العضو الخاص أمر قديم تاريخيّاً، وإنَّ ضربات القلب، تحكي عن وجود هذا العضو، أي أنَّ لهذا العضو علامة خارجيَّة تؤدّي إلىٰ معرفته بسهولة، فالقلب ليس كالرئة التي ليس لها علائم خارجيَّة بارزة تكشف عنها، بل هو كالأعضاء الظاهرة بشكل كامل (مثل العين) والفارق بينه وبينها قليل.

وما تفضَّلت به من قولك: إنني قلت هناك احتمال، فقد سبق أن قلت لكم إنَّ مرادي بالاحتمال هو عدم إمكان النفي، ما أردته هو: يجب أن لا نبني علىٰ أنَّ هذا القلب الذي في الصدر ليست له أيّة رابطة بالمعرفة مطلقاً، فالأمر ليس كذلك، إنَّ ما كان أسطورة قبل مئة سنة، أصبح الآن علماً، إنَّ هذه القوىٰ التي تشكّل ما يشبه الحبال التي تربط بين الأجرام السماويَّة الكبيرة والصغيرة، كانت أسطورة يوماً مّا، فوجود عدَّة روابط بين الشمس والأرض، أو الأرض والقمر، كانت أسطورة يوماً ما، ولكنها الآن أصبحت

اليوم بنفس معنىٰ الروابط منسجمة مع العلم. البحث هنا أن نقول: إنَّ العلم الحقيقي والعلم المتواضع والعالم المتواضع هو الذي لا ينفي مثل هذا الاحتمال. وما ذكرت لكم سابقاً أنَّ هناك فرق بين غير العلمي وبين ضد العلمي، أنَّ غير العلمي هو ما لم يتوصل إليه العلم لحدّ الآن، وموضوعنا هو من هذا القبيل، ولكنه ليس ضد العلم، حتىٰ العلم المتواضع يقول: ربما توصَّلنا لذلك يوماً.

وعليه، فإذا ورد في نصٍّ، سواء كان ذلك النصّ قرآناً، أو نصّاً فارسيّاً (فليس هناك بحث قرآني وغير قرآني، وهنا ذكرت القرآن بوصفه نصاً لا بوصفه وحياً) أنَّ هذا العضو الصنوبري الشكل من أعضاء الإدراك، فبدلاً عن القيام بنفيه، يجب أن نتّخذه كدافع للاكتشاف، إنه ليس أقل من رؤية الضفادع ترسل من زاوية الغرفة حركات خاصة، لها علاقة بالأمواج الكهربائية مما يشير إلىٰ دور الكهرباء. وليس أقلّ من سقوط تفاحة من الشجرة، ما أضعف العلاقة بين سقوط التفاحة من الشجرة وبين قانون الجاذبيّة، ولكنَّ هذا الأمر كان باعثاً لعالم محبّ للاطلاع لأن يكتشف قانون علمي، أما قوله إنَّ العلم يقتصر علىٰ أصل موضوعي مادّي، وادعائه أنه ليس ثمة واقعيَّة لغير المادة وآثارها، هو نوع من الانحراف في التفكير.

وأما قولك: إنَّ مراكز الخوف وأمثاله قد عرفت، وأنهم يقومون بعلاجها، فنحن لم نقل إنهم يعتبرون القلب مركزاً للخوف، وإنما قلنا: إذا أردنا أن نجد عضواً له علاقة بهذه الآثار النفسيَّة القابلة لأن يدركها الأشخاص بسهولة، نحو: شجاع القلب، وجبان القلب، فإننا نستطيع أن نذكر القلب. ولمعرفة ردّ فعل هذا العضو، وإدراك أنَّ هذا الانسان شجاع أم جبان، ما الذي يمكن فعله؟ نقوم بمفاجئته وإرعابه، فإذا خاف وانهار وتسارعت دقَّات قلبه، يقال: إنه ضعيف القلب، وإن بقي هادئاً ولم يطرأ تغيير علىٰ نبض قلبه، نقول: إنه شجاع قويّ القلب، نحن لم نرد القول إنَّ مراكز هذه الأمور غير معلومة، وأنَّ القلب هو مركزها. إنما قلت: إنَّ

القلب هو العضو الوحيد الذي أدرك البشر منذ القديم علاقته بالانفعالات الروحيَّة والعواطف وعوامل السلوك، إنَّ سلوك البشر ـ بشكل عام ـ يقوم علىٰ العواطف بمعناها الواسع في علم النفس، إنَّ الأعمال الصادرة من البشر مرجعها إلىٰ العواطف، وإن البشر يتمكنون من معرفة هذه العواطف عن طريق آثارها العمليَّة والحسّيَّة التي تنعكس علىٰ ضربات القلب، لا أنَّ القلب هو مركزها، وأنَّ علاجها يتمُّ فيه.

كما أنه ـ وأنت تعلم ذلك أيضاً ـ أنَّ أساطير العلم كعلاج الأعضاء والعلاج الموضعي في طريقها إلىٰ الانقراض للأسف، وأنَّ الكلام الآن يجري في الاتجاه المعاكس، وأنَّ العلاج الروحي والنفسي بوسعه أن يعالج حتىٰ الأمراض العضوية، وأنَّ معالجة الأمراض الروحية عن طريق الأدوية من المسائل التي أصبحت في السنوات العشر الأخيرة في غاية الضعف، بمعنىٰ هل أنَّ هناك واقعاً علاقة بين هذه الأعضاء وبين الروح والأمور النفسيَّة، أم لا، بل هي أساساً سبب للحالات النفسيَّة؟ هناك فرق كبير بين الأمرين، من المسلَّم به وجود علاقة بين المراكز الخاصة للأعصاب والمخّ وبين كثير من الأمور النفسيَّة والادراكيَّة والحافظة وما إليها، وقد ذكرت تلك الليلة أنَّ هذا ليس بالشيء الجديد، ففي التشريح القديم بحوث كثيرة حول بطون المخّ وتجاويفه، وما هي الأشياء التي ترتبط بكلٍّ منها، وعليه فإنَّ هذه التفريعات المتنوعة وعلاقاتها التي تفضَّلتم بها عليَّ. . .

[أحد الحاضرين]: العلاج الصوتي!

[الدكتور بهشتي]: نعم، إنَّ علاقة خصوصيَّات المخّ بمختلف الجوانب النفسيَّة هي من الأمور المعروفة علميّاً منذ القديم، والآن أصبحت معرفتها أفضل، لا شكّ في ذلك، لا شكَّ في أنه إذا تعطَّل العضو الفلاني عن العمل أو مرض، لا تستطيع النفس أن تنجز عمله، وإذا تمكّنت من ذلك فإنه يستغرق وقتاً طويلاً جداً، هذا أمرٌ واضح، ولكن معنىٰ هذا الكلام

هو أنه: لو صممت روحي الآن علىٰ أن أضرب الحائط بقبضتي، فلو أنني فقدت يدي، فإن الروح لا تستطيع حينئذٍ أن تصدر أمراً بضرب الحائط، فرق بين أن توجد الأداة في متناول مستعملها، وبين أن نقول: هذا عضو خلاّق، ولهذا كنّا نقول: إنَّ القلب يستطيع بوصفه نوعاً من الأعضاء، أن تكون له رابطة أخرىٰ.

وعلىٰ أي حال، فإن الذي أحتاجه أكثر في توضيحاتكم وكلامكم هو إذا كان لديكم خلاف حول المسألة الأولىٰ فاطرحوه؛ لكي يساعد ذلك علىٰ تجلية البحث وتوضيحه، وقد كانت المسألة أنَّ كلمة القلب وما يعادلها في اللغات الأخرىٰ، هل وجدت في لغات البشر قبل أن تحصل لديهم أيّة معرفة بهذا العضو الخاص، ليكون المعنىٰ الأوّل لهذه الكلمة معنىٰ آخر غير هذا العضو (يجب أن يكون معناها الأوّلي علىٰ هذا الأساس هو الباطن أو الوسط) ثم استعملت بعد ذلك في هذا العضو؟ (هنا سحب الدكتور البهشتي معجماً «ألماني ـ ألماني»، وقرأ): Herz في الألمانية، هو العضو المركزي لضخّ الدم في الانسان وبقيّة أنواع الحيوان، هذا هو المعنىٰ الأول المذكور لكلمة القلب هنا.

ثم قرأ في المعجم الانجليزي ـ الانجليزي: heart ذلك الجزء من البدن الذي يضخّ الدم داخل جهاز الدورة الدمويّة، هذا هو أوّل معاني كلمة القلب أيضاً في اللغة الانجليزية، والأمر كذلك في العربيّة والفارسيَّة، ففي العربيَّة: القلب (مص) ج قلوب (ع الف): عضو صنوبري الشكل مودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو أهم أعضاء الحركة الدمويَّة. وقيل: سمّي القلب قلباً لتقلّبه، الفؤاد، العقل، وبمعنىٰ الوسط: (قلب الجيش: وسطه) قلبُ كلِّ شيء لبّه ومحضه[1]. والفؤاد بمعنىٰ القلب، الفؤاد: القلب، وربما يطلق على العقل.

---

(١) المنجد.

تلاحظون أنَّ هذه المعاجم عموماً تذكر هذا العضو الخاص بوصفه أوّل معاني كلمة القلب. وظاهر هذا الأمر يشير إلىٰ أنَّ المعنىٰ الأساس للقلب هو هذا العضو.

[الشخص نفسه]: أتسمح لي أن أبدي ملاحظتين؟

[الدكتور بهشتي]: تفضّل.

[الشخص نفسه]: بشأن ما تذكره كتب اللغة أردت القول: لو كان المعنىٰ الأوَّل المذكور هو أقدم معاني الكلمة، يكون ما تحتمله صحيحاً، ولكنني أعتقد أنها تقدّم ذكر المعنىٰ الأكثر شهرة وشيوعاً، وبما أنني لا يقين لديَّ بذلك فلنرجىء ذلك إلىٰ المستقبل.

[الدكتور بهشتي]: أنا لم أقل إنه يأتي أوّلاً، لقد نسبت إليَّ كلاماً عليَّ إصلاحه. وإنما قلت إنَّ طريقتهم هي أن يذكروا المعنىٰ الأصلي أوّلاً، يعني أنَّ أسلوب المعاجم هو إيراد المعنىٰ الأوّلي والأساسي والأصلي قبل غيره، وبعبارة أخرىٰ: انها تورد المعنىٰ الحقيقي أوّلاً، إنَّ لدينا معنيين: حقيقي ومجازي، والمعنىٰ الأوّل هو المتقدِّم زماناً، وأصحاب المعاجم أنفسهم يقولون إنَّ مبناهم هو إيراد المعنىٰ الأصلي أوّلاً، ومن هذا نستنتج أنَّ بقيَّة المعاني المذكورة مأخوذة من المعنىٰ الأصلي، ويمكننا القول: إنك إذا حدَّدت المعنىٰ الحقيقي للكلمة، فإذن لا بدَّ أن تكون بقيَّة المعاني مأخوذة منه، ولا بدَّ أن يكون المعنىٰ الحقيقي هو المعنىٰ المتقدِّم تاريخيّاً.

[الشخص نفسه]: يا سماحة السيد لا يمكن أن يقال: إنَّ المعاني اللاحقة مأخوذة من المعنىٰ الأوّلي، وإنما هي معاني من الدرجة الثانية، لا أنها مأخوذة حتماً من المعنىٰ الأوّلي.

[الدكتور بهشتي]: قلت لكم إنَّ ظاهر اللغويين هو أنهم يقولون: نحن نذكر المعنىٰ الحقيقي للكلمة أوّلاً، وهذا يعني أنَّ بقيَّة المعاني منقولة ومجازية وكنائيّة، هذه هي النقطة الأولىٰ. . . ما هي النقطة الثانية؟

[الشخص نفسه]: قد ذكرتم أنَّ القلب الذي ذكرتموه للمعرفة معروف للبشر منذ قديم التاريخ، وأنهم توصلوا لمعرفته من خفقانه، ومن رؤيتهم له في أجسام القتلىٰ، لكني أعتقد أننا منذ سنين نرىٰ غطاء القدر البخاري يتحرك، ولكننا لا نلتفت إلىٰ أنَّ هناك قوّة تحرّك الغطاء، وعليه فإنَّ البشر البدائيين أيضاً إذا قتلوا إنساناً، فليس من المعلوم أن يلتفتوا إلىٰ وجود عضوٍ في صدره يسمّىٰ بالقلب، وإنني أرتضي ما ذكرتموه عن خفقان القلب، فإنه أمر محسوس لكلِّ إنسان، إلاً أنه قد استعمل ذلك (خفقان القلب) ومرادهم به غير (ضاق صدري)، قد يكون هناك مصطلح أو اثنين للقلب كانا منذ القِدَم.

[الدكتور بهشتي]: اذكروا الآن خفقان القلب الذي تحدَّثتم عنه.

[الشخص نفسه]: يمكن لذلك أن يكون شيئاً قديماً.

[الدكتور بهشتي]: يكفينا هذا المورد الواحد، لقد قلنا مراراً: إذا توصلنا إلىٰ موردٍ واحدٍ بخصوص المطلب الذي نريد إثباته، فهذا يكفي، وإذا كنتَ تحسُّ بأنَّ خفقان القلب هذا هو شيء يمكن أن يعبَّر عنه بلفظة القلب، فهذا يكفينا، بهذا المعنىٰ وهو أنَّ البشر كانوا يعلمون بأنَّ هناك شيئاً يخفق في الصدر، وحينما يقول الانسان: قلبي مأخوذ أو منشرح، فإنَّه ينظر إلىٰ هذا الموضع.

وممّا يروقكم سماعه، أنَّه قبل بضعة أسابيع كان هناك أحد الدكاترة اليابانيين، وهو دكتور ياباني مختصّ بالفلسفة، مسلم ومثقَّف، وعمره يقارب الأربعين، جاء إلىٰ هنا للبحث بشأن المسائل الاسلاميّة، وقد لفت انتباهي، وقد دار البحث حينذاك حول الايمان، فكان يقول: إنَّ من يُسمّون بالمسلمين، لا أرى الإيمان راسخاً في نفوسهم، ثم أشار إلىٰ صدره وقال: الإيمان لا بدَّ أن يكون ثابتاً في قلب الانسان، يعني أنه أيضاً بطبعه المجرَّد، يحسُّ بأنَّ هناك نوعاً من الارتباط بين ما يوجد في الصدر من العضو

الخافق، وبين الاحساسات والمشاعر، وهو ما يقولون بشأنه: قلبي مأخوذ، ومنشرح، ونشيط.

أضرب مثالاً: ما تستطيعون مشاهدته من فعل النساء عادة حينما يشعرن بالانزعاج، إنهنَّ يفتحن ياقات ثيابهنَّ وينادين: (قلبي مأخوذ، إنني محزونة، إنني منزعجة) حتىٰ أنَّهنَّ منذ القديم يقمن بشق ملابسهنَّ عند الصدر، حينما تنزل بهنَّ النكبات والمصائب، إنني أحتمل احتمالاً قويّاً، أنَّ ذلك ناشىء من إحساسهنَّ بحرقة القلب، وتوهمهنَّ بأنَّ هذا الفعل يؤدّي إلىٰ الترويح عن القلب وإطفاء ناره، وهذا ما سيتّضح فيما بعد عند الكلام علىٰ معنىٰ شرح الصدر في القرآن إن شاء الله.

ويمكنك أن ترجع إلىٰ هذه النظرة وإلىٰ العرف، إلىٰ الناس العاديين البعيدين عن الأفكار التحليلية، ولا بدَّ أنك سترىٰ علاقة بينهم جميعاً وبين القلب، هل هناك سؤال آخر؟

[أحد الحاضرين]: وضح لنا مرادك من قولك: من الممكن أن لا يتمكن العلم من إثبات هذه المسألة.

[الدكتور بهشتي]: انظر، إنَّ العلم نفسه يقول: إنني أستطيع العمل في نطاق الأشياء التي يمكن إثبات واقعيّتها بصورة فيزيائية وتجريبيَّة، وأما الأشياء التي لا يكون أحد أطرافها فيزيائيّاً، وإن كان طرفها الآخر فيزيائيّاً، فإن العلم يقول: إنَّ إثباتها ليس داخلاً في نطاق عملي، وعليه فإذا قلنا: إنَّ ذلك النوع من المعرفة واليقين الذي يعرف الانسان بموجب الفيزياء أو الطبيعة أنَّ مركزهُ القلب؛ لأنَّ تلك المعرفة نفسها متعلّقة بحقيقة غير فيزيائية، ومن الممكن أن لا يتمكَّن العلم من التحقيق بشأنها.

[أحد الحاضرين]: تعقيباً علىٰ ما قمتم ببيانه، أودّ أن أذكر مثالاً يخطر في ذهني، الأم التي تعثر علىٰ طفلها المفقود، فإنّها لكي تهدىء قلبها، تعمد إلىٰ إلصاق طفلها بصدرها، وبهذه الطريقة تحصل علىٰ الهدوء.

[الدكتور بهشتي]: أو وضع اليد علىٰ القلب، وهو عمل متعارف الآن، يعني أن الرابطة بين هذه المسائل العاطفيَّة بالمعنىٰ النفسي الشامل للخوف والغضب والحب والانفعالات الأخرىٰ، وبين القلب، هي رابطة طبيعيَّة وقديمة.

[أحد الحاضرين]: لقد استندت إلىٰ أنَّه لأجلِ كون المدركات المؤثّرة في حياة الانسان وسلوكه تترك أثرها علىٰ القلب، لذا فإنَّ القرآن يطرح القلب بوصفه رمزاً للمدركات ذات الأثر في السلوك، ولكنَّ هناك من المدركات ذات الجنبة العملية، وتترك آثارها علىٰ الأعضاء الأخرىٰ من البدن، فلماذا لم يذكرها القرآن؟ مثل ارتعاش اليد والرجل في حال الرعب، أو ضيق النفس في حال الضغط النفسي.

[الدكتور بهشتي]: ما هو الشائع؟ هذا مثل حاسّة اللّمس، هذا الذي تقولونه من أنَّه في عداد اللامسة والذائقة، إلىٰ جانب السمع والبصر. وأنا تعمَّدت وضع كلمة (الواسع) وقلت: حينما تكون ردود الفعل واسعة أيضاً، فأيّ شيء تكون حساسيته أدقّ من الجميع (أي المؤشّر الذي يعمل أدقَّ من غيره)؟ إنَّه القلب.

[أحد الحاضرين]: لقد شبَّهتم القلب بالمؤشّر والعدّاد، فهل يعني ذلك أنه مضافاً إلىٰ حكمه بالإيجاب أو السلب، يعتبر معياراً أيضاً، أي أنَّ العدَّاد كما يدلّ علىٰ وجود الكهرباء يدلّ علىٰ المقدار المستهلك منها، فهل القلب كذلك أيضاً؟

[الدكتور بهشتي]: لا أستطيع أن أقول هذا، إنه يحتاج في الواقع إلىٰ دقّة أكثر، لكنَّ أصله صحيح.

[الشخص نفسه]: لقد قلت إنَّ للقلب علاقة بالعمل، إنني لم أفهم ذلك.

[الدكتور بهشتي]: قلت إنَّ المدركات التي لها تأثير في العمل، تظهر لها ردود فعل علىٰ القلب.

[الشخص نفسه]: يعني أنَّ الأفعال كالخوف أو النفور أو الرعب تنعكس علىٰ القلب.

[الدكتور بهشتي]: نعم.

[الشخص نفسه]: إذن فالقلب يعرّف بوصفه عاملاً فيزيائياً.

[الدكتور بهشتي]: فعلاً، هكذا قلت، إنه فيزيائي.

[الشخص نفسه]: عفواً، لقد قلت إنَّ الماديين لا يمكنهم الكلام علىٰ المسائل التي يكون أحد جوانبها غير مادّي، فلماذا أخضع علم النفس بعض الموارد والظواهر من قبيل الخوف والرعب والعشق للدراسة، في حين أنَّه لم يبحث ويحقق بشأن الخالق وتأثيره؟ كيف لا يستشعرون تأثيره، خلافاً للفرح والعشق والمحبّة و...

[الدكتور بهشتي]: لأنهم يعتبرونه اعتقاداً وهميّاً، ويقولون: إنَّ العلم لا يعتني بدراسة الأمور الوهميَّة، أي أنَّ المادّي يعتبر إحساسه أمراً وهميّاً وغير واقعيّ، ويقول: لا ضرورة لدراسته.

[أحد الحاضرين]: إذا كان القلب من عوامل المعرفة، فلا بدَّ من تأثير الاضطرابات القلبيَّة علىٰ معارفنا.

[الدكتور بهشتي]: إنَّك تتكلَّم علىٰ الاحتمال الثالث، هذا سؤال وجيه علىٰ هذا الاحتمال، دقّقوا أيّها الإخوة، إنه يقول: إذا كان القلب علىٰ الاحتمال الثالث وسيلة للمعرفة اليقينيَّة (شبيه بما لدىٰ القلب من قابليَّة للتفكير والتحليل) فلا بدَّ أن تتأثَّر المعرفة بالعوارض والأضرار التي تحدث للقلب، كما تترك الأضرار التي تحدث للمخّ تأثيراتها علىٰ المعرفة، وهذا سؤال في محلّه. وتوضيحي له هو: أنَّ القلب عضوٌ له عدَّة أبعاد، وما يعرض علىٰ القلب يرتبط بالدورة الدموية، ولكن لا إشكال في أنَّ القسم المرتبط بالإدراك يبقىٰ سالماً، أي أنَّ البحث يجب أن يكون أدقَّ وأعمق؛

لأنَّ المخَ عضو مركَّب للقيام بأعمال متعدّدة، وأنَّ الأعراض المعروفة الآن بوصفها أمراضاً قلبيَّة، ترتبط بتأثير القلب في الدورة الدمويَّة، ولا ضرورة لأن يؤثّر في المعرفة، لأنَّ عمل القلب فيها يتم عن طريق مسارٍ آخر، نعم قد يتم عمله ذاك عبر مسير آخر، لا نقول ذلك حتماً، بل علىٰ نحو الإمكان، علىٰ كل حال إنَّه سؤال ذكيٌّ وفي محلّه، لذا أقول: إنني في كلامي أستند إلىٰ الوجه الأوّل من الوجوه الثلاثة التي عرضتها لكم.

الجلسة السابعة

هناك أمر لفت انتباه المهتمين بالقرآن. يتلخص في أن القرآن الكريم يعتبر القلب والفؤاد أداةً للمعرفة والادراك، في حين أننا نعرف القلب كعضو لضخ الدم، وليس له أدنى دخل في الادراك والتعقل. فما معنى هذا التعارض، وكيف يمكن حلّه؟

والذين تعرضوا إلىٰ بيان مفردات القرآن كالراغب في مفرداته وبقية المفسرين كالعلامة الطباطبائي في ميزانه[١]، قاموا قديماً وحديثاً بالبحث في هذا المجال، كما صدر في الفترة الأخيرة كتاب تحت عنوان (معجم ألفاظ القرآن الكريم)[٢] وهو يضمّ الكلمات القرآنية وهو كتاب جيد نسبياً، وهو من بعض الجهات أفضل وأكثر تطوراً وشمولية من غيره، وقد تحدثت هذه الكتب بأجمعها عن مصطلح القلب، وقد شغلت هذه المسألة اهتمام المعنيين بفهم آيات الادراك والمعرفة منذ القدم، وأردنا تبيان موقفنا تجاه هذا الأمر، وقد واجهني الطلاب والباحثون الشبان والأصدقاء العاملون في سلك التربية والتعليم وغيرهم ممن يبحثون في علوم القرآن بدقة أكثر بهذا السؤال مراراً، فأردت بيان موقفنا تجاه هذه المسألة وايضاحها في البين.

وكان الاسلوب الذي اتبعناه في أبحاثنا إلىٰ الآن هو أننا إذا واجهنا أمر أن لا نغفل الأسئلة التي طرحت أو قد تطرح بشأنه، وإنما لا بد من بيانها ولو بشكل عابر، إلاّ إذا كان للأصدقاء مشرب آخر، فأرجو منهم أن يحيطوني به علماً بعد نهاية هذا البحث.

---

(١) الميزان، الجزء الثاني، ص٢٠٤.

(٢) مجمع اللغة العربية، القاهرة ٧٠ ـ ١٩٥٣.

خلاصة البحث المتقدم:

الخلاصة هي أن القلب في اللغة هو العضو الذي يتوسط الجسم ويعمل علىٰ ضخّ الدم، وأما الفؤاد فيطلق علىٰ هذا المعنى أو يطلق علىٰ ما هو أوسع منه فيشمل القلب وما يحيط به، وقد ورد استعمال الفؤاد في القرآن إما بمعنى القلب أو أوسع بقليل، ولا بد أن يكون هناك سبب لذكر القلب بعد السمع والبصر بوصفه أداةً وطريقاً إلىٰ المعرفة، وعلينا أن نصل إلىٰ ذلك السبب، والذي أراه مناسباً هو جعل المخّ عضواً مركزياً للمعرفة، إلاّ أن وظيفته تنحصر في حدود المعرفة، فلا يمكن التعرض لها بتلك السعة والشمولية سواءٌ في الإسلام أم في أي مذهب عملي له مساس مباشر بالحياة، نعم يمكن التعرض له والخوض فيه في المكاتب الفلسفية، أما في المكاتب العمليَّة أي في الحكمة العملية فلا يمكن طرحه بتلك السعة، لأن المذاهب العمليّة وغيرها مما ينظر إلىٰ المسائل بأجمعها من زاوية فائدتها العمليّة تهتم بذلك الجزء من المعرفة الذي يساعد علىٰ توجيه أعمال الإنسان، وهي الادراكات التي لها تأثير أساسي في ميادين العمل، وأن الخصوصية التي تتميز بها الادراكات العمليّة عن غيرها هي: أن الإنسان لا يمكنه تجاوزها، بل لا مندوحة له من تحسسها والتفاعل معها أو الهروب منها. فكل ادراك يحمل هذه الخصوصية يستدعي ردّ فعل ملحوظ في العضو الذي نسميه (القلب) أي أن ذلك الادراك سيؤثر في دورتنا الدموية، وأن هذه الدورة أكثر ما تتجلى في القلب. فمثلاً الإدراك العملي بالحب يحفزنا، وتضطرب بذلك الحالة المحسوسة لقلوبنا، وكذلك فإن المعرفة والإدراك العملي بالامتعاض سيحفزنا أيضاً، وتضطرب بذلك أيضاً الحالة المحسوسة لقلوبنا. وهكذا الأمر فيما لو حثنا الادراك العملي علىٰ البهجة والفرح والحزن، فإننا نحسّ بحالة في القلب. فمعرفة ما تبعث فينا الغم والحزن، وندرك تلك الحالة بقلوبنا. وعليه فإننا ندرك هذا الارتباط القائم بين هذا الجزء من المعرفة وهذا العضو، ومن هنا كان من المناسب التعرف علىٰ القلب بوصفه عضواً يتعلق بالمعرفة العمليّة بجميع أقسامها الواسعة،

وهذا هو الوجه الذي كنت أراه منذ زمن بعيد.

والآيات التي ذكرت القلب أداةً للمعرفة أرادت ذلك القلب المعهود، وعليه فإن القلب إنما يحظى بمفهوم أوسع ويجد القلب معنىٰ جديداً هو: روح الإنسان وباطنه وسريرته، ومن ناحية الإدراك: تهذيب النفس وصيانتها وسلامتها والمحافظة عليها من الأمراض المؤثرة علىٰ الصعيد العملي كل ذلك يأتي عندما يصبح معنىٰ القلب واسعاً، وفي هذا البُعد، ونفس هذه الجهة نجد أن الآيات التي لا تتحدث عن القلب بوصفه مجرد أداة، بل تجعله موضوعاً لسلسلة من المفاهيم العامة، لاحظوا هل سنواجه إشكالاً إذا سرنا بهذه النظرة أم لا؟ إنَّ القرآن الكريم قد استعمل كلمة الفؤاد أقل من استعماله كلمة القلب، وأكثر من استعمال كلمة القلب.

مقارنة بين آيات القلب والفؤاد:

من الأعمال التي قمت بها: إجراء مقارنة في موارد الشبه بين استعمال القلب والفؤاد وتصنيفها، موضحاً عدد الموارد التي جاء فيها ذكر أمر ما مع مصطلح الفؤاد وذكره بنفسه في آية مع مصطلح القلب، وهذا العمل يوضح لنا الشبه والقرب الكبير بين الفؤاد والقلب، فليس هناك سوى مورد واحد أو موردين جاء فيهما ذكر الفؤاد مع أمر لم يرد ذكره مع القلب، نعم هناك الكثير من الأمور التي ذكرت مع القلب ولم تذكر مع الفؤاد. وإليك نموذجاً عن كل واحد منها:

النوع الأول: الفؤاد والقلب كأداتين للادراك والمعرفة، فالفؤاد ذكر بوصفة أداة ادراك في الآيات التي تقدمت لا سيّما الآية التي ذكرناها بوصفها أهم آية في البحث، وهي قوله تعالىٰ:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[١].

---

(١) سورة النحل/ ٧٨.

كما ذكرنا الآيات الأخرىٰ بهذا الصدد ودونتموها.

والمورد المشابه لذلك مما ورد استعماله مع القلب قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[1].

وهذه الآية من الآيات التي لها دور كبير في فهم بداية معنىٰ القلب في القرآن الكريم، كما أنكم تلاحظون مدى الشبه بين مورد هذه الآية وبين آية الفؤاد المتقدم ذكرها، فأولاً: كلاهما يتحدث عن القلب والسمع والبصر بشكل آخر. وثانياً: أن كلاً من الآيتين تذكر السمع والبصر والقلب بوصفها أدوات للمعرفة. وثالثاً: تقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ وهذا التعبير يدلّ بوضوح علىٰ أن المراد من القلب هو العضو المعهود.

[أحد الحاضرين]: ألا يمكن أن يكون هذا الارتباط عاطفياً؟

[الدكتور بهشتي]: إن نوع الارتباط هو ما ذكرته، وإذا أردنا الحفاظ علىٰ اتساع المطلب، فإن المعنى الذي أراده القرآن بشكل عام هو سلسلة من الادراكات التي لها دور عملي في الإنسان، وعلى أساسه تترك آثاراً علىٰ القلب، وأنا أتقبل هذا المعنى الواسع بيسر.

وهناك آيات أخرىٰ في هذا المجال وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[3].

---

(١) سورة الحج/ ٤٦.

(٢) سورة الأعراف/ ١٧٩.

(٣) سورة الأنعام/ ٢٥.

وقوله تعالىٰ: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾[4].

فهذه الآيات تعتبر القلب أداة كالأذن، وقد بينا هذا النحو من التناسب فيما تقدم، هذا هو النوع الأول الذي يتعاقب فيه القلب والفؤاد علىٰ معنى واحد.

النوع الثاني: الفؤاد بوصفه مصدِّقاً لما تراه العين، بمعنى أن الفؤاد عضو للاعتقاد والتصديق والإيمان، قال تعالىٰ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾[5] أي أن فؤاد الرسول ﷺ صدّق ما رأته عينه، فذكر الفؤاد هنا بوصفه مصدّقاً، وأنه شيء يصدق الإنسان بواسطته، وأن هناك ارتباطاً بين الفؤاد والعقيدة، وقد استعمل هنا الفعل (ما كذَبَ) وهو لازم وغير متعدٍ، إذ لا يستعمل هذا الفعل متعدياً إلاّ بمعنى (التكذيب) فنقول: كَذَبَه الحديثَ إذا نقل الكذب وقال خلاف الواقع، لاحظوا فقد تعدى (كَذَبَ) هنا إلىٰ مفعولين.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ أي أن الفؤاد لم يكذّب ما رآه

---

(١) سورة التوبة/ ٨٧.

(٢) سورة الإسراء/ ٤٦.

(٣) سورة الكهف/ ٥٧.

(٤) سورة المنافقون/ ٣.

(٥) سورة النجم/ ١١.

الرسول ﷺ أي أنه ارتضاه ورآه صحيحاً. وإذا أردنا بيان ذلك بعبارة أخرىٰ فالذي يبدو لنا هو تفسيره بالتصديق والإيمان، وعندها تستقيم العبارة.

النوع الثالث: القلب للوظيفة ذاتها وهي: التصديق والإيمان، قال تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾[1] فقد كان الأعراب وسكان البوادي يأتون إلىٰ المدينة بعد فتح مكّة أو يرسلون ممثلين عنهم فيشهدون الشهادتين، ثم يقولون إننا مؤمنون، وكان الإسلام والرسول يكتفي منهم بهذا المقدار، أن لا يواجهوا الإسلام ولا يكنّوا له العداء، ويتخلّوا عن معارضة الإسلام ويدخلوا تحت ظله، ويتعامل معهم في هذا البُعد بالحدّ الأدنىٰ من المعاملة التي يؤديها مع أيّ مواطن مسلم. فيحفظ حقوقهم ويحقن دماءهم ولا يبيح التعرض لهم بسوء، إلاّ أن الإيمان لم يكن داخلاً في قلوبهم. وهذا البحث يعود إلىٰ درجات الإيمان، ولا بد من التعرض إليه في محله.

وقد بينت الآيات العلاقة بين القلب والإيمان، وهي: العلاقة بين اطمئنان القلب والقلب المطمئن وفراغ القلب، وقد ورد هذا الموضوع مقروناً بالفؤاد والقلب، أما بشأن الفؤاد فقوله تعالىٰ في قصّة موسى عليه السلام: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾[2] فقد كان جنود فرعون يذبحون أبناء بني إسرائيل من الذكور، وقد وضعت أم موسى مولوداً ذكراً، ولم يقع في أيدي جنود فرعون ثم جرت الأمور كما ذكر القرآن، وترعرع في بلاط أكبر أعدائه. والملفت للانتباه هنا أن القلب والفؤاد قد استعملا في آية واحدة، وقد ورد هذا التعبير في الآية رقم ١٢٠ من سورة هود.

---

(١) سورة الحجرات/ ٤٩.

(٢) سورة القصص/ ١٠.

كما بشّر الله سبحانه المؤمنين بقوله في قصّة وعده المسلمين بالنصر: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[1] تلاحظون هنا الحديث عن اطمئنان القلب وراحته.

وقال تعالىٰ: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[4].

القلب المقلوب: هناك آيات تقارن بين القلب والفؤاد متحدثة عن انقلاب الفؤاد والقلب وهي كالآتي:

قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾[5].

هذا ويستحب للمسلمين في بداية السنة أن يدعوا بهذا الدعاء: (يا مقلّب القلوب والأبصار) وعليه ترون أنه قال هناك نقلّب أفئدتهم، ونحن نقول هنا مقلّب القلوب.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[6].

---

(١) سورة آل عمران/ ١٢٦.
(٢) سورة الأنفال/ ١٠.
(٣) سورة المائدة/ ١١٣.
(٤) سورة الرعد/ ٢٨.
(٥) سورة الأنعام/ ١١٠.
(٦) سورة التوبة/ ١٢٧.

إن المؤمنين على قسمين: قسم يطيب له الدين ما لم يمحص بالبلاء والمشقّات والعناء، فإذا محّص بالبلاء تضعف علاقته بالدين، وقد واجه النبي ﷺ الكثير من هذا الصنف لا سيّما في مدّة نزول سورة التوبة، أي من السنة الثامنة إلى العاشرة للهجرة، فحينما كانت تنزل سورة[1] تدعو إلى الجهاد كما حدث في غزوة تبوك التي هي من أشد الغزوات التي حثّ رسول الله ﷺ المسلمين على التوجه إليها، وكان الطقس حارّاً والمسافة بعيدة إذ تقع على حدود الروم والتي كانت تشمل (أراضي سوريا ولبنان وشمال الأردن وفلسطين المحتلّة) وكان العدو قويّاً، فشق ذلك على الذين يركنون إلى الدعة ويحبون الخلود إلى الأرض من المسلمين، فقال تعالى بشأنهم: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ وقد استعمل القرآن هنا لفظ (صَرَفَ) بدلاً من (قَلَبَ) وكما ترون فإن القلب هنا والفؤاد هناك مقلوبان.

والمورد الآخر هو الفؤاد الذي لا يصلح لشيء والقلب الذي لا ينفع شيئاً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾[2] وهذه هي الأفئدة التي لا تصلح لشيء.

وهناك ما يشابه هذا المعنى بالنسبة إلى القلب في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا

---

(١) كانت السورة تطلق في أيام الرسول ﷺ على مجموع ما ينزل على النبي ﷺ من الآيات، وإن بلغت ثلاث آيات، ثم اصطلح لفظ السورة فيما بعد على ما يبتدىء بالبسملة وينتهي إلى ما قبل البسملة التالية، وهو كما ترى معنى جديد للسورة مغاير للمعنى السابق واليوم أيضاً يقال لمجموعة الآيات سورة، وعليه إذا استعمل القرآن السورة فمراده منها هو المعنى القديم (الشهيد بهشتي).

(٢) سورة الأحقاف/ ٢٦.

يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[1].

فقال هنا: إنهم لا يفهمون بقلوبهم، كما قال هناك: إنهم لا يفهمون بأفئدتهم.

كانت هذه استعمالات القلب والفؤاد في موارد متشابهة، وهناك موارد انفرد فيها الفؤاد في الاستعمال وهي:

قوله تعالىٰ: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾[4].

وإنما ذكرنا ذلك لكي يتعرف الإخوة أنهم إذا أرادوا فهم آيات القرآن أو أي كتاب آخر فهماً صحيحاً فعليهم أن لا يحكموا أذواقهم وأمزجتهم.

وإقامة هذه المقارنات تساعد علىٰ استخراج الفوارق بين القلب والفؤاد من الكتب التي تعرضت لهاتين المفردتين.

إذن فقد استعمل القلب والفؤاد في موارد متشابهة، والذي يهمنا هو هذه الموارد دون غيرها مما انفرد فيها كلٌ من القلب والفؤاد في الاستعمال.

إلاّ أن المسألة المهمة عندي هي القسم الآتي والذي إذا أردت قراءته بأجمعه فسوف يطول بنا المقام، ولذا سأكتفي بذكر الموارد كي تدونوها وتراجعوها فيما بعد.

---

(١) سورة الأعراف/ ١٧٩.

(٢) سورة الأنعام/ ١١٣.

(٣) سورة إبراهيم/ ٣٧.

(٤) سورة الهمزة/ ٦ ، ٧.

والقلب كأداة للفهم، وقد تقدمت آيتان لذلك، وأمّا الآيات الأخرىٰ فهي:

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179)﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3)﴾[4].

تفقّه القلب وفهمه، وفي قباله ورد استعمال القلب اللاهي والغافل في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[5].

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾[6].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[7].

وبهذه المناسبة تحدثنا عن عمى القلب والسريرة أيضاً، وذكرنا قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[8].

---

(١) سورة الأعراف/ ١٧٩.
(٢) سورة الأنعام/ ٢٥.
(٣) سورة الإسراء/ ٤٦.
(٤) سورة المنافقون/ ٣.
(٥) سورة الأنبياء/ ٣.
(٦) سورة المؤمنون/ ٦٣.
(٧) سورة الكهف/ ٢٨.
(٨) سورة الحج/ ٤٦.

كما ذكرنا عدة وظائف أخرىٰ في هذه المقارنة، ويمكنكم أن تدونوا تلك الوظائف علىٰ الشكل الآتي: الإيمان القلبي، وقد تقدمت آياته، والاطمئنان القلبي وقد تقدمت آياته أيضاً.

والآن نستمر في ذكر وظائف القلب وخصوصياته الواردة في القرآن.

غيظ القلب، قال تعالىٰ: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[1].

اشمئزاز القلب، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[2].

تأليف القلب، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[3].

وقال أيضاً: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[4].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[5].

إن لدي أسلوباً لا بأس بذكره لكم، إن أسلوبي في أعمالي العلمية وتدوين الملاحظات هو أن أكتب رقم الآية خارجاً، ثم احصر رقم السورة بين قوسين، أي مثلاً بهذا الشكل: ١٥(٩). أي الآية (١٥) السورة(٩) وهذا يسهل العمل، لذا سنعتمد هذا الأسلوب خلال عملنا.

---

(١) سورة التوبة/ ١٥.
(٢) سورة الزمر/ ٣٩.
(٣) سورة آل عمران/ ١٠٣.
(٤) سورة الأنفال/ ٦٣.
(٥) سورة التوبة/ ٦٠.

ونكمل دور القلب في القرآن: إباء القلب، قال تعالىٰ: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1].

إصرار القلب، قال تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[2].

كسب القلب عن عمد، قال تعالىٰ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾[3].

وقال أيضاً: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[4].

[أحد الحاضرين]: ما معنى حول القلب أو قَلْب القلب؟

[الدكتور بهشتي]: إذا كانت عين الإنسان حولاء فسوف لا يرى الأشياء علىٰ شكلها الصحيح، وهكذا الأمر بالنسبة إلىٰ القلب.

[الشخص نفسه]: إذن فالمسألة ليست انقلاباً، كأن كان أول الأمر يرىٰ بشكل صحيح، ثم أخذ ينظر بشكل خاطىء.

[الدكتور بهشتي]: قطعاً هذا المعنى هو المقصود، وأراد أن يعقد مشابهة بينهما.

علاقة الخير والإحسان بالقلب، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾[5].

تطهير القلب، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ

---

(١) سورة التوبة/ ٨.
(٢) سورة الأحزاب/ ٥.
(٣) سورة البقرة/ ٢٢٥.
(٤) سورة المطففين/ ١٤.
(٥) سورة الأنفال/ ٧٠.

ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[2].

وهناك تعبير في القرآن مفاده تزيين شيء للعين أو تزيينه للقلب، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[4].

أحياناً نقول: إن العين ترى والقلب يريد، أو أن اللسان يقول شيئاً إلاّ أن القلب يريد خلافه، وقد ذكر القرآن مقارنة بين الاتحاد بين القلب واللسان وعدم ذلك، قال تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[5].

وقال أيضاً: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾[6].

عدم توافق القلب مع الآثار العلمية للإيمان، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾[7].

وقال أيضاً: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ

---

(١) سورة الأحزاب/ ٥٣.
(٢) سورة المائدة/ ٤١.
(٣) سورة الفتح/ ٤٨.
(٤) سورة الحجرات/ ٧.
(٥) سورة آل عمران/ ١٦٧.
(٦) سورة الفتح/ ١١.
(٧) سورة البقرة/ ٢٠٤.

مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ﴾[2].

وقال أيضاً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[3].

وقال أيضاً: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْۚ﴾[4].

[أحد الحاضرين]: إن هذا المورد عكس سابقه؟

[الدكتور بهشتي]: ليس عكسه، وإنما هو نوع آخر منه، فهناك لم يكن القلب متحداً مع اللسان، وأما هنا ليس متحداً مع العمل، فهو ليس عكسه وإنما يشابهه، فهو يظهر الإيمان ويبطن الكفر.

[أحد الحاضرين]: أليس في ذلك إجبار؟

[الدكتور بهشتي]: كلا ليس فيه اجبار، فهناك الكثير ممن يلجأ إلىٰ النفاق باختياره، فليس جميع المنافقين مجبرين على ذلك.

الحميّة والعصبية القبلية، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾[5].

وقد تحدثنا سابقاً عن القلب المطمئن والفارغ، وذكرنا بعض الآيات لذلك، وأما الآن فنتحدث عن القلب غير المطمئن والقلب الواجف، قال تعالىٰ: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾[6].

---

(١) سورة آل عمران/ ١٥٤.
(٢) سورة الأحزاب/ ٥١.
(٣) سورة النساء/ ٦٣.
(٤) سورة التوبة/ ٤٦.
(٥) سورة الفتح/ ٢٦.
(٦) سورة النازعات/ ٨ ، ٩.

الهداية القلبية، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[١].

خضوع القلب وخشوعه، قال تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٣].

- وهناك آيات لا تتحدث عن هذا القلب، وإنما تتحدث عن العضو المعهود الذي يعمل علىٰ ضخ الدم، وقد تقدّم ذكره في الآية ٤٦ من سورة الحج، وإليك آية أخرىٰ بهذا الشأن، قال تعالىٰ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[٤].

القلب الذي يبلغ الحنجرة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[٥]. وهناك تعابير عامية مثل: دون قلب، أو كاد يخرج قلبي من محله، أو بلغ قلبي الحلقوم، أي خرج من مكانه.

وقال أيضاً: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ﴾[٦].

علاقة القلب بالخوف، قال تعالىٰ: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾[٧].

وقال أيضاً: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[٨].

---

(١) سورة التغابن/ ١١.
(٢) سورة الحج/ ٥٤.
(٣) سورة الحديد/ ١٦.
(٤) سورة الأحزاب/ ٤.
(٥) سورة الأحزاب/ ١٠.
(٦) سورة غافر/ ١٨.
(٧) سورة آل عمران/ ١٥١.
(٨) سورة الأنفال/ ١٢.

علاقة القلب بالتقوى والخشية من الله، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[2].

وقال أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾[3].

تقطّع القلب، قال تعالىٰ: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[4].

انحراف القلب، قال تعالىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾[5].

وقال أيضاً: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[6]

نفاق القلب، قال تعالىٰ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[7].

إنكار القلب وكفره، قال تعالىٰ: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾[8].

ارتياب القلب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾[9].

---

(١) سورة الحج/ ٣٢.
(٢) سورة الأنفال/ ٢.
(٣) سورة المؤمنون/ ٦٠.
(٤) سورة التوبة/ ١١٠.
(٥) سورة التوبة/ ١١٧.
(٦) سورة آل عمران/ ٨.
(٧) سورة التوبة/ ٧٧.
(٨) سورة النحل/ ٢٢.
(٩) سورة التوبة/ ٤٥.

وقال أيضاً: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[1].

قسوة القلب، والآيات فيها كثيرة، نكتفي منها بما يأتي:

قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[2].

وقال أيضاً: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[3].

وفي قبال قسوة القلب رأفته ورحمته، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[4].

لين القلب، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[5].

القلب السليم، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[6].

وقال أيضاً: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾[7].

القلب المريض والسقيم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[8].

---

(١) سورة التوبة/ ١١٠.
(٢) سورة آل عمران/ ١٥٩.
(٣) سورة البقرة/ ٧٤.
(٤) سورة الحديد/ ٢٧.
(٥) سورة الزمر/ ٢٣.
(٦) سورة الشعراء/ ٨٩.
(٧) سورة الصافات/ ٨٤.
(٨) سورة الأحزاب/ ٣٢.

وقال أيضاً: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].
وغير ذلك من الآيات.

القلب المنيب، أي القلب الذي يعود إلىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾[2].

القلب المختوم، الذي وضع عليه قفل فلا يمكن للمعرفة أن تدخله، وفيه آيات كثيرة، نكتفي منها بما يأتي:

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾[3].

وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾[4].

الضغينة القلبية قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[5].

القلب الذاكر والعارف للحقائق، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[6].

القلب بوصفه مهبطاً لنزول الوحي، قال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[7].

---

(١) سورة البقرة/ ١٠.
(٢) سورة ق/ ٣٣.
(٣) سورة غافر/ ٣٥.
(٤) سورة الحشر/ ١٠.
(٥) سورة ق/ ٣٧.
(٦) سورة ق/ ١٩٤.
(٧) سورة الشعراء/ ١٩٣ ، ١٩٤.

وقال أيضاً: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾[1].

القلب المغلّف، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾[2]. وآيات كثيرة أخرى.

[أحد الحاضرين]: ما معنى الغلف؟

[الدكتور بهشتي]: يقال أحياناً: إن القلب مقفل، وأحياناً يقال: إن القلب موضوع في صندوق مقفل وعندها يكون القلب محبوساً ومحصوراً في نطاق أسباب أخرىٰ تحول دون وصول المعرفة.

القلب والحسرة، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾[3].

ميل القلب إلىٰ عبادة العجل، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾[4].

دور القلب والفؤاد:

يطلق القلب والفؤاد علىٰ المعرفة الباطنية والمعرفة المرتبطة بمصير الإنسان؛ وبما أنَّ هذه المعرفة تترك ردود فعل علىٰ القلب العضوي، فاستعمل القلب للدلالة علىٰ هذه المعرفة، والنتيجة هي أن القلب يطلق بالدرجة الأولى علىٰ القلب العضوي، وبتبع ذلك يطلق علىٰ القوى

(١) سورة البقرة/ ٩٧.
(٢) سورة البقرة/ ٨٨.
(٣) سورة آل عمران/ ٨٨.
(٤) سورة البقرة/ ٩٣.

الادراكية التي لها ارتباط بالقلب العضوي، ولذلك نرى أن قوة الادراك تصحب جميع الأمور الآتية: الخوف والفزع والأمل والتقوى والخشية من الله والخشوع والخضوع والرحمة والرأفة والقسوة والغضب وأمثال ذلك مما تقدمت أمثلتها، وأن جمع هذه الموارد تناسب هذا النوع من المعرفة.

حصيلة البحوث بشأن أدوات المعرفة:

لقد كانت حصيلة بحوث أدوات المعرفة في القرآن الكريم عبارة عن: العين والأذن والحواس الأخرى، شريطة أن تكون في خدمة قوى الادراك الباطنية وتوجيهها نحو الحياة المستقيمة، وبهذه المناسبة عبر عن تلك القوى بالقلب، وهناك بحوث في هذا المجال في الكتب والمصادر القديمة والحديثة، وقد دونت بعضاً منها لنفسي، إلاّ أني سأكتفي هنا بالإشارة إليها كيما يراجعها الأصدقاء فيما بعد إذا شاؤوا ذلك.

نقل صدر المتألهين في الجزء الثامن من أسفاره في بحث النفس في نهاية الباب السادس الذي خصصه لأعضاء المعرفة كلاماً من كتاب آخر، وقد قبله هو بشأن الروح والقلب، كما أنه استند ـ في ص٣٢١ من الجزء نفسه ـ إلىٰ ارتباط الروح الإنسانيّة ـ التي لها قابلية الادراك والمعرفة ـ بالقلب العضوي قائلاً: (إن الروح الإنسانيّة لها ارتباط بهذا القلب العضوي) الذي عبر عنه بـ (المضغة) وهناك بحوث حول هذه المسألة في الكتب والمصادر القديمة والحديثة تقدمت الإشارة إلىٰ بعضها، إلاّ أنني وجدت أن هذا الفهم ـ بشأن ارتباط القلب بوصفه أداة للادراك بالمعرفة ـ هو الأسلوب الأصح، ومعه لا نغدو بحاجة إلىٰ الرجوع إلىٰ البحوث المتقدمة، وهي ليست أصح فحسب؛ بل تحتوي علىٰ فائدة تعليمية تعود بالدرجة الأولى إلىٰ هدايتنا إلىٰ المعرفة التي لها مساس بمصيرنا، وهذه مسألة جديرة بالاهتمام ويمكنها أن تترك آثارها علىٰ دقّات قلب الفرد والمجتمع.

وبذلك نختم بحث المعرفة من وجهة نظر القرآن الكريم، وكان علينا

أن نشير أيضاً إلىٰ الصدر في القرآن الكريم، إلاّ أننا نقول اجمالاً إن ارتباط الصدر بالمعرفة يمكن الحصول عليه مما تقدم، بمعنى أن مكان القلب لما كان في الصدر فلأجل هذه الحالّية والمحلّية يكونان بمعنى واحد وليس هناك شيءٌ زائد علىٰ ما تقدم، ولذلك سوف نتجاوز هذا الموضوع وبإمكانكم العثور علىٰ آياته في مفردة الصدر.

[أحد الحاضرين]: ما معنى شرح الصدر؟

معنىٰ شرح الصدر:

[الدكتور بهشتي]: إن هذه المسألة ترتبط بفهم القرآن، فإنَّ شرح الصدر الوارد في القرآن كما هو جارٍ علىٰ ألسنتنا أو كما عليه اصطلاح السادة من أهل النظر يطلق عادة علىٰ من يتمتع بسعة الصدر، أي أننا نتصور أن الانشراح بمعنى الاتساع، في حين أن القرآن لا يريد ذلك، وإن كانت النتيجة قد تؤدي إلىٰ هذا المعنى إلىٰ حدٍّ ما، إلاَّ أن أساس المعنى شيءٌ آخر، فإن المراد من قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١)﴾[1] هو ألم نخرج الكمد من صدرك، أي كان صدرك ضائقاً فشرحناه. ولذلك قال تعالىٰ بعدها: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣)﴾[2].

وفي آية أخرىٰ يدعو موسى ربه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى (٢٥) وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى (٢٦)﴾[3] فلاحظوا كيف أن تعاقب الآيات وارتباطها ببعضها يؤيد ما قلناه.

وأساساً إن شرح الصدر يعني أن هناك عاملاً داخلياً أدى إلىٰ ضيق صدر الإنسان، وإزاحة ذلك الضيق تسمى بشرح الصدر، وعليه فإن شرح الصدر يعني بالدرجة الأولى إزاحة الغمّ أو سببه، سوى أن أحد أسباب

---

(١) سورة الانشراح/١.
(٢) سورة الانشراح/٢، ٣.
(٣) سورة طه/٢٥، ٢٦.

حزن الإنسان، بل أهمها هو ضيق الأفق والقصور الفكري، ولذا حينما نقضي على هذا القصور الفكري وضيق الأفق ليحل محله انشراح الأفق والتفكير نكون في الحقيقة قد فتحنا أمامه السبيل إلى انشراح الصدر، وهذا وإن لم يكن معنى لشرح الصدر، إلاّ أنه بسبب تلك العلقة وذلك الارتباط استعمل في المعنى ذاته أيضاً.

وقد ذكرت كتب التاريخ والسيرة وربما منها سيرة ابن هشام وصحيح البخاري في بيان نزول هذه الآية تفسيراً آخر نُعرض عنه لعدم ارتباطه ببحثنا.

هذا فيما يتعلق بمسألة شرح الصدر، وبذلك نكون قد انتهينا من أدوات المعرفة في القرآن الكريم.

[أحد الحاضرين]: لا أدري ما إذا كانت هذه آية أم لا: (فمن شرح الله صدره للإسلام...)

[الدكتور بهشتي]: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[1].

[الشخص نفسه]: إن شرح الصدر هنا بمعنى انفتاحه، وليس بمعنى إخراج الحزن منه.

[الدكتور بهشتي]: كلا! كلا!.

[الشخص ذاته]: كذلك الأمر بالنسبة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾[2] أي أنه يقول: بما أن...

[الدكتور بهشتي]: كلا! فهو يقول: إن هؤلاء لا يفهمون كلامي، وهذا بالنسبة إلى الوحي فهو يقول: احلل عقدة من لساني حتى أحدثهم بأسلوب واضح ومفهوم لكي يعوا ويتدبروا ما أقول.

---

(١) سورة الزمر/ ٢٢ .

(٢) سورة طه/ ٢٥ ـ ٢٨ .

تفسير آية: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾:

أما قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾[1] فهناك ما هو في مضمونه، ولكن بالنسبة إلىٰ الكفر وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾[2] أي الذي ينشرح للكفر ويفرح به، فيكون المراد من شرح الصدر في الآية المتقدمة هذا المعنى بالذات، وإلاّ فإن (من شرح بالكفر صدراً) لا يمكن أن يراد منها انشراح الصدر، وقد ورد في آية أخرىٰ (آية التقية): ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3] فلا يمكن لهذه الآية إلاّ أن تفيد هذا المعنى.

وتقول آية أخرى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ وذلك بجعله يفرح بالإسلام، فهذه الآية تتناسب مع هذا المعنى أيضاً.

وأما الآية التي سألتم عنها، فهي قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾[4].

هذا فيما يخص مسألة الصدر في القرآن وارتباطه بالمعرفة، وبذلك ينتهي بحثنا حول أدوات المعرفة، ومنه ننتقل إلىٰ البحث التالي. وقبل كل شيء اسمحوا لي أن أعرّفكم بموضوع البحث التالي ليتسنىٰ للإخوة الراغبين أن يطالعوا بشأن ما سنبحثه، وبعدها سأكون علىٰ استعداد كامل للإجابة علىٰ اسئلتكم.

إن بحثنا القادم سيدور حول بُعد المعرفة والعوامل المؤثرة في هذا البعد، والبحث الذي سيليه يدور حول موضوع المعرفة وممهّداتها، وهو بحث ذو صلة وثيقة ببحث بُعد المعرفة، وقد يكونان من الناحية العمليّة

---

(١) سورة الزمر/ ٣٢.

(٢) سورة النحل/ ١٠٦.

(٣) سورة النحل/ ١٠٦.

(٤) سورة الأنعام/ ٢٥.

متداخلين، إلاّ أننا في الوقت نفسه سنبحثهما كلاً علىٰ حدة، وبعد ذلك سنبحث عن صحة وسقم المعرفة وأساليبها، والذي سيكون في الحقيقة استنتاجاً لبحث المعرفة بمعنى كيف ينبغي أن نعرف، وما هو الأسلوب الذي يجب اتباعه، وهناك سنضطر إلىٰ البحث عن الديالكتيك والمعرفة أيضاً، وبذلك نختم بحثنا. هذا هو مسار البحث، وعليه فإننا سنتعرض لثلاثة أبحاث، وأطلب أولاً من شخص أو شخصين أن يبينا رأيهما بشكل مختصر لندخل بعد ذلك في استشارة الجميع.

[أحد الحاضرين]: هل يشمل ما ذكرتموه من تحليل وتمحيص لانقباض صدر الإنسان أو الأشخاص المسلحين بالفكر والمنطق مع عجزهم عن تقبّله أو استخدامه بشكل صحيح؟

[الدكتور بهشتي]: قطعاً لا بد أنه يشملهم جميعاً.

سؤالي هو: هل ترون من المناسب الاستمرار في بحث المعرفة في الارتباط بآيات القرآن علىٰ الوتيرة السابقة؟ وهل سنقتصر علىٰ نقل البحوث الأخرىٰ بحدود الضرورة وبالمستوى الذي يساعدنا علىٰ فهم القرآن، وقد ذكرت أنَّ بحوثنا القادمة ستكون علىٰ النمط الآتي: بُعد المعرفة، وموضوع المعرفة (ما هي الأمور التي يمكن معرفتها) وأسلوب المعرفة، ومعيار الصحة والسقم في المعرفة (وهنا سنذكر ارتباط المعرفة بالديالكتيك) وسأبين المسألة في حدود الضرورة، إلاّ أن هدفنا هو ما نفهمه من القرآن في هذا الخصوص، والآن إذا كان هناك مخالف أو موافق فليتفضل بإبداء رأيه لنسأل الجميع بعد ذلك عن آرائهم بشكل عام.

[أحد الحاضرين]: أنا أوافقكم في التلخيص الذي ذكرتموه عن الجلستين القادمتين وما سوف تتمخضان عنه من مقارنة بين المعرفة الإسلامية والمعرفة في المذاهب الفكرية الأخرى.

[الدكتور بهشتي]: طبعاً أنا لا أعلم عدد الجلسات التي سوف

يستغرقها البحث؛ إذ كما قلت إننا نروم عدم التطويل، وأما اطالة البحث في القلب فسببه يعود إلىٰ أنه كان يرتبط إلىٰ حدٍّ ما بأسلوب فهم القرآن، فإذا اردتم أن تفهموا القرآن فهماً حقيقياً فلا طريق لكم إلاّ تلخيص الآيات بالنحو الذي تقدم، أي أن علىٰ الإنسان بدلاً من الرجوع إلىٰ المعاجم والبحوث اللغوية المحضة أن يتبع استعمالات اللفظة في الكتاب نفسه؛ حتىٰ يتعرف علىٰ وظائفها، وأما الرغبة التي أبداها بعض الأصدقاء في أن يكون نمط البحث بشكل يوضح ضمناً أسلوب الاستفادة والرجوع إلىٰ آيات القرآن، فإنني طبعاً قد مزجت البحث بهذه الطريقة.

أما أنت فقد ذكرت أنك تتفق معي، فهل هناك مخالف؟ يبدو أن ليس هناك مخالف، فلا حاجة إلىٰ المشورة العامة.

[أحد الحاضرين]: لقد تداول الإخوة ضمن هذه الجلسات (ولا علم لي طبعاً بالجلسات القادمة) مسائل يمكن عدّها من وادٍ آخر، فنحن لا نعلم كيف يمكننا ـ من خلال الاستفادة من هذه الجلسات ـ أن نجيب عن المسائل التي تواجهنا، فمثلاً بالنسبة إلىٰ أدوات المعرفة علينا أن نعلم أن القرآن يعتبر القلب والأذن والعين أدوات للمعرفة، ولكن الذي لا يعترف بالقرآن سوف لا يعترف بكلامنا بأجمعه، لأنه يذهب إلىٰ أن أداة المعرفة الوحيدة تنحصر في المخّ وما يحصل فيه من أفعال وانفعالات كيمائية وأمثال ذلك.

[الدكتور بهشتي]: هل كنت حاضراً في جميع جلساتنا؟

[الشخص نفسه]: نعم.

[الدكتور بهشتي]: إذن إما أن يكون الخلل في كلامي أو في ذاكرتك! فقد سبق في معرض كلامنا حول تعريف المعرفة أن قلنا: لا شأن لنا بحقيقة المعرفة، وما إذا كانت مادية أو مجردة. . .

[أحد الحاضرين]: ليس بإمكاننا التهرّب من هذا البحث.

[الدكتور بهشتي]: هذا ليس تهرّباً! فإنا نقول: إن ما نريده هو أن هذه الانفعالات الكيميائية للمخ (في بحث المعرفة، إذ أن بحث تجرد الروح شيء آخر) هل تساعدني علىٰ فهم شيء آخر أم لا؟ كان هذا هو السؤال المذكور. وكان الجواب: أنَّ الذي يكفينا في هذا البحث هو أن نفهم أننا ندرك ونعي، فإننا من خلال سلسلة من الفعل والانفعالات سواء أكانت كيميائية أم مُلكية أم ملكوتية أم لاهوتية أم ناسوتية، لنا قابلية إيجاد الارتباط بما يحيط بنا ونسمي ذلك الارتباط بالوعي، وقلنا إنه لا يوجد تعريف للوعي، لأن الوعي هو أقرب شيء لنا، وما كان كذلك لا يمكن تعريفه، وهذا هو البيان الذي تقدّم في بحث تعريف المعرفة. فكيف تقولون إننا تجاوزنا هذه المسألة؟ والآن ضع نفسك مكان أكثر الشكاكين شكاً وأجبني حينما أقول: إنني أتعامل مع المعرفة علىٰ هذا المستوى فقط، وهو أنني الآن أشاهدك جالساً أمامي، فعندها أدرك وجودك دون أن يتغير الحال، سواء أكان ادراكي هذا كيميائياً أم فيزيقياً أم بيولوجياً أم سيكولوجياً أم ميتافيزيقياً.

[الشخص ذاته]: قد لا يختلف الحال بالنسبة لكم إلاّ أنه يختلف بالنسبة إلىٰ الباحثين الآخرين.

[الدكتور بهشتي]: لماذا؟

[الشخص نفسه]: لأنهم يريدون معرفة ما إذا كان ذلك الادراك مادياً أم غير ماديٍّ.

[الدكتور بهشتي]: لماذا يهتمون بهذه المسألة؟

[الشخص نفسه]: هذا هو نمط تفكيرهم، وبذلك يحاولون أن يثبتوا أن جميع ما في العالم هو ماديّ، حتىٰ الادراك نفسه.

[الدكتور بهشتي]: إذن نكون بذلك قد خرجنا عن موضوعنا، لأن هذا يعود بنا إلىٰ بحث المادية، وإن هذا السؤال إنما يكون نافعاً من ناحية

توضيح الأسلوب للإخوة. لاحظوا أيها الأعزاء، نحن نريد أن نعرف كيف نتعامل مع الأسئلة؟ فتارة نبحث هل هناك شيء وراء المادة أم لا؟ وعن هذا الطريق نريد الاستناد إلىٰ العلم والتجرد العلمي، وهذا أمر خارج عن حدود بحثنا الحالي، ولا بد من بحثه في المجرد والمادي دونه في بحث المعرفة، إذ أننا نبحث في المعرفة ما إذا كنا نعلم أو لا نعلم؟ وهل لمدركاتي الاجمالية القدرة علىٰ تفهيمي الواقعية العينية أو أنني لا أعي شيئاً خارج ذاتي؟ فالرجاء هو أن لا تخلطوا بين الأبحاث.

نعم لو كنا نبحث في المادة وأصالتها وشموليتها، وأنه ليس هناك في الوجود غير المادة، لكان الحق معكم، وربما في هذه الصورة لم أتطرق إلىٰ بحث المعرفة، ولتمسكت بإثبات غير المادة بدليل آخر، إلاّ أن بحثنا الآن هو: من الذين ادخل بحوث تجرد النفس وتجرد العلم المعقدة في بحث المعرفة؟ وهذا بحث آخر لا نتعرض له في بحث المعرفة، إذ أننا نتكلّم في بحث المعرفة في أن الإنسان يفهم أو لا يفهم، سواء أكان هذا الفهم مادياً أم ميتافيزيقياً، فالبحث في أن ذهني إجمالاً هل له القدرة علىٰ بيان العالم العيني أم لا؟ بديهي أن الذهن يمتلك مثل هذه القابلية، ولا يمكن النقاش بشأن الأمور البديهية. وبالمناسبة قد أشرت إلىٰ هذا الإشكال، وذكرت السبب في عدم التطرق لهذا البحث، وقلت إن بحث تجرد المعرفة وماديتها ليس له أي تأثير في المعرفة، والذي له تأثير هو ما لاحظتموه فيما يرتبط بالقرآن. فأولاً: ما الذي يقوله القرآن بشأن أدوات المعرفة، وأن كون القرآن لا يهتم بالمشاهدة والحس هو محض افتراء غير وارد علىٰ القرآن، فقد رأينا أن القرآن يبدأ المعرفة بالمشاهدة والحس ليصل إلىٰ مرحلة الفهم والاستنتاج، ووجدنا أن آيات أدوات المعرفة هي: السمع والبصر والفؤاد. وأتصور أننا في هذه البحوث طرقنا المسائل التي تُطرق في

بحث المعرفة، فرأينا أن اتهام القرآن بعدم الاهتمام بالحس والمشاهدة لا أساس له من الصحة، إذ أن القرآن اهتم بالمشاهدة دائماً، إلاّ أنه يرى ضرورة أن تكون هذه المشاهدة مصحوبة بالتدبر، وقد عُبِّر عن هذا التدبر بالقلب والفؤاد للسبب المتقدم.

[أحد الحاضرين]: إذا كان من اللازم أن نبحث في المعرفة وكيف يمكن للإنسان أن يتعرف علىٰ الأمور المحيطة به، فلست أرى كفاية الرجوع إلىٰ القرآن، ذلك أن النبي ﷺ أمرنا بالتمسك بالثقلين، وإننا إذا تمسكنا بأحدهما دون الآخر لما أمكننا أن نعطي البحث حقّه، كما وقع إخواننا السنة في هذا المحذور، فبرغم اهتمامهم بالقرآن والذي ربما فاق اهتمامنا، إلاّ أنهم لم يتوصلوا إلىٰ درك حقائق القرآن كما هي، ولذلك أرى من الأفضل أن نهتم بالأحاديث الواصلة عن طريق أهل البيت والمعصومين عليهم السلام إلىٰ جانب الاهتمام بآيات القرآن.

[الدكتور بهشتي]: أشكركم، لقد ذكرتُ مراراً أن بحثنا في القرآن لا يعني أننا نهمل العقل قبل القرآن، ولا السنة والعترة بعده، وذلك لأن ترتيب الأمور الطبيعي يقتضي أن نحكِّم عقلنا للوصول من خلاله إلىٰ القرآن، ومنه إلىٰ السنة والعترة، وهذا ما سنذكره في بحث الأساليب، ولكننا حينما ندخل في بحث الروايات والسنة نواجه مشكلة لا نواجهها في القرآن، فما هي تلك المشكلة؟

[أحد الحاضرين]: صحة الرواية أو خطؤها.

[الدكتور بهشتي]: الأفضل عدم التعبير بالصحة والخطأ، بل المشكلة أن هذا الكلام الموجود في هذا الكتاب هل هو من السنة أو لا؟ وهل هو قول النبي ﷺ والإمام عليه السلام وفعله وتقريره أو لا؟

في حين أننا لا نواجه هذه المشكلة في القرآن، ولحل هذه المشكلة

فقد بادرت السنة نفسها إلىٰ تأسيس قاعدة لتكون معياراً لنا في تمحيص الروايات، وهي قاعدة العرض علىٰ كتاب الله[1] فما الذي نفهمه من هذا المعيار [. . .][2] أي بما أن اجتياز المراحل بأجمعها يحتاج إلىٰ مدة أطول فقد عمدنا إلىٰ تقسيم المسألة إلىٰ مراحل، دققوا جيداً، فإني أرى أن هذه معادلة جيدة تنطبق علىٰ مصادرنا، بل تتعلق أساساً بالكتاب والسنة، ولدينا بحث عملي تفصيلي بشأن الكتاب والسنة بشكل عام، وقد طرقه السنة والشيعة منذ القدم، ورحم الله السيد آيتي، فإن له ـ بحسب علمي ـ عدة محاضرات في هذا المجال وإن كانت مختصرة جداً، إلاّ أنه بيَّن من خلالها هذا الموضوع، وقد طبعت في (حديث الشهر)[3].

أسلوب فهم القرآن:

إن الأسلوب الذي أنصحكم به لفهم القرآن هو الالتفات إلىٰ القرآن الكريم لغةً وزماناً (فهذان أمران ضروريان، إذ من دونهما لا يتسنى لشخص أن يفهم القرآن) وبذلك سوف نصل إلىٰ مقدار من المعارف الإسلامية تشكل هيكلية للإسلام (وإن لم تكن متكاملة) وذلك لأنه في أكثر الموارد تكون المسائل كلية وبحاجة إلىٰ تفصيل، وفي كثير من الموارد يفهم القرآن فهماً سطحياً، وأن التوسع في مطالب القرآن ليس له سوى طريق واحد، وهو الرجوع إلىٰ السنة والعترة، الأمر الذي لم يكن متداولاً في مجتمعنا لا سيّما بين الشيعة وعلى الخصوص بين غير المختصين فظهرت ـ للأسف الشديد ـ أكثرية غير صالحة لا تملك حق التحدث باسم القرآن والسنَّة

---

(١) وهي روايات كثيرة، منها: (ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف) وعن الإمام الصادق عليه السلام: (إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله، وإلاّ فالذي جاء به أولى به) راجع كتاب فضل العلم باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب من أصول الكافي.

(٢) قطع في نهاية شريط التسجيل.

(٣) (گفتار ماه).

والعترة، وأخذت تقدِّم للناس ما بدا لها أن تقدِّمه لهم باسم القرآن والسنَّة، في حين أنها علىٰ الطرف النقيض منهما، ولذا فقد أمرنا النبي ﷺ والإمام علي عليه السلام بقولهما: (إذا اجتمعت عليكم الفتن فعليكم بالقرآن)[1].

وما أردنا من إحياء القرآن في المجتمع إلاّ بمستوى فهمه، حتىٰ يكون أساساً ومنصة قوية ننطلق منها ونحلق بأجنحة السنة والعترة والعقل، وذلك لأن للعقل وظيفتين إحداهما: توصلنا إلىٰ الكتاب والسنة، والثانية: تمكّننا من الاستفادة من الكتاب والسنة.

إذن تلاحظون أن عملنا حالياً في هذا الاطار محدود جدّاً، فإننا نحاول فهم القرآن من خلال تلخيصه، ليكون معياراً لعرض السنة علىٰ كتاب الله، وإلاّ لزم الدور، إذ أننا كيف نعرف الكتاب؟ عن طريق السنة والعترة، وكيف نعرف السنة؟ عن طريق عرضها علىٰ كتاب الله، وهذا دور، يمكن فهم الكتاب إلىٰ حدٍّ ما من خلال التعرف علىٰ لغته وزمانه، وهذا ما يقوله القرآن والأحاديث، وأما الذي يقول: (حسبنا كتاب الله) ويحاول الاكتفاء بالقرآن فقط، فقد فاته أنه لا يمكن توسيع مفاهيم القرآن وتعمقها إلاّ من خلال ولوج هذا الباب. ومع الأسف لا زال هناك من يرى الاهتمام بالقرآن منحصراً بـ (حسبنا كتاب الله) فلا ينبغي ارتكاب هذه الغلطة، إذ يجب الرجوع إلىٰ القرآن إلىٰ حدٍّ ما، كما تجب الاستفادة من السنة والعترة بمعيارها الخاص. رحم الله السيد البروجردي، فقد كان عمله ـ بوصفه استاذاً ـ يحظى بقيمة عالية، اتذكر في بحثه الفقهي وصل الحديث إلىٰ هذه المسألة، وكانت هناك روايات لا بد من طرحها وفقاً لقاعدة العرض علىٰ كتاب الله، إلاّ أن بعض الأكابر من العلماء حتىٰ الأزمنة السابقة لم يطرحوها، وكان السيد البروجردي من عمالقة علم الحديث، وقد قدّم خدمات جليلة في هذا الفن لسنوات عديدة، وإذا تطرق الكلام حول ذوي

---

(١) راجع أصول الكافي، كتاب فضل القرآن.

الكلمة الفصل في تاريخ التشيع ذُكر السيد البروجردي بوصفه أعظم علماء الحديث، فقد انتقد الذين لم يرقوا إلىٰ مستواه في هذا الفن، وإن كانوا من العلماء البارزين ممّن سبقوه، وعاب عليهم عدم طرح تلك الروايات، ثم استدرك قائلاً: نعم لقد أوصانا الرسول ﷺ بقوله: (إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي) أو وسنتي والعترة لا يمكن أن تنفك عن السنة لأنهما شيء واحد، إلاّ أن العامة اهملت الثقل الأصغر، فبادرنا نحن ـ كي لا نتخلف في حلبة السباق هذه ـ إلىٰ إهمال الثقل الأكبر. وبهذه الدعابة بيَّن شكواه المرّة من هجران القرآن في مجتمعنا، فلم يكن في حوزة قم الشيعية (بل أكبر الحوزات الشيعية آنذاك فما ظنك في يومنا هذا إذ انحصرت حوزة التشيع بها بعد أن تكسرت أجنحة حوزة النجف) درس في علم الأخلاق، نعم قد أخذ درس التفسير مجراه في هذه العقود الثلاثة، وهكذا الأمر بالنسبة إلىٰ مجتمعنا فإني أرى أن حلقات التفسير في مجتمعنا من أهم الحلقات لتعليم الإسلام، وعلى كل حال فالمبنى الذي ذكرته مراراً في البحوث المختلفة واضح، وهو: العقل والتفكير والتعقل. بمعنى الانطلاق من البديهيات التجريبية والاستنتاجات التحليلية للعقل، فلا تعودوا إلىٰ القول بأن المراد من العقل هنا هو العقل المجرد أو المادي أو غير ذلك، إن التدبر والتحليل يبدأ من المعلومات البديهية وينتهي إلىٰ المعلومات النظرية وقد تقدّم بحثها، هذه هي الخطوة الأولى، ثم بعد ذلك نصل إلىٰ الوحي والكتاب، وبعده إلىٰ السنة والعترة، ثم لا بد من التدبر والتحليل مرّة أخرىٰ ونتقدم إلىٰ الإمام، وهذه المرحلة إنما هي للتعرف علىٰ القرآن الكريم.

والآن إذا كان لدى الأصدقاء رأي مخالف لهذا الأسلوب فليتفضلوا به.

[أحد الحاضرين]: بما أني أوصيت في هذا الموضوع قبل سبع جلسات أو ثمانٍ حول بحثكم بشأن. . . القرآن والحتمية، وكانوا مخالفين ولا يزالون حتىٰ وصولنا إلىٰ هذا البحث، وفي هذه الليلة حيث قلتم سنصل

في الليلتين القادمتين (الخامسة عشرة والتي تليها) إلىٰ الديالكتيك والبراكسيزم، وقلت بأننا سنحذف مقداراً كبيراً من المباحث الزائدة التي تذكر في حلقات التفسير والتي ليس لها جنبة علمية عينية أبداً، وتستغرق وقتنا وتعرقل بحثنا، وسوف نرى في الختام أن مقداراً من الكلام الذي ذكرناه قد أدرج في كتب أكثر تفصيلاً. . . وحتى أننا نشك بها، ومن بينها كتابك المسمى بـ «فلسفة الدين» وأنا أوافقكم في الرأي بالنسبة إلىٰ الترتيب الذي وعدتم به في هذه الليلة إذا وصلنا إلىٰ الديالكتيك لنصل إلىٰ البراكسيزم، وقد ذكرتم في بداية بحثكم مسألة اعتبرها أصلاً، فقد ذكرتم أن المعرفة لا توجد حركة بشكل مطلق، وإنما إذا كانت هناك حركة فيمكن للمعرفة أن تدعمها، وحينما ذكرت أن حلقات التفسير القائمة حالياً أكثرها بل ٩٩٪ منها مخربة، قلتم: إن ذلك من ناحية الجهة، كما قلتم بشأن الحركة: إن الحركة لا بد أن تكون موجهة، فإذا اختلفت جهة المفسر بمقدار ١٪ فسوف تكون الهوّة هائلة بعد مضي أربعة عشر قرناً، وإن جميع مآسينا في هذه القرون تعود إلىٰ عدم وحدة الجهة، حتىٰ أن إسلام مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام وأبي ذر الغفاري يختلف عن إسلامنا نحن الشيعة بمقدار ١٨٠درجة فكلما كان الإسلام في تلك الجهة متسامياً، كان عندنا متدنياً، فلا نرى حالياً سوى ٨٠٠ مليون مسلم علىٰ مستوى التسمية فقط، إذ هم أذلاء بأجمعهم لا حول لهم ولا قوة.

[الدكتور بهشتي]: أشكركم، إذن بعون الله سنستمر في حلقاتنا الآتية علىٰ هذه الوتيرة التي ذكرناها، ويمكن للإخوة مطالعة الكتب التي تروق لهم، وأن يذكروا اشكالاتهم بشأن البُعد الذي نذكره بحرية كاملة، فالبحث ـ وإن كان قرآنياً ـ إلاّ أن هذا لا يعني أننا نحاول اغفال الأمور الأخرىٰ بلا سبب، إلاّ أننا في الوقت ذاته لا نريد أن نضيع وقتنا في بعض المسائل التي لا فائدة من البحث فيها. ففي مسائل المعرفة هناك مسائل كثيرة لا داعي أن نقف عندها، وإذا كان هناك أي أمر مبهم اسألوا عنه لنوضحه لكم، وإذا

كانت هناك مسألة سيأتي بحثها لاحقاً سنشير إلىٰ ذلك ونوكله إلى ما بعد.

وانتهىٰ بحثنا هنا، إذا كان لدىٰ الإخوة أسئلة حول بحث هذه الليلة يمكنهم البقاء، سأبقىٰ بخدمتكم لربع ساعة قادمة، ومن كان بيته بعيداً يمكنه الذهاب.

الجلسة الثامنة

بُعد المعرفة:

تحدثنا في البحث السابق عن ارتباط القلب بنوع آخر من أنواع المعرفة وهو: الوحي، وأوكلنا هذه المسألة إلىٰ البحث في بُعد المعرفة وأنواعها، وقد أشرنا إلىٰ هذا البحث سابقاً وسوف نكرره بمناسبة أخرى، وسنشرع هذه الليلة في بحث بُعد المعرفة.

إن بحث بُعد المعرفة يرتبط بموضوع المعرفة وأسلوبها، إلاّ أننا رغم ذلك أفردنا موضوع المعرفة وأسلوبها بفصلين مستقلين، وقد ذكرت بعض المسائل هناك، فعرفنا أن الإنسان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمحيطه، وهذا الارتباط هو الذي نسميه بالمعرفة، وكلنا ندركه دون حاجة إلىٰ تعريفه، وقد فهمنا أن وظيفة هذا الارتباط الأساسية هي إبانة الحقائق العينيّة، ونحن اجمالاً لا نشك بهذه الابانة، كما عرفنا أن الله سبحانه قد زودنا بأدوات يمكننا من خلالها الاتصال بما يحيط بنا، حتىٰ إذا زالت إحدى هذه الأدوات أُصيب ارتباطنا من بعض النواحي بالخلل (من فقد حسّاً فقد علماً)[1].

والآن نحاول تعرّف بُعد هذا الارتباط، وسنترك ذكر الآراء الباطلة، ونكتفي فقط بالتعرض إلىٰ الآراء التي لم يتضح بطلانها.

ما هو مدى بُعد المعرفة؟ ليس هناك من يشك في قيام رابطة المعرفة بيننا وبين ظواهر الأشياء، فلست أشك مثلاً في قدرتي علىٰ تشخيص الألوان، فكلنا يعرف أن لون هذه المكتبة يختلف عن لون هذه الستارة،

---

(١) جملة مشهورة عن ارسطو.

نعم قد يرى بعض الأشخاص اللون أغمق أو أفتح، إلاّ أنه يفرّق بين الألوان علىٰ كل حال، إذن فنحن نعرف اللون، ونعرف الشكل، فنفرّق بين الشكل الكروي والشكل المكعب، كما أننا نعرف الروائح اجمالاً، فنميز بين الرائحة الطيبة والرائحة النتنة، ونعرف الطعوم فنميز المالح من الحلو، كما نعرف المقادير، ونعرف الأنواع فنفرق بين الجسم الناعم والخشن بواسطة اللمس، كما نختبر مرونة الشيء وصلابته بواسطة الضغط، وندرك الحرارة والبرودة، هذا كله علىٰ نحو اجمالي؛ إذ قد يمكن احياناً أن أضع يدي في الثلج مدّة طويلة حتىٰ تخدر أعصابها، فلا أعود أُحس بشيءٍ بعدها، ولذلك نقول: إننا نعلم اجمالاً. إذن ليس هناك شك في قيام هذا البعد من المعرفة والارتباط بيننا وبين هذه الأعراض، وظواهر الأشياء وعوارضها وصفاتها وخصوصياتها، ولكن هل يذهب هذا البعد من المعرفة إلىٰ ما هو أبعد من ذلك؟ ما المقصود من الأبعد هنا؟ نحن تارة نستعمل الأبعد في المسافات المكانية، فمثلاً أنا أرى هذا اللون من هذه المسافة، ولكنني لا أراه فيما إذا كانت المسافة بيننا فرسخاً. أو أنني أشاهد حبة السكر المكعَّب هذه، إلاّ أنني لا أراها فيما إذا ابتعدت عنها مسافة مئة متر، هذا هو المراد من البعد، فإذا تمكنت مثلاً من رؤية هذه الحبة بواسطة التلسكوب من مسافة تقدر بخمسين كيلو متراً فسوف يكمن إبداعي في رؤيتها كما لو أن شخصاً قد جلب هذه الحبة من تلك المسافة ووضعها أمام عيني.

ونحن لا نقصد من زيادة بُعد المعرفة هذا الشيء، فنحن لا نتحدث هنا حول هذا النوع من اتساع أبعاد المعرفة بواسطة الأدوات التي تتسلح بها الحواس، مثل المكرسكوب والتلسكوب وأمثالهما مما له أثر كبير في حياتنا المعاصرة؛ لأنها أمور واضحة، فأنا في الظروف الاعتيادية يمكنني رؤية لون هذه الصفحة من مسافة خمسة أمتار أو أكثر، نعم قد لا أتمكن ـ فيما إذا وقفت علىٰ بُعد أربعين متراً من التمييز بين لون صفحتين إحداهما خضراء والأخرى زرقاء فأراهما سوداوين، بخلافه فيما لو تسلحت بمنظار، فعندها

سأتمكن من التمييز بين الصفحة الزرقاء والخضراء، وهذا البعد ليس هو المراد من بحثنا، وإنما الذي نريده هو أننا هل نتمكن مضافاً إلىٰ معرفة الظواهر والصفات وعوارض الأشياء أن نتعرف علىٰ جوهر الأشياء وذاتها أو لا؟ وهذا بحث واسع جداً، وجادّ للغاية.

معرفة الذات:

هل يمكن للإنسان أن يتعرف علىٰ كنه الأشياء وذاتها وجوهرها، أو أن معرفته تقف عند الظواهر والسطوح؟ تعلمون أن بعض المفكرين في بحث المعرفة في هذين القرنين الأخيرين ذهبوا إلىٰ عدم تمكن الإنسان من معرفة الجوهر والذات، لا سيّما (كانت) فله بحوث تحليلية واسعة في هذا المجال، وهذا البحث من المباحث الجادة التي تستغرق وقتاً طويلاً، إلاّ أنها تنفع الذين يريدون دراسة فلسفة المعرفة، فهل هذا الموضوع مهم لي ولكم في بحثنا هذا حول المعرفة أم لا؟ إننا لا نريد تجاوز هذه المسألة، وإنما نريد أن نرى هل هي مهمة لنا أم لا؟ ولذلك سوف نحاول ايضاحها من خلال ذكر بعض الأسئلة.

لا شك في أننا ندرك حقيقة اللون والشكل، وأن لهما حقيقة عينية مستقلة عنا، وأنهما يتعلقان بالجسم، وأن للجسم واقعية عينية في الخارج، فليس لدينا أدنى شك في أن للجسم لوناً وشكلاً و- جماً في العالم العيني والخارجي، إذن فنحن لا نشك في أن لدينا جوهراً، أي أننا جسم يعرض عليه اللون والشكل وأمثال ذلك من العوارض والصفات، وأن لهذه الصفات ذاتاً تتعلق بها، وأحياناً قد يوسوس لنا الشيطان، فإذا قيل مثلاً: إن اللون من أوضح الواقعيات العينية. قال: وهل تتصور أن للون واقعية عينية؟ إن اللون ليس سوى شيء يظهر بتأثير طول الأمواج، فإن الأمواج الضوئية إذا كانت بهذا المقدار وجد اللون الأبيض، وإذا كانت بمقدار آخر وجد اللون

الأحمر، وإذا زاد عليه حصلنا علىٰ الأزرق ثم البنفسجي، وإن مقدار طول الأمواج الذي يريكم اللون البنفسجي قد يراه الآخر أصفر، ولكن متى أردنا أن نبحث علىٰ هذه الطريقة؟! ناشدتكم الله، اتركونا وشأننا! فنحن إنما نريد علىٰ جميع الأحوال ـ حتى لو سلمنا بكلامكم ـ أن نقول: إننا ندرك الفرق بين لون هذه المكتبة ولون تلك الستارة، ومرادي من ذلك أن صفة هذه الحقيقة العينية تختلف عن صفة تلك الحقيقة العينية، إذن فكل إنسان يرى بواسطة عينيه شيئاً واحداً من خلال مواجهة الحقائق العينية، نعم يبدو أن المريض باليرقان قد يرىٰ الأبيض باللون الأصفر، إلاّ أننا لا نتحدث عن هذه الحالة الخاصة، برغم أن المريض اليرقاني حينما يرىٰ الأبيض باللون الأصفر، يرى الأصفر أشد صفرة، فلنترك هذه الوساوس جانباً ونتلو قوله تعالىٰ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[1] فإن هذه الوساوس لا تؤدي بنا إلىٰ طريق مفتوح، ولا تنفع إلاّ للتسلية، وقد تكون صالحة في البحوث الفيزيائية، وبحوث فلسفة المعرفة، إلاّ أن بإمكاننا تجاوزها بسهولة، فنحن نقول: إن التمايز والاختلاف بين الأشياء وصفاتها أمر واضح لنا، كما أننا لا نشك في أن لهذه الصفات ذاتاً تتعلق بها، فهل أدركنا ذلك من خلال الحس؟ هذا أيضاً لا يهمنا، فالذي نريده هو أننا ندرك وجود رابطة المعرفة بيننا وبين أصل الجوهر، فالجوهر هو تلك الحقيقة العينية التي ليست بعرض لأنها صفة لشيء آخر، هذا هو مرادنا من الجوهر والذات، وبرأيي أن هذا المقدار واضح وبيِّن جدّاً، وإذا كان هناك من له أدنىٰ إشكال فليذكره الآن.

[أحد الحاضرين]: قلتم إن هذه البحوث الفنية صحيحة في محلها،

---

(١) سورة الناس.

فإذا كانت صحيحة، يكون ذكرها هنا صحيحاً، وإذا لم تكن صحيحة فلا يصح ذكرها هناك أيضاً.

[الدكتور بهشتي]: حينما نقول إنه صحيح أو ليس بصحيح، لأجل أن الإنسان حينما يريد أن يبحث بشكل فني فإنه يحتاج لايضاح مسألة أو موضوع ما إلىٰ اللجوء إلىٰ الأمور الفنية دون الاجتماعية، فإنك إذا درست الفيزياء لا يمكنك أن تقول: لا ينبغي هنا ذكر المسائل المرتبطة بخصوصيات النور وما شابه ذلك، بل لا بد من ذكر مثل هذه الأمور، إلاّ أنك حينما تتعامل مع معرفة طرق الحياة من خلال الفيزياء، هل تحتاج إلىٰ تلك الأمور الفيزيائية الفنية الدقيقة؟ نحن نقول: إنما نلحظ هذا النوع من البحوث من ناحية وظيفته في تحديد وتعريف طرق الحياة والغاية منها، ولذلك نقول: إن ذلك النوع من البحوث لا يرد هنا؛ إذ لا دور له في هذا البُعد.

[أحد الحاضرين]: إن المسألة التي ثبتت في الفيزياء وقامت البحوث الرياضية بحلها تكون ثابتة لنا، فلا بد لنا من قبولها بعد أن تمَّ اثباتها في محلها، فهل يصدق هذا الأمر أيضاً بالنسبة إلىٰ موضوعنا؟ أي أن بعض هذه البحوث التي قلتم: إن علينا أن نقبلها. هل تمَّ حلها وإثباتها ضمن البحوث الفنية، لنقبلها هنا بوصفها أصولاً متسالماً عليها؟

[الدكتور بهشتي]: أريد أن أقول شيئاً آخر: إننا أحياناً عندما نريد أن نتعرّف علىٰ أسلوب الحياة من موضوع فيزيائي بمعزل عن تلك الأمور الدقيقة، وأنت حينما تريد مصارعة شخص، فالذي يهمك في البين هو مهارة الخصم وقوته، دون أن تهتم بالجينات التي تكوِّن انسجته العضلية والعصبية، أو أن الكروموزوم يتكون من الجينات أم إنها تتشكل من ذرَّات أصغر، كل ذلك لا يهمك لمصارعته، وإنما الذي يهمك هو قوة الخصم ومهارته وما شاكل ذلك.

[الشخص نفسه]: إننا نهتم بجيناته أيضاً، فنحن نلاحظ أن هذا الشخص قوي، فنتساءل عن سبب قوته.

[الدكتور بهشتي]: تحاول الإجابة عن هذا التساؤل حين المصارعة؟

[ذلك الشخص]: كلا! وإنما حين المصارعة أحسب حساب أن هذا الشخص قد تناول طعاماً غنياً بالفيتامينات والبروتينات ممّا سيؤثر في زيادة قوته؟

[الدكتور بهشتي]: حسناً، فلنقل إنه تناول طعاماً مقوياً ترك تأثيره عليه، لكن هل تهتم بنوع ذلك التأثير؟ إن هذا لا تأثير له في أصل المصارعة، كما أنه لا تأثير لأصغر أجزاء جسم ذلك المصارع هنا أيضاً، بينما إذا غدوت عالماً متخصصاً في فرع الأحياء، عندئذٍ لا يمكنك تجاوز هذه المسألة وعدم الاهتمام بها؛ لأنها تترك علىٰ المدى الطويل تأثيراتها في بحوثك العلمية من ناحية (علم الأحياء) دون (المصارعة).

فالذي نقوله هو: إن الذي يهمنا من جميع البحوث المنطقية والفلسفية والعملية وأمثالها، هو ذاك الذي يترك أثراً في اختياري للطريق الذي رسمته لنفسي، والذي يمكنه التأثير في اختياري في بحث بُعد المعرفة هو أن أعلم أن هذه الصفات لها ذات تتصف بها أم لا؟ وأما أنَّ معرفتي لذلك هل تكون بواسطة الحس أو بواسطة وسيلة إدراكية مساعدة. فهذا مما ليس له أثر في ما نروم بحثه؛ وذلك لأننا نعلم بأننا نعرفه، فالذي يهمني هو مقدرتي علىٰ المعرفة لا غير.

[نفس الشخص]: فلا ينبغي ذكر هذه المسألة في البحوث الفنية أيضاً، لأننا ندرك أن هذا اللون يختلف عن ذلك اللون سواء أكان البحث تخصصياً أم لم يكن.

[الدكتور بهشتي]: قلنا إن بحثه علىٰ المدى الطويل سيترك أثراً في البحث المتخصص، كما يؤثر بحث الجينات في النتائج العلمية في علم

الأحياء، فالإنسان لا يمكنه في تطوير العلوم أن يكون نفعياً إلىٰ هذه الدرجة حتىٰ يقول: قل لي الآن ما هو الأثر العملي لدراستي هذه؟ إلاّ أن الأمر هنا ليس كذلك، فأنا أحاول اختيار طريقة الحياة، فلا بد لي من معرفة الوعي الذي احتاجه في اختياري الواضح لهذه الطريقة وأن أتابع الأمر بهذا المقدار فقط.

لذلك فإننا نقول: إن الذي يرتبط باختياركم في مبحث المعرفة هو أن تعلموا اجمالاً أن لهذه الصفة ذاتاً تتعلق بها، فإذا كان لديكم أدنى شك في هذا المجال فتفضلوا به، وإلاّ تجاوزناه.

[أحد الحاضرين]: إننا إذا نظرنا إلىٰ مادة أي جسم وجدناه يتألف من ذرات صغيرة هي (الالكترون والبروتون وغيرها) فكيف نعرف ما إذا كانت هذه الذرات من الصفات أو الذوات؟ فذات الإنسان هي فعليته، فالصفات التي تصدر عنه تُظهر ذاته، يعني قد لا يكون هناك فرق بين الذات والظواهر فهي متحدة.

[الدكتور بهشتي]: متحدة أم مترابطة؟ إنك من خلال هذا تريد أن تقول إن الإنسان يصنع ذاته من خلال عمله، فهل هذا صحيح؟!

[الشخص نفسه]: لنقل ذلك بالنسبة إلىٰ الأجسام والأشياء...

[الدكتور بهشتي]: الأشياء، إنك تقول: (هذا الحجر ثقيل، أبيض، مكعب) فهل أن اسم الإشارة (هذا) في قولك (هذا الحجر) فاقد للمعنى؟ أم أنَّ قولك (هذا الحجر) هو عبارة عن مجموعة صفات مجردة عن الذات؟

لاحظوا هل يمكن لذهنكم السليم أن يتقبل أن تكون هناك صفات دون أن تكون هناك ذات تتعلق بها؟ ألا يقول ذهنكم عن صفة أو صفتين أو عن مليون صفة أنه لا بدّ من وجود متّصف لها؟ لا مفهوم للصفة دون الموصوف. إذن لا بد لهذه الصفات من ذات تتصف بها؛ إذ لا معنى لقيام العرض من دون الجوهر.

وبالمناسبة تصفحت في هذا اليوم عدداً من كتب المعرفة (من الكتب الجديدة التي تنهال عليكم من كل حدب وصوب) لأرى ما إذا كان فيها موضوع نافع يمكن ذكره هنا، فوجدتها أولاً: تكرر المواضيع القديمة، وكان بالإمكان تلخيص خمسة أجزاء منها في خمس صفحات، وثانياً: يمكن تصنيفها في المرتبة الثانية أو الثالثة فيما إذا قورنت بكتب المفكرين الأخرىٰ في مجال بحث المعرفة، وثالثاً: وجدتها زائدة، وذلك لأن الذي نريد قوله هو أننا لا نشك في أن هناك حقيقة عينية تقوم المعرفة بربطي بها، كما أننا لا نشك في أن هذه الحقيقة العينية ليست صفة من دون ذات، وأن العامل الذي يوصلني ـ في هذا البحث ـ إلىٰ المعرفة هو من قبيل تعريف المعرفة، فلا داعي إلىٰ إطالة البحث فيها؛ لأنها واضحة للجميع، ومن الطريف أنك تجد من بحثها في ثلاثمائة صفحة ليقول بعد ذلك: (إن المعرفة في الواقع أوضح من أن تحتاج إلىٰ تعريف) وهكذا الأمر بالنسبة إلىٰ ما نحن فيه، إذ نبحث بمقدار مئة صفحة عما إذا كان لدينا حسٌّ يدرك الجوهر، أم أننا ندركه بواسطة قوّة أخرى، أو أننا لا ندركه بتاتاً؟ إن هذه المسألة واضحة، ولا أريد بذلك أن استسهل البحوث العلمية الدقيقة، وإنما لا أريد تعقيدها، فما كان منها معقداً حقاً أبقيناه علىٰ ما هو عليه، وأما ما كان تعقيده مفتعلاً، فلا بد من تذليله لكي لا نقع في مطبّاتها ومتاهتها.

إذن فالمسألة هي أننا لا نشك في أن هناك صفاتٍ لها ذوات، فإذا كان هناك من يشك، فليقل: أي عامل من المعرفة أو أي عضو أو أي قوة هي التي أوصلتنا إلىٰ المعرفة.

[أحد الحاضرين]: إننا دائماً نشاهد الصفة مع الجسم، فلا يمكننا فصلها عنه، فلا يمكن أن يقال: (الجسم غير الصفة، والصفة غير الجسم).

[الدكتور بهشتي]: نحن لا نقول افصلوا بينهما، وإنما نقول: إن لكل صفة ذاتاً، ولقد دونت هنا بعض الأمور التي ذكرت بشأن الجسم، إن هذا

الجسم الذي تقولون عنه إنه عبارة عن الطول والعرض والعمق ـ وهكذا يبدأ وسوسته ـ فإذا لم يكن الطول والعرض والعمق سوى أعراض، فلا يكون الجسم إلاّ أمراً عرضياً! والآن دققوا جيداً، فهل الجسم عبارة عن مجرد الطول والعرض والعمق، أو أنه شيء مملوء (في قبال الفراغ) تنتزع منه الأبعاد الثلاثة؟ نضرب مثلاً: خذ كمية من الشمع واجعلها مكعباً، ثم حوله إلىٰ اسطوانة، فهل تغير الشمع أم أنَّ الذي تغير هو الشكل؟ أفترض أنَّ هذا الشمع كان بقياس ديسيمتر مكعب واحد، فهل سيتجاوز أطول خط من الشمع العشرة سنتيمترات؟ كلا. ثم حوّل هذا الشمع إلىٰ مكعَّب مستطيل، فقد تجعل منه خطاً طوله عشرة أمتار. فقطعاً لم يكن لديك طول يبلغ عشرة أمتار، والآن لديك ذلك. هل هناك شكّ من ذلك؟ كلا، إذن الصحيح أن شكله هو الذي تغير، إذن فليس لدينا شك في أن هناك شيئاً قد تغير، وأن هناك شيئاً لم يتغير.

[أحد الحاضرين]: هل تريد بذلك الجنس؟

[الدكتور بهشتي]: لنقل حالياً الصفة وذاتها، فلا نريد أن نتجاوز هذا المصطلح. الصفة والمتصف، فنقول هناك شيئاً كان مكعب الشكل، ونفس ذلك الشيء أصبح الآن مكعباً مستطيلاً. أو هناك شيء كان أكبر أبعاده لا يتجاوز العشرة سنتيمترات وأصبح الآن عشرة أمتار.

[أحد الحاضرين]: هل تبقى لدينا ذات بعد تجريدها من جميع الصفات؟

[الدكتور بهشتي]: انظروا، من هنا تنشأ الوساوس التي نحن في غنًى عنها، لاحظوا ليس لدينا جوهر مادي من دون صفة، إلاّ أن الأمر ليس كذلك، فإن معنىٰ ذلك أننا إذا انتزعنا جميع الصفات فسوف نحصل علىٰ جوهر مادي مجرد عن الصفات، وهذا غير ممكن؛ فإن كون الأمرين لا ينفكان عن بعضهما شيء، وكونهما متحدين شيء آخر. فإذا قلت: ليس

بإمكاني العثور علىٰ ذات من دون صفة، فهو صحيح، إلاّ أن كون الصفة من دون ذات هو أمر خاطىء. ومن هنا تنشأ الوسوسة، فلا تنحرفوا بنا عما نحن فيه، وإلاّ فسوف ندور في حلقة مفرغة، ويطول بنا المقام عشر جلسات أخرىٰ من دون طائل، إذن دققوا، فهناك فرق بين أن نقول: إن الذات لا يمكن أن توجد في العالم الخارجي بمعزل عن الصفات (وهذا أمر صحيح ومعقول) وبين أن نقول، إن الصفة ليست لها ذات، وليس لدينا في الحقيقة العينية سوى الصفة، فهذه مسألة أخرى.

[أحد الحاضرين]: إذا جئنا إلىٰ خشبة تحمل مجموعة من الصفات، وقمنا بإحراقها، فماذا سيبقى منها لنقول عنها: إن ما بقي منها هو ذات لها صفة؟

[الدكتور بهشتي]: ماذا يبقى! أنت قل! فحينما نحرقها ماذا يحصل؟ انظروا، إذا قلت: إن الجسم شيء غير تكاثف الطاقة، أو قل تكاثف الأمواج، فليس هناك من ذهب إلىٰ أبعد من ذلك؟ فإن هذا الجوهر الذي تقولون إنه ليس سوى الأمواج المتكاثفة والمتراكمة والمضغوطة، فنحن نقول: إن هذا هو الجوهر. وإن السبب في أني أمانع من ذكر تعريف للجوهر يعود إلىٰ هذه الناحية إذ ما أن نقول: إن الجسم جوهر، حتىٰ تطرأ علىٰ الذهن بعض الخصوصيات فنقول: هذه هي الذات التي لها تلك الصفة، وهذا واضح جدّاً، فحينما يصل الماء إلىٰ مرحلة الغليان يتحول إلىٰ بخار ويبدأ بالتبخر، وإذا وضع في مكان بارد أخذ بالانجماد، لكن لم يقل شخص لحد الآن: إن الوضع الجوهري للماء قد يتغير. وقد يتصور البعض أن هذه المسألة من المسائل المكتشفة حديثاً، فالناس مُنذ القدم كانوا يشاهدون البخار والماء والثلج، فإذا شككتم في معرفتهم بعلاقة البخار بالماء، فإنهم لا يجهلون علاقة الثلج بالماء، وواضح أن الماء سائل، والثلج جامد، وليس المراد من الجوهر هو الصلابة، وإنما المراد منه هو ذلك الشيء الذي يملأ الفراغ، وهو الشيء الذي يحمل هذه الصفات. وقد تقولون: إنه مجموعة الطاقة المتكاثفة. فأقول: سواء أكانت الطاقة أو

الأمواج متكاثفة أم لا، لا يمكن الحصول علىٰ صفة من دون ذات، فتلك الأمواج تشتمل علىٰ صفة أو أنها تشتمل علىٰ ما له هذه الصفة. فحينما كانت الذات خشبة كانت لها صفة، والآن بعد أن احترقت وأصبحت رماداً فهي أيضاً ذات لها هذه الصفة.

[أحد الحاضرين]: فالصفة تغيرت إلاّ أن الذات لم تتغير.

[الدكتور بهشتي]: الذات قد تغيرت أيضاً، إلاّ أننا علىٰ كل حال لدينا ذات، فأنا لا أقول: إن الذات والجوهر شيء ثابت، وإنما أقول: إن هذه التغيرات الحاصلة في الصفات قد نشأت من تغيرات الجوهر، وبذلك نكون قد وصلنا إلىٰ رأي الملا صدرا في أن جميع التغيرات الوصفية والعرضية تابعة للتغيرات الجوهرية والحركة الجوهرية، وهذا لا كلام لنا فيه، إذن لدينا جوهر وهذا الجوهر قابل للتغير أيضاً.

[أحد الحاضرين]: إن الجسم الذي تتغير ماهيته بمرور الزمان، سوف يتجرد عن صفاته السابقة. . .

[الدكتور بهشتي]: انظر، إن التفاحة كانت في بداية أمرها برعماً، ثم تحولت إلىٰ تفاحة غير ناضجة، ثم نضجت وصارت حمراء وحلوة المذاق ومليئة بالماء، واتخذت أوصافاً جديدة، إلاّ أنَّ هذه التفاحة ليست مجموعة من الصفات فحسب، وإنما هي ذات اتصفت بهذه الصفات، فصفاتها تتغير، وذاتها تتغير أيضاً، وهذا لا يعني أن ليس لها ذات أصلاً، فلا نشك في أن هناك في العالم العيني ذوات وصفات، وما يقال من أن العالم الخارجي ليس سوى مجموعة من الصفات لا يمكن لأي عقل سليم أن يقبل به، وطبعاً هناك من يشك بهذا الكلام نظير أولئك الذين يشككون في وقوفي أمامكم وحديثي لكم، زاعماً أن هذا كله من قبيل الأحلام والأوهام.

[أحد الحاضرين]: هل هناك بحث في أن الذات لا بد أن تكون لها حقيقة عينية؟

[الدكتور بهشتي]: أجل، فهناك في العالم العيني صفات وذوات، وما قرأتموه في بعض الكتب من أن الجسم هو عبارة عن الصفات فهو كلام خاطىء.

[أحد الحاضرين]: كيف تتغير الذات؟

[الدكتور بهشتي]: كما تتغير الصفات.

[الشخص نفسه]: حينما تتغير الصفات ماذا يحدث للذات؟ وأساساً ما هو فرق الصفات عن الذات.

[الدكتور بهشتي]: الفرق هو أن الذات تحمل الصفات، وسؤالكم هذا من الأمور التي نحتاجها في بحوثنا القادمة، كما أن سؤالكم هذا يدلّ علىٰ رسوخ البحث في أذهانكم، فإنه يتجه بأذهانكم نحو مبدأ ثابت، وهذا يختلف عما إذا كانت الصفة معلقة في الهواء من دون ذات (فهذا هو الذي لا يرتضيه الذهن) كما أن الذهن طبعاً لا يقبل الذات المستقلة عن الصفات أيضاً، الذهن يدرك أن لا وجود للسيال، ولا يمكن له أن يوجد. فكما أن الصفة تحتاج إلىٰ شيء حتىٰ تتغير، فإن الذات أيضاً تحتاج إلىٰ ما تستند إليه حتىٰ تتغير، وإلاّ إذا تغيرت الذات فسوف لا يبقى عندنا شيء ثابت، وهذا واضح إلاّ أنه فرع آخر عن البحث.

[أحد الحاضرين]: لا يقبل، إلاّ أن الذات كذلك أيضاً.

[الدكتور بهشتي]: أنا لا أقول: اقبلوا بالذات المتغيرة بلا سند، إلاّ أن الذات متغيرة علىٰ كل حال، فمثلاً: أنا الآن امسك بنظارتي وقد وضعت كفي علىٰ ركبتي، فالحامل للنظارة مباشرة هو كفي، إلاّ أن كفي تحتاج إلىٰ سند، وسندها رجلي، وقد توجه ذهنك الآن إلىٰ الثانية، مع أني اهتم بالأولى، وحكم الذهن بشأن الأولى واضح.

[أحد الحاضرين]: هل هناك ذات للحُسن والقبح والخير والشر، أم

أن الخير والشر يوجدان، ثم يوجد ما يعرضان عليه من الذوات؟

[الدكتور بهشتي]: لم أفهم!

[الشخص نفسه]: إن الخير والشر هما صفتان.

[الدكتور بهشتي]: هل تريد بذلك الخير والشر في المصطلح المعاصر، أم الخير والشر المطلق. . .؟ فلا تدخلونا في ذلك البحث!

[الشخص نفسه]: كلا، الخير والشر المصطلح.

[الدكتور بهشتي]: هما نسبيان، إذ يقومان بين شخصين، فهما صفتان لا تقومان في شخص واحد، بل في شخصين، وبهذا المستوى الذي فهمناه فلا نذهب إلىٰ الخير والشر المطلق وأمثالهما ممّا لم نذكره إلىٰ الآن، فما هو ربط هذا الخير والشر ببحثنا؟!

[الشخص نفسه]: إن كلمة الحُسن والقبح لا ربط لها بي ولا بشخص آخر، فمن الممكن أن يقال: كي يتحقق الخير في الخارج لا بدَّ من وجود جسم يتحقق الخير خارجه. أي أننا لا بدَّ أن نعرف معنى الخير قبل صدوره، ونقوم بتطبيقه علىٰ مصاديقه بعد صدورها، وهكذا الأمر بالنسبة إلىٰ الشر.

[الدكتور بهشتي]: إن هذا الخير والشر الذي ذكرتموه، يعني ما يعجبني وما اعتبره خيراً، لأننا حالياً لا نهتم بالخير الذاتي وأمثال ذلك.

[ذلك الشخص]: إننا ندرك الحسن من الأساس، فإذا قدم لي شخص إحساناً، أقول: إنه أحسن. فلا يتوقف الأمر علىٰ أن يفعل الإنسان إحساناً حتىٰ ادرك معنى الإحسان.

[الدكتور بهشتي]: أفهم ما تقول، وهذا هو الحسن والقبح الذاتي، وهو أجنبي عن بحث الصفة، فهذا لا يحتاج إلىٰ ذات فقط، وإنما يحتاج إلىٰ مُعْتبِر أيضاً، فهو أسوأ ممّا نحن فيه، إذ لو لم يكن هناك إنسان فلا يكون معنًى للحسن والقبح.

[الشخص نفسه]: لو لم يكن هناك إنسان لما كان هذا الكلام أيضاً.

[الدكتور بهشتي]: نعم، ولكن كان الحجر ولم يكن الإنسان، فالحجر وجد في عالم الطبيعة قبل الانسان، وهذا بحث لما قبل الإنسان، وأما الأمور التي تصل إلىٰ الإنسان فتتعلق بعدّة ذوات، لا بذات واحدة فقط.

ويمكننا أن نذكر لهذا البحث مثالاً واحداً، وإذا أمكن الاستشهاد لأمر بمثال واضح، فمن الخطأ بعد ذلك تكثير الأمثلة واللجوء إلىٰ أمثلة أخرىٰ مبهمة، فالخشب، الأشجار، الأحجار، الغاز، الهواء، النفط، الماء. فالماء مثلاً لا يمكنه أن يكون مجرد مجموعة من الصفات، فالماء هو عبارة عن البرودة والسيولة والميوعة وبديل الهواء فهو متكاثف أكثر من البخار، عديم اللون وما إلىٰ ذلك، فالذهن يقول: إن الماء هو ذات لها هذه الصفات، فمجموع الصفات ليست هي الذات، بل هي صفات. فحتى لو قيل: اثبتت العلوم أن الماء يتحول إلىٰ بخار وإلى أوكسجين وأنه مكون من الأوكسجين والهيدروجين، وأن الأوكسجين في حدِّ ذاته مكون من الذرات، وهي بدورها عبارة عن الالكترون والبروتون التي هي ليست سوى أمواج، فليكن، فهذا الموج هو الذي نعبر عنه بالذات. فنحن حينما نقول: إن الماء له ذات لا ننكر أنه موج، وإنما نقول، إن الذات هي عبارة عن ذلك الشيء الذي يحمل هذه الصفات، إلاّ أن الأمواج لا بد لها من إشارة، وإذا لم نعثر علىٰ إشارة له؛ أمكننا حينها إنكار وجود الذات، ولذا فنحن سواء أشرّقنا أم غربنا لا بد لنا في المنتهى من الإشارة إلىٰ شيء بهذا أو ذلك أو تلك، وهذه الإشارة تعني أن اذهاننا لم تقبل هذه الصفات من دون ذات يشار إليها.

[أحد الحاضرين]: هل يمكن أن تكون هناك ذات بلا صفة؟

[الدكتور بهشتي]: قلنا: لا يمكن أن تكون هناك ذات من دون صفة. ولكن مثلاً قد يكون لك صديق حميم تلازمه دائماً فلا تفترقان إلاّ أنكما شخصان علىٰ كل حال، فكونكما متلازمين شيء، وكونكما شخصين شيء

آخر. والذي نقوله هو هل يمكننا العثور علىٰ صفة أو مجموعة صفات دون أن نشير إليها بإشارة؟ لا يمكن ذلك. ولكن لماذا؟ فهل عدم الإمكان هنا عائد إلىٰ ضعف الإنسان أم إلىٰ كونه مدركاً؟ إن ارجعنا ذلك إلىٰ ضعف الإنسان فكان من الأولى أن لا ندخل في بحث المعرفة منذ البداية، إلاّ أن الصحيح هو أن ذهننا يدرك أن هناك ذاتاً في العالم الخارجي، فإن نفي الذات في حدِّ ذاته هو نوع من التفكير المثالي من ناحية الطريقة والاستنتاج، وإن الوسوسة فيها تشبه الوسوسة في المذهب المثالي، والجواب الوارد هناك يرد هنا أيضاً، فأي ذهنية يمكنها تقبل الصفات دون ذاتها؟ إن هؤلاء تصوروا أن الذات والجوهر وما شاكل ذلك هي من الأمور التي ورد ذكرها في الفيزياء دون الفلسفة، في حين أن الأمر ليس كذلك. لقد تكلم (كانت) بكلام هو أفضل من كلام غيره ممن أنكر الذات، إذ يصلح أن يكون معياراً في الأقل، الويل لفيلسوف الفيزيائيين، وفيزيائي الفلاسفة، فسواء فهمنا البحوث الفيزيائية أو لم نفهمها، فإن تلك الذات وذلك الجوهر يشمل الموج، فالموج ذات وجوهر...[1]

[أحد الحاضرين]: ... هل نحن بحاجة إلىٰ معرفة الذات مضافاً إلىٰ معرفتنا للصفات؟ وهل يمكننا معرفة الذات؟

[الدكتور بهشتي]: أحسنت، هذا ما أردنا ذكره في المسألة الثانية، ولكن اسمحوا لنا قبل الدخول في المسألة الثانية أن نشير إلىٰ موضوع يتعلق بالقرآن.

القرآن يتفق مع وجود ذات في العالم الخارجي:

وأما بالنسبة إلىٰ القرآن فبحسب معرفتي أنه لم يتعرض لما إذا كان لدينا حسّ ندرك بواسطته الجوهر، وهل هناك ذات أو لا؟ إلاّ أن الذي

---

(١) حصل حذف بسبب تبدل الشريط.

يطالع القرآن يراه منسجماً مع نمط تفكير الذين يذهبون إلىٰ وجود ذات في الخارج تحمل الصفات، هذا فيما يخصّ المسألة الأولى، وأما بشأن السؤال الثاني الذي تفضل به الأخ الكريم فتفصيله كالآتي:

معرفة الصفات تنتهي إلىٰ معرفة الذات.

حينما تكون للصفات ذات، فإن تنوع هذه الصفات وتغيرها يدلنا بنحو تلقائي إلىٰ ادراك تنوع الذوات، ومن هنا فإن المقالة التي تذهب إلىٰ إمكانية معرفة الصفات دون الذات هي فاقدة للقيمة، لأن معناها أننا ندرك الصفات بالمباشرة، بينما نتعرف علىٰ تنوع الذوات من خلال معرفتنا لتنوع الصفات، فليكن، فما الضرر في ذلك، فإنك إنما تتعرف علىٰ اللون لا بالمباشرة، وإنما بواسطة انعكاس الطيف النوري علىٰ شبكية العين، فالبحث ليس في المعرفة المباشرية أو غيرها، وإنما الكلام في أنك لا تشك في قيام رابطة المعرفة بينك وبين ذلك الشيء الذي يحمل ذلك اللون، فنحن يمكننا أن ندرك الذوات من خلال صفاتها.

[أحد الحاضرين]: ألا يمكن معرفة الذات؟

[الدكتور بهشتي]: سواء أمكن ذلك أم لم يمكن فنحن نقول: بإمكانية ذلك عن طريق تنوع الصفات وتغيرها، هذا هو المهم في بحثنا.

[أحد الحاضرين]: [كلام غير واضح]

[الدكتور بهشتي]: فالخوخة ونواتها شيئان، فهل نعاملهما معاملة واحدة أو معاملتين مختلفتين؟

[الشخص نفسه]: نحن نشاهد صفاتها.

[الدكتور بهشتي]: فهل لتلك الصفات ذات أم لا؟

[ذلك الشخص]: لها ذات، إلاّ أن الفروق التي نذهب إليها تتعلق بالذات.

[الدكتور بهشتي]: حسناً، فهل الفروق التي تذهبون إليها بالنسبة إلىٰ الصفات ترتبط بتغير الذات أو لا ترتبط به؟ إن المطلعون بشأن الحركة يمكنهم استيعاب هذا المطلب بسهولة، فليست هناك صفة تتغير من تلقائها، وإنما تغيرها ينشأ بسبب حدوث تغير في الذات، إلاّ أَننا لا نشاهد إلا التغيرات الظاهرية، وفي الوقت نفسه نقول: إننا نفرق بين هذه الذات ـ التي تحمل هذه الصفات وغيرها ـ عن تلك الذات التي تحمل تلك الصفات، فنراهما نوعين من الذات والجوهر، فهما جوهران لهما نوعان من الصفات، فلا معنى لأن نقول: إن التفاحة والفحمة شيء واحد، بمعنى أن الذي يختلف هو صفاتهما فقط، نعم إذا أردتم بذلك أن تقولوا، إن كليهما يعود إلىٰ مادة واحدة مشتركة بينهما تسمى بـ (الأمواج) فلا إشكال في ذلك. وأما إذا أردتم أن تقولوا: إن اختلاف التفاحة عن الفحمة كاختلاف التفاحة الحمراء عن التفاحة الصفراء، فهذا ما لا نقبله، وهذا هو الذي نريد أن نقوله حينما نذكر الاختلاف الذاتي في قبال الاختلاف الصفاتي، ولا أثر لهذه البحوث الجدلية، فإذا أردتم أن تقولوا: ما لم تحدث هناك تغيرات في الالكترونات والبروتونات وهذه الذرات والأمواج، فسوف لا تحدث هناك تغيرات من حلاوة التفاحة وحمرتها وصفرتها، وهذا هو الذي كنا نتوخاه. فنحن لا نروم إبطال هذا الكلام، بل ربما توخيناه أيضاً، فإن كون التغيرات الحاصلة في عدد الذرات والالكترونات وشكلها تستتبع تغيرات في الصفات هو الذي عبرنا عنه بقولنا: التغير الحاصل في الذات يؤدي إلىٰ التغير الذي يحصل في الصفات.

وعليه فإن بحثنا في إمكانية التعرف علىٰ تغيرات الذات والجوهر إن كان بالمستوى الذي افاده (كانت) وأضرابه، فجوابه واضح مما تقدم، وإن كان بالمستوى المذكور في الفيزياء الحديثة وإرجاع جميع الأجسام إلىٰ الطاقة والأمواج أو أي شيء آخر، فهو لا يختلف عن كلامنا أيضاً، فإننا نؤمن بالتنوعات السطحية والعميقة، وإن لم نكن نراها بأعيننا، لأننا ندركها

عن طريق التغيرات الحاصلة في الصفات، وهذا ليس هو الموضع الذي يختلف فيه الربّاني مع المادي، فلا ضرورة إلىٰ إضاعة الوقت هنا، وإذا وجدتم ربّانياً يبدي استنكاراً في هذا المجال فاعلموا أنه قد ضلَّ الطريق.

إذن الأمر الثاني هو أننا من خلال التغيرات الظاهرية المحسوسة ندرك التغيرات الكامنة وراء هذه التغيرات الظاهرية، سواء سميتموها تغيرات الصفات أو التغيرات الجوهرية في قبال التغيرات الظاهرية والعرضية، فإن الأمر لا يتغير بتغير الألفاظ، والممتع في البين أن الشخص إذا كان مدققاً (لا يتوقف عند الألفاظ فقط) سوف لا يجد اختلافاً في الفلسفة الأرسطية في هذا المجال مع التطور العلمي والفيزيائي واكتشاف نظرية الأمواج وما وراء الذرّة وادماج النظرية الذرية بالموجية؛ إذ أن ما ذكره ارسطو من الصورة النوعية أو الصورة الجسمية، وما يذكره من العرض والجوهر، يمكن فهمه بسهولة، كما يمكن تطبيقه علىٰ هذه المسائل الحديثة شريطة أن نتخلى عن تطرفنا لتلك الجهة أو هذه الجهة، وأن لا تستعبدنا الألفاظ والمصطلحات.

هذا ما كان بشأن مسألة الحسّ وبُعد الحواس فيما يرتبط بالمعرفة، وما إذا كان لدينا حسّ ندرك بواسطته الجوهر أو لا، وهل هناك جوهر وذات أساساً أو لا؟

وأما بحثنا القادم بشأن بُعد المعرفة فسيقوم علىٰ أن مقدار بُعد المعرفة هل هو بمقدار بعد الحسّ، أو أنه أوسع منه ويذهب إلىٰ ما وراء الحسّ والمحسوس؟ نوكل هذا البحث إلىٰ الجلسة القادمة، وسوف نعتمد علىٰ القرآن كثيراً، وقبل الختام نشير إلىٰ مواضيع البحث القادم ليكون الإخوة علىٰ بصيرة منه، يمكنكم أن تطالعوا موضوعين في القرآن بشأن بحث (بُعد المعرفة ما وراء الحسّ) أحدهما: الغيب والشهادة. والآخر: آيات الآثار التي ترتبط بالمعرفة في القرآن. وقد لخصت بحث الغيب والشهادة قبل مدة

طويلة ربما ترقى إلىٰ عشرة أو خمسة عشر عاماً، وسوف أعرضه علىٰ الإخوة في ختام البحث.

هذا وأننا لا نتمكن من استقصاء جميع الآيات المتعلقة ببحثنا، فنكتفي ببعض ما دونته لهذا الغرض.

الجلسة التاسعة

خلاصة البحوث السابقة:

لا شك في أننا نحيط علماً بالخارج عن طريق الحواس، واكرر ثانية: أني لا أريد أن أنفي خطأ الحواس أحياناً ـ وهذا ما سنتعرض له فيما بعد ـ وإنما نقول: إننا إجمالاً نحصل بواسطة الحواس علىٰ معلومات صحيحة دون أن يحصل لدينا أدنى شك في صحتها، وسنتحدث حول الخطأ والحيلولة دونه في بحث أساليب المعرفة وما هو المعيار في صحة المعرفة وسقمها، هذا أولاً.

ثانياً: إن المعلومات التي نحصل عليها بشأن العالم الخارجي لا تنحصر بالحواس، ولا شك في ذلك أيضاً، وطبقاً للاسلوب الذي اتبعناه في هذا البحث فإننا ـ لكي نوضح هذه المسائل ـ سوف نلجأ إلىٰ الأمور البديهية والمسلمات كي لا يبقى أدنى مجال للشك والقيل والقال.

سؤال: هل هناك حالياً من يشك في إمكان معرفة القوانين العمليّة التي تحكم الطبيعة اجمالاً؟ نحن لا ندعي معرفة جميع القوانين العملية، كما لا ندعي صحتها جميعاً، ولكننا نعرف في الأقل واحداً من القوانين العلمية الطبيعية دون أن يكون لنا أدنى شك فيه، وإذا لم نكن نعرف مثل هذا القانون فالأحرى بنا أن نطوي صفحة البحث من الأساس، فمثلاً: هل نعرف قانون الجاذبية الأرضية؟ وهل نعرف قانون التطور والتكامل في الجملة أو لا؟ فهل هذه القوانين حسيّة؟ هل رأينا القانون العلمي بأعيننا؟ أم سمعناه بآذاننا؟ أم لمسناه بأيدينا؟ أم شممناه بأنوفنا؟ فبأيّ شيءٍ تعرفنا عليه؟

لا ينبغي الشك في أن معلوماتنا تتجاوز الحسّ، وهذه المسألة واضحة

ولا حاجة بنا إلىٰ تضييع الوقت فيها، ونحن نسمي مثل هذه المسائل بـ (الاستنتاجات الواضحة من المبادىء الحسية) فلا شك في أنا تعرفنا علىٰ مجموعة من الحقائق العينية عن طريق الاستنتاج من المبادىء الحسية، إذن فبُعد المعرفة ـ الذي هو موضوع بحثنا ـ يتجاوز نطاق الحسّ، وليس هناك من يشك في ذلك.

معنى الآية في القرآن:

إن القرآن الكريم كما يصرح بوظيفة الحواس في المعرفة، فهو يصرح أيضاً بهذا النوع من المعرفة الجديدة التي تفوق الحس (كالقانون العلمي الذي يتجاوز الحسّ ويحصل عن طريق الاستنتاج من الحس) والجزء الأعظم من هذه التصريحات جعل في اطار الآية والآيات ومواردها.

والآية هي العلامة، فالآيات هي العلامات، قال الطبرسي في مجمع البيان في معرض تفسيره للآية السابعة من سورة يوسف: (الآية والعلامة والعبرة نظائر) والمهم هو أن القرآن صرح قائلاً: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

أو ما كان بهذا المضمون من قبيل قوله تعالىٰ: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾[2].

إن الله سبحانه يرينا الآيات، ولكنه لا يرينا إياها لمجرد الرؤية، بل إنه سبحانه يرمي من وراء ذلك إلىٰ غاية هي أن نستنتج منها ونعتبر بها، ولذا فقد أردفها تعالىٰ بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقد أشار في الآية المتقدمة إلىٰ أن الله سبحانه يرينا أمراً حسيّاً وهو إحياء الميت بشكل من الاشكال، وذلك للاستنتاج العقلي، وهذا معناه المعرفة والاستنتاج عن طريق الأمور الحسية، وكذلك يردفها أحياناً بقوله: (يتفكرون) كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ

---

(١) سورة النور، الآية: ٦١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٣.

﴿ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[1] فجميع الأمور التي ذكرتها هذه الآية هي أمور حسية من: مدّ الأرض وإرساء الجبال وما إلىٰ ذلك، إلاّ أنها إنما تكون من الآيات فيما إذا كان الهدف من ورائها هو الاستنتاج. والآيات في هذا المجال كثيرة.

كما استعملت الآية بمعنى العلامات الظاهرية والمحسوسة والعلامات الباطنية وغير المحسوسة في الإنسان، وهناك موردان في سورة يوسف يناسبان هذا المعنى، الأول: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[2] فما هو المراد من هذه الآيات؟ الذي يبدو لنا أن معناها هو العلامات الظاهرية التي تعكس الاحقاد الباطنية، نعم ذكر الطبرسي في مجمع البيان تفسيراً آخر حيث قال: (لقد كان في قصة يوسف) فأضاف كلمة (قصة) ولكن ما ذكرناه هو الأنسب علىٰ الأظهر.

وهكذا بالنسبة إلىٰ المورد الثاني من سورة يوسف والذي يتحدث فيه القرآن الكريم عن قضية غرام امرأة العزيز بيوسف، وحثها له علىٰ المنكر، وعدم استجابته لها. ثم جاء في الآيات والبيانات ما يثبت براءة يوسف وخيانتها، كما أظهرت زوجة العزيز أدلة تبرر بها خيانتها، ثم قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾[3] والمراد من الآيات هنا هو ما تقدّم من العلامات التي تثبت براءة يوسف، وما تلا ذلك من الآيات من العلامات الحسية الدالة علىٰ الحالات الروحية والباطنية.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣.

(٢) سورة يوسف، الآيات: ٧ ـ ١٠.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٣٥.

الآية بمعنى الأثر التاريخي:

كما استُعملت الآية للدلالة علىٰ المعالم الأثريّة، وكما تعلمون فإن أكثر مسائل العلوم الإنسانيّة تُبحث من خلال دراسة المعالم الأثرية المحسوسة بمعنى استنتاج ما لم نره من خلال المعالم الأثرية، وقد ذكر الله تعالىٰ ما هو قريب من هذا المعنى حيث قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[1].

الآية بمعنى الدلالة الحسية علىٰ الأمور الغيبية:

وقد اطلقت الآية في موارد كثيرة بمعنى الدليل الحسيّ علىٰ الأمر الغيبي ليستنتج منها الإنسان ويعتبر بها، فالطبيعة دليل علىٰ وحدانية الله ووجوده وتوحيده وحكمته وقدرته ورحيميته، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾[4].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٦، ٩٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٣) سورة آل عمران/ ١٩٠.

(٤) سورة النحل/ ١١.

ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾[3].

فالآية في هذه الأخيرة بمعنى الدليل الحسي للوصول إلىٰ الأمور التي لا يمكن الوصول إليها عن طريق الحس، وهذه الأمور هي عبارة عن: حكمة الله ورحمته وقدرته وأمثال ذلك.

الآية بمعنى الدليل على النبوة:

وقد استعملت الآية للدلالة علىٰ نبوة الأنبياء بوصفها أمراً غيبياً، وهناك آيات كثيرة في هذا المجال، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾﴾[4] وقد وردت كلمة البصائر بمعنى الآيات ليعرفوا أن موسى من الأنبياء، وهناك آيات أخرىٰ من هذا القبيل، منها:

قوله تعالىٰ: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾[5].

وقوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[6].

---

(١) سورة النحل/ ١٣.
(٢) سورة النحل/ ٦٥.
(٣) سورة النحل/ ٦٨، ٦٩.
(٤) سورة الإسراء/ ١٠١.
(٥) سورة النحل/ ١٢.
(٦) سورة الشعراء/ ١٥٤.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩)﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)﴾[٢].

وأحياناً تكون الآية من قبيل المرسوم (كما تنصب الحكومة شخصاً وتبعثه في أمر وتحمله مرسوماً من عندها بذلك) ليكون دليلاً علىٰ أنه إنما بعث من قبل الله كقائد سياسي أو عسكري، كما نرى ذلك في قصة طالوت، إذ طلب جمع من بني إسرائيل من نبيٍّ لهم أن يسأل ربه أن يبعث لهم قائداً (أحياناً يكون النبي قائداً عسكرياً وسياسياً وأحياناً لا يكون كذلك، فهؤلاء كانوا بحاجة إلىٰ من يقودهم عسكرياً وسياسياً) فقالوا لنبيهم (ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله) فقال لهم: (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً) وطالوت هنا ليس اسماً حقيقياً وإنما هو صفة لهذا الملك لشدة طوله، ولكي تتناسب أيضاً مع كلمة (جالوت) وهي تسمية حقيقية معربة عن العبرية ثم قال النبي لهم بعد انكارهم عليه: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾[٣] فهذه آية حسية علىٰ أمر غير حسي.

الآية بمعنى إحياء الموتى من جديد:

ذكرت آيات كثيرة أدلة علىٰ امكان إعادة إحياء الإنسان عند قيام الساعة، وهو الأمر الذي شغل الإنسان علىٰ الدوام وتركه في حيرة من أمره،

---

(١) سورة آل عمران/ ٤٩.

(٢) سورة المائدة/ ١١٤.

(٣) سورة البقرة/ ٢٤٨.

إذ كيف يمكن إحياء الجسد من جديد بعد أن يستحيل رميماً، فذكر الله كيفية إحياء الأرض الميتة، كما ذكر أن هناك نماذج كثيرة في الطبيعة لتجدد الحياة، فكيف تشك أيها الإنسان في إمكانية ذلك بالنسبة إلىٰ نفسك؟!

الآية بمعنى العذاب الإلهي:

وقد وردت الآية أحياناً بمعنى العذاب الإلهي الذي نزل بحق الأمم السابقة، وذلك كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾[١] أي أن الله عذبهم بسبب اعراضهم ليكون عبرة ودليلاً علىٰ ذلك.

ونشاهد آية أخرىٰ تذكر دلائل علىٰ سنن الله في نصر الحق قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾[٢].

فكان الكفار يرون المؤمنين ضعف ما هم عليه من العدد، وكان في ذلك تأييد غيبي، وعامل من عوامل النصر، وآية من آيات الله، ودليل ليؤمن الناس بسنة من سنن الله القطعية، وقد بيّن الله هذه السنة في آية أخرىٰ هي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

الآية دليل علىٰ الجاه والقدرة:

وقد ورد في إحدى الآيات لفظ الآية بوصفها دليلاً علىٰ الحياة والجبروت والثروة، وفي ذيلها رواية بديعة، قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ

---

(١) سورة العنكبوت/ ٣٤ ، ٣٥.

(٢) سورة آل عمران/ ١٣.

ٱلْمُرْسَلِينَ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴿١٠٩﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَاعِظِينَ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴿٩﴾﴾[١].

إن كلمة (الآية) الواردة في ذيل الآيات المتقدمة بمعنى الدليل علىٰ تعذيب الله للأمم السابقة، وقد جاء في بداية هذه الآيات قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴿١٢٨﴾﴾ والمراد منها المنع من بناء العمارات إذا لم يكن المراد منها هو السكنى أو ما فيه صلاح الناس من المؤسسات التعليمية والمستشفيات وما شاكل ذلك، وكان المراد منها مجرد إظهار القدرة والجبروت، فجاء انتقاد مثل هذه التصرفات قبل قرون علىٰ لسان هود واصفاً إياه بالعبث والانحراف عن شريعة الله، وقد ذكر الطبرسي في مجمع البيان في تفسير هذه الآية حديثاً ممتعاً وهو ـ وإن كان أجنبياً عما نحن فيه إلاّ أنه ـ ينسجم مع تصرفات عصرنا الحاضر، لذا وجدت من المناسب ذكره لكم: (عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ خرج فرأى قبة مشرفة، فقال: ما هذه؟ قال له أصحابه: هذه لرجل من الأنصار. فمكث حتىٰ إذا جاء صاحبها فسلم علىٰ الناس فأعرض عنه، وصنع ذلك به مراراً، حتىٰ عرف الرجل الغضب والاعراض عنه فشكا ذلك إلىٰ أصحابه وقال: والله إني لأنكر نظر رسول الله ﷺ ما أدري ما حدث فيّ وما صنعت. قالوا: خرج رسول الله ﷺ فرأى قبتك وقال لمن هذه؟ فأخبرناه. فرجع

(١) سورة الشعراء/١٢٣ ـ ١٤٠.

إلىٰ قبته فسوّاها بالأرض، فخرج رسول الله ذات يوم فلم ير القبّة، فقال: ما فعلت القبة التي كانت ههنا؟ قالوا: شكا إلينا صاحبها إعراضك عنه، فأخبرناه فهدمها. فقال: إن لكل بناء يبنى وبالاً علىٰ صاحبه يوم القيامة إلاّ ما لا بد منه). فهذا الحديث وإن كان يناسب البحوث الاقتصادية، إلاّ أنني أحببت ذكره لما يحتويه من فوائد في بيان حدود الاستهلاك في نظام الاقتصاد الإسلامي، وما هو الإسراف والسَرَف، فكل ما زاد عن حاجة الإنسان هو إسراف وعبث، وأما الآية المتقدمة فهي بمعنى الدليل الحسّي علىٰ الجاه والجبروت.

الآية بمعنى آيات القرآن الكريم:

وقد استعملت الآية في القرآن بمعنى ما تتضمنه السور من الآيات كما في قوله تعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾[2].

والأصرح من الجميع قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾[3].

وفي نهاية البحث أسأل الإخوة إذا ما كانوا يوافقون علىٰ تخصيص جلسة أو جلستين للبحث حول الاسلوب الصحيح لفهم القرآن، أي حين نريد أن نتحدث عن الأساليب، وأن لكل علم أسلوباً، نبين أيضاً أسلوب فهم القرآن، إلاّ أنني في هذه الأسابيع الأخيرة واجهت ما اقضّ مضجعي، فقد جاءني شخص بمقال من ثلاثمائة وأربعين صفحة في تفسير القرآن،

---

(١) سورة يونس/ ١.

(٢) سورة الحجر/ ١.

(٣) سورة آل عمران/ ٧.

ورجاني أن أنظر فيه وأبدي رأياً، فقرأت منه اثنتي عشرة صفحة، ورأيت فيها من السفاسف ما اضطرني إلىٰ الرد عليها في سبع صفحات من القطع الكبير، فكتبت له اعتذاراً عن عدم تمكني من قراءة بقية المقال علىٰ هذه الطريقة، وهو مقال يحتوي علىٰ نَفَس ثوري مجدد، إلاّ أن عيبه أنه لا يمتّ إلىٰ الإسلام بصلة، وبعد نهاية الصفحة الثانية عشرة رأيت شيئاً لم أره في حياتي، وذلك أنه فسر (أقيموا الصلاة) بـ (تأجيج نار الثورة المطهرة)[1] مستدلاً علىٰ ذلك بأن الله سبحانه قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[2] إلاّ أننا نشاهد حالياً خمسمائة مليون مصلي أو أكثر لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر، فإما أن نكذب القرآن أو نلجأ إلىٰ تأويل الصلاة بما ينسجم مع صدّها عن الفحشاء والمنكر، وبما أن الأول مستحيل وجب المصير إلىٰ الثاني، فنار الثورة هي وحدها الكفيلة بأن تنهى عن الفحشاء والمنكر، والعجيب أن هذا الشخص معمم دارس في الحوزة، وقد أكمل السطوح ودرّس مقداراً من (المكاسب)[3] وأمثال ذلك، وعليه فإننا لا نأمن علىٰ الإخوة من الانحراف حتىٰ لو تعلموا العربية وأتموا مرحلة السطوح.

[أحد الحاضرين]: إذا أمكنكم أن تبينوا لنا بهذه المناسبة معنى إقامة الصلاة، ولماذا لم يقل، اقرأوا الصلاة؟

[الدكتور بهشتي]: إنني لو حاولت العثور علىٰ آية تصور حالة هذه النوع من التفاسير فلست أجد أفضل من قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ

---

(١) إن هذا النوع من التفسير ينسجم مع نمط تفكير المنافقين ومنظمة فرقان، فقد عمدوا في أوائل الثورة إلى اصدار منشورات في تفسير القرآن، وحاولوا أن يفسروا كل آية بشكل ثوري (بزعمهم) فتصدى لهم المطهري بشدّة حتى أدى به إلى التضحية بحياته، ولا يبعد أن يكون الشخص الذي عناه الشهيد البهشتي واحداً من أعضاء هذه الفرقة المنحرفة.

(٢) سورة العنكبوت/ ٤٥.

(٣) مكاسب الشيخ الأنصاري هو كتاب فقهي ومن المناهج الدراسية في الحوزة العلمية.

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾[1].

وطبعاً لست أنكر اشتمال هذا المقال علىٰ مواطن الحسن إلاّ أن الجزء الأعظم منه يحتوي علىٰ مثل هذه السفاسف، وعلى كل حال فهذه مأساة عصرنا الحاضر، ولكن بما أن هذا الشخص يبدو عليه الاخلاص علىٰ الخصوص وقد طلب مني النصح، فقد أجبته بإخلاص أن يترك القرآن وشأنه، فنحن نهفو إلىٰ إقامة الثوٰرة الإسلامية، ولكن لا علىٰ حساب القرآن وتغيير معانيه وفقاً للرغبات والنزوات الشخصية.

معنى اقامة الصلاة:

وأما (اقيموا الصلاة) وهو ما نقوله يومياً إذ نقول قبل كل صلاة: (قد قامت الصلاة) وكذلك نقول في موارد أخرى مثلاً: إقامة العزاء، وإقامة الاحتفالات وما إلىٰ ذلك فربما يعود سببه إلىٰ أنَّ هذه الأمور تقام فيها أشياء أو يقوم بها أشخاص، وهكذا بالنسبة إلىٰ الصلاة فإن من أركانها القيام.

هذا هو معنى إقامة الصلاة، أما ما قاله هذا الأخ في مقاله من أن هذه الصلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر، فنقول له: إن الرسول ﷺ نفسه قال إن هذه ليست بصلاة، فقد كان النبي ﷺ ذات يوم في مسجد بالمدينة، فدخل رجل وتوضأ مسرعاً وأخذ بالصلاة وكأن هناك من يتعقبه، فلا يضع رأسه علىٰ الأرض حتىٰ يرفعه، فقال النبي ﷺ ما معناه: (نَقَرَ نَقْرَ غراب، إن مات علىٰ هذه الحالة لم يمت مسلماً).

كما تسمى الصلاة في القرآن بـ (الذكر): قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[2].

تعدّ الغفلة عن ذكر الله أحد المناشيء الأساسية لاقتراف الذنوب

---

(١) سورة آل عمران/٧.

(٢) سورة الجمعة/٩.

واجتراح المعاصي، فحينما يصاب الإنسان بالغفلة ينكبّ على الدنيا وينصاع للأهواء ويسعى في طلب الجاه وحب الأنا، فيضعف فيه ذكر الله وينحرف، فالصلاة الصحيحة هي إقامة ذكر الله، فالصلاة من أولها إلىٰ آخرها تهدف إلىٰ إحياء ذكر الله.

ألقيت ذات يوم كلمة حول الصلاة، فأصرّ الإخوة علىٰ طباعتها في كراس، ذكرت فيها أن جميع أجزاء الصلاة هي نماذج متنوعة لذكر الله، فالصلاة التي تحتوي علىٰ ذكر الله (تنهى عن الفحشاء والمنكر) وأما هذه الصلاة التي نصليها حالياً، فليس فيها ذكر الله، حتىٰ شاع بين الناس أنهم إذا أرادوا أن يستحضروا شيئاً بادروا إلىٰ الصلاة كيما يذكروه، ففي هذه الصلاة يتذكر الإنسان كل شيء ما عدا الله. هناك حديث مشهور بين العامة والخاصة، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو كان علىٰ باب أحدكم نهر فاغتسل في كل يوم منه خمس مرات، أكان يبقى في جسده من الدرن شيء؟» قلنا: لا. قال: «فإنَّ مثل الصلاة كمثل النهر الجاري كلما صلى صلاة كفّرت ما بينهما من الذنوب».

وقد وزعت الصلوات الخمس اليومية علىٰ أوقات اليوم الطبيعية فحينما يستيقظ المسلم يبدأ مقطعاً جديداً من حياته اليومية، فيأمره الله بالصلاة ثم يعود من عمله ظهراً ليستريح ويأكل غذاءه ليشبع حاجته الجسدية، فيأمره الله بإشباع حاجته الروحية أيضاً، فيدعوه إلىٰ صلاة الظهر، ثم يعاود عمله من جديد لتحل فترة العصر وما يسمى بالانجليزية (afternoon tea) وهي ساعة استراحة وفيها قد أمرنا الله بالصلاة أيضاً. وعند الغروب يختتم الإنسان عمله ليعود إلىٰ بيته، فيأمره الله بصلاة المغرب، وقبل أن يأوي إلىٰ النوم يأمره بصلاة العشاء. فلو كانت صلاة الإنسان في هذه الأوقات الطبيعية من اليوم والليلة صلاة حقيقية تحتوي علىٰ ذكر الله فإنّها ستنهى لا محالة عن الفحشاء والمنكر.

ثم يأتي شخص بعد مضي أربعة عشر قرناً علىٰ الإسلام ابتداءً من رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام وأصحاب النبي وسائر المسلمين، ليدّعي أنهم كلهم لم يفهموا معنى الصلاة إلىٰ أن منَّ الله علىٰ صاحبنا هذا فألهمه معنى (اقيموا الصلاة) وأنه (نار الثورة المطهرة) ليصير بذلك مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾.

[أحد الحاضرين]: منذ الجلسة الأولى التي حضرتها والتي بدأتم تتحدثون فيها حول الفيكسيسم والترانسفورميسم ليتضح ما إذا كان القرآن يؤيدهما أم لا؟ ثم قلتم إن القرآن يرفضهما معاً، ثم ذكرتم الآيات التي فهمت منها أنها لا تحكم بشأن الفيكسيسم والترانسفورميسم، وعندها بدأت انزعج من هذه البحوث، لكنني تمسكت بالصبر انطلاقاً من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[1] فأنا أقول: إن هذا ليس من وظائف القرآن، فالقرآن (كما أرى) هو هدى ونور، ولذلك قلت في نفسي هل سيأتي اليوم الذي ننجو فيه من بحث المعرفة لندخل فيما يمسّ واقعنا الحياتي وما يقربنا من الله؟ حتىٰ وعدتم بأن الجلستين ستنتهيان لنصل إلىٰ الديالكتيك والبراكسيس، ففرحت كثيراً وقلت: سيغدو بإمكاني هنا أن أبدي رأيي بشأن كتابكم المسمى بـ (فلسفة الدين) إذ وجدت أن ثلثيه حشوٌ، وثلثه الباقي في غاية الضعف، إلىٰ أن قلتم في نهاية هذا البحث إنكم تعتزمون تخصيص جلستين للحديث في استدراكٍ، الأمر الذي أصابني بالاحباط، فإن عمري لا يكفي للاستمرار في هذه الجلسات، وأنا في غاية الأسف علىٰ تضييع الوقت في الأخذ والرد حول مقالة كتبها شخص قرأتم اثنتي عشرة صفحة منها، واضطررتم للردّ عليها بمقدار سبعة صفحات، وأنا اعتذر كثيراً واطلب منكم الإذن بترككم.

[الدكتور بهشتي]: اشكرك يا سيد باقري علىٰ صراحتك، ولكن ينبغي أن أقول لك ولجميع الإخوة إن الذي جرّنا إلىٰ هذه البحوث هو أنه كان

(١) سورة آل عمران/١٠٣ .

لدينا شيئان مستقلان عن بعضهما، والآن نبحث عن شيئين متصلين، فتوصلنا إلىٰ أن كلا هذين البحثين ناقص، وأما إذا أردت بيان سبب استهلاك الوقت في الردّ علىٰ هذه المقالة، فإني سوف اضطر إلىٰ كشف هوية ذلك الشخص وهذا ما لا أريده، وإنما أردت فقط ايضاح الأسلوب، ولا أرى في ذلك مضيعة للوقت، بل هو عين الواجب، رحم الله الدكتور شريعتي فقد قال في إحدى خطبه: يتهمني البعض بأني أقول ولا أفعل، والذي أريد أن أقوله هو أن لنا مئة سنة ونحن لا نعرف التكلم أيضاً، لأننا إنما نكون تكلمنا فيما إذا استتبع كلامنا هدايةً ووعياً.

إن فهم القرآن مشكل، وأنا آسف إذا اضطررت أحياناً لجرح مشاعر بعض النفوس الرقيقة حينما أستشهد بأقوال شخصيات غير إسلامية، وذلك لأننا نعيش في عالم يعتبرها شخصيات عاملة، ولذا سأنقل كلاماً لماركس وجّهه لناشر الترجمة الفرنسية لكتاب رأس المال: قل لأولئك الذين يتصورون أن للتحقيق طريقاً لاحبة، إنما هي في غاية الوعورة، ولا يمكن تجاوزها إلاّ لإنسان صبور وعارف بالطريق.

أعتقد أن السيد الباقري يتصور أنه أضاع سنوات من عمره البالغ ستين عاماً بالبطالة، والسبب في ذلك أنه كان عجولاً علىٰ الدوام، ومن كان كذلك لا يعثر علىٰ الطريق، ولا يمكنه أن يدلّ علىٰ الطريق. فنحن بحاجة إلىٰ حركة جادّة للوصول إلىٰ الهداية، ولكن بالصبر وتجاوز العقبات، ويجدر بالذين يتحدثون عن العمل أن يقرأوا كتاب (رأس المال) لماركس وأوصيكم جميعاً أن تقرأوا هذا الكتاب، واعترض علىٰ الاسلوب المتبع حالياً والقاضي بالمنع من قراءة هذا الكتاب، فأطلب من السيد الباقري أن يقرأ الصفحات السبعين الأولى من هذا الكتاب بأي لغة كانت فارسية أو عربية أو انجليزية أو فرنسية لترى كم ساعة يحتاج الإنسان ليفهم هذه الصفحات إذا تمكن من فهمها!

حسناً! ألم يكن ماركس ثورياً؟ ألم يكن عاملاً؟ ألم يكن كتابه ثورياً؟ إن أهم ما كان يرمي إليه ماركس ـ كما قال هو ذلك ـ أن يبين النقاط الدقيقة للبحوث الاقتصادية التحليلية، وقد تقدمت وصيته لناشر كتابه الفرنسي مصرحاً له بقلقه بشأن الجمهور الفرنسي من القرّاء، إذ يتعجل اصدار الأحكام، فربما لا يستهويه الكتاب فيعرض عنه، إلاّ أن طريق التحقيق ليس معبداً.

وعليه فسواء أرضيت أم لم ترض يا باقري، فإني أقول لك بصراحة إن الذي يريد ـ برغم سذاجته ـ أن يقيم حركة في المجتمع دون فهم القرآن بدقة، فإن النجاح لن يكون حليفه، وإذا قدِّر له النجاح فسوف ينحرف عن الإسلام إن عاجلاً أو آجلاً، فكيف نصنع حتىٰ نفهم الإسلام؟ لا بد من التمحيص والتدقيق والتدبر في الآيات واستقصائها كلمة كلمة وجملة جملة، لا لمجرد تمضية الوقت، وإنما لكي نصل إلىٰ حقيقة جديدة تصلح أن تكون حلاً لمشاكلنا المعاصرة، كان هناك شخص في بداية هذه الليلة قد سألني سؤالاً، وأريد منه الآن أن يتقدم ويكرر سؤاله.

[أحد الحاضرين]: قلت بما أن البحث دائر حول النظام الاجتماعي الإسلامي والماركسي، واتفاق الجميع علىٰ أن للإسلام نظاماً اجتماعياً متكاملاً، إلاّ أن الماركسيين يتذرعون أحياناً بالنظرية الداروينية، قائلين: إن القرآن ليس كتاباً علمياً، فقد أثبتت نظرية التطور أن الإنسان قد ولد من قرد.

[الدكتور بهشتي]: شكراً، نحن لا نتكلم فيما إذا كان القرآن قد تحدث عن الداروينية، إلاّ أننا قلنا: إذا كان ارتباط قصة خلق الإنسان بالداروينية أو الفيكسزمية أو الترانسفورميّة يعيق طريق شبابنا المؤمن والباحث، فما نقوله من أن القرآن ليس ترانسفورميسم ولا فيكسيسم دون أن ندخل في تفاصيل البحث، فهذا يسمى تنصلاً عن الاجابة، وأثر ذلك النفسي هو الضَعف والاضمحلال، ونحن لا نريد ذلك.

وعلى كل حال نشكركم علىٰ تحملكم وصبركم برغم تقدمكم في السن، فأعرتم أسماعكم لأمور غير ذات بال، وأما بالنسبة إلىٰ أسلوبي فإني أقولها بصراحة إني أؤيد فهم القرآن الكامل والجامع والدقيق، وأعلم أن ذلك يحتاج إلىٰ جرأة وصبر، وتقدم تدريجي، وإذا استغرق منا هذا التدقيق وقتاً طويلاً فإني سوف لا انزعج، بل سأكون سعيداً علىٰ أني لم اتعامل مع القرآن معاملة سطحية ولم اشجع علىٰ فهم القرآن بشكل ساذجٍ.

الجلسة العاشرة

خلاصة البحث السابق:

تحدثنا شيئاً ما حول مسألة بُعد المعرفة في اجتماعنا السابق، وتوصلنا إلىٰ أن القرآن يؤيد استعمال الحواس في كسب المعلومات، كما يؤيد شيئاً آخر يفوق الحس وهي القوّة التي تصل من خلال ما نحصّله عن طريق الحواس إلىٰ معلومات أخرى، والمثال الواضح لذلك أنّا لا نشك في القوانين العلمية المسيطرة علىٰ الطبيعة. وقد أكدّ القرآن الكريم كثيراً الاعتماد علىٰ هذه الطريقة للوصول إلىٰ المعلومات، فدعا الناس إلىٰ الاستفادة من الآيات والأدلة (المحسوسة) للوصول إلىٰ ما تقوم عليه هذه الآيات من الأمور (غير الحسية). كما بحثنا حول مصطلح (الآية) بأبعادها المختلفة في القرآن من خلال الرجوع إلىٰ الآيات.

شبهة حول المعرفة:

برغم وضوح هذه المسألة لكل من يطالعها، إلاّ أنه منذ أكثر من عشرين قرناً تثار حول هذا الأمر البيّن والمحكم، شبهة ناشئة من المتشابهات مفادها: أننا نواجه اشتباهات في استنتاجاتنا في عملية اكتشاف أمر غير محسوس عن طريق أمرٍ محسوس، ومعه كيف يمكن الاعتماد علىٰ هذه المعرفة؟ وبذلك يزعزعون أسس أبعاد المعرفة، فإن الكثير من الناس يفكرون في هذا العالم المحسوس (عالم المادة) إلاّ أن النتيجة الحاصلة تختلف، فبعض يتوصل إلىٰ أن مصدره بأكمله هو المادة، بينما يذهب الآخرون إلىٰ أن مصدره أمر غير مادّي، وبعدها كيف يمكن الاعتماد علىٰ

ما يؤدي إلىٰ نتائج مختلفة؟ وقد أجيب علىٰ الذين يثيرون هذه الشبهة علىٰ الدوام بأن هذا الخطأ تقع فيه الحواس أيضاً.

وقوع الخطأ في المعرفة لا ينحصر بالاستنتاج والتفكير:

إن وقوعنا في الخطأ لا ينحصر بالاستنتاج والتفكير، أفلسنا نشتبه من ناحية الحواس؟ فإذا كان الأمر كما تقولون فما علينا إلاّ أن نطوي المعرفة من الأساس، إذ أن الناس يختلفون حتىٰ بالنسبة إلىٰ الحس، فإنك إذا وضعت صفحة علىٰ بعد مترين، فهناك من يتمكن من قراءتها، وهناك من لا يمكنه ذلك، فهذا أمر حسيّ يراه شخص ولا يراه آخر.

مثال معروف لخطأ الحواس:

هناك تجربة معروفة لإثبات إمكان وقوع الحواس في الخطأ، وذلك بأن نُحضر إناء فيه ماء فاتر، ثم نقول لشخص أن يضع يده أولاً في الماء الحار وبعدها في هذا الإناء، ثم نأمر شخصاً آخر بأن يضع يده في ماء بارد، وبعدها في هذا الإناء، بعدها سيحكم الأول علىٰ ماء الإناء الفاتر بأنه بارد بينما يحكم الآخر عليه بأنه حار، هذه مسائل ابتدائية في المعرفة والحس، فأحياناً يقول شخص إنَّ قدرة المعرفة الحسيّة في كل الموارد تطابق الواقع بشكل مطلق وكلّي وتعطينا إدراكاً دون قيد أو شرط، فعندها نواجهه بمثل هذا المثال، إلاّ أننا لا ندّعي ذلك وإنما نقول: إن الحواس يمكنها أن تكون وسائل المعرفة علىٰ نحو إجمالي ولها بُعد، تأخذنا إلى مكان ما، وتعرف أذهاننا ببعض الأمور، وهكذا بالنسبة للاستنتاجات والفكر فإنهما يعرفاننا ـ إلىٰ حدٍ ما ـ بأمور غير حسّية، فالمعرفة في كلتا الحالتين إجمالية وليست مطلقة، فنحن لم نقل إنَّ الذهن كلما تحرك بلغ بنا أموراً واقعيَّة، بل إننا نقول إنها قد تقوم بذلك. والذي يسعنا فعله هو أن نبحث عن طريقة ترفع من مستوى الحواس والاستنتاجات، فتنخفض نسبة وقوعها في الخطأ، وهذا ما سندخل في تفاصيله في بحث الأساليب والبحوث

القادمة، إذن فلا يصح التقليل من شأن الحواس والفكر بحجة أنهما يقعان في الخطأ أحياناً، وقد تعرض القرآن إلىٰ هذه المسألة أيضاً وبالنسبة للحس أيضاً فإن الجميع يقرّون بأن الخطأ الإجمالي للحواس لا يعدّ سبباً وجيهاً لإهمال دوره.

ذكر القرآن لخطأ الحواس:

لقد ذكر القرآن نماذج من خطأ الحواس، فيذكر مثلاً نموذجاً معروفاً عن خطأ الحواس (إلاّ أنه في الواقع ليس خطأ الحواس وإنما خطأ الاستنتاج) هو السراب، وهو ما يظهر في الصحراء وعلى الأرض المعبدة نتيجة انعكاس ضوء الشمس عليها، فيتصور الإنسان أن هناك ماءً، إلاّ أنه ليس بماء، والعجيب أن البعض يتصوّر أن هذه أمور قد ادركها الإنسان في هذه العهود المتأخرة بفضل التطور العلمي في الغرب وأوروبا، وأنها لم تكن معروفة في الماضي، وكأن البحث في خطأ الحسّ أو الفكر أمر جديد، وكأن أذهان المسلمين وعامة الناس كانت لا تعرف ذلك، وبناءً عليه لا بدَّ من تنويرهم بذلك، مع أنها من الأمور القديمة وقد تطرق إليها القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1]. وإن كان هدف القرآن من طرحها أمر آخر، لكن ذكرها في القرآن يدلّ على أن الناس يعرفون ذلك، وليس الأمر جديداً، فمنذ القِدم كان سكان الصحارى في المناطق المشمسة وقليلة الماء وفي الهضاب المستوية يعرفون السراب، ويسمّونه بالسراب.

وبذلك تلاحظون أن القرآن قد استفاد من هذا المثال الميسور لبيان أمر فكري، فعمل الكافر سراب، فهو ظاهر دون محتوى، إذ يبدو أنَّ ما يراه حقيقياً، لكنه ما إن يدنو منه لا يجده شيئاً، والطريف أنك تجد في هذه

---

(١) سورة النور/ ٣٩.

الآية نفس الكلام الذي يذكره السادة في كتبهم ومنشوراتهم، إذ تذكر هذه الآية علل السراب الطبيعية: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ﴾ فهو يحدث أثر انعكاس ضوء الشمس علىٰ الجسم المنبسط، ولذلك لا يرى السراب في المناطق الجبلية، ثم تعرض إلىٰ العوامل النفسية فقال: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ فالظمآن بحاجة إلىٰ الماء أكثر من غيره فيكون أسرع وقوعاً في الخطأ، وهذه كلها أمور طبيعية، فلست أدّعي أنها من معاجز القرآن، وإنما الذي أريد قوله: إن هذه الأمثلة الواضحة التي تعرضت إلىٰ خطأ الحواس أو الاستنتاج ليست من ابتكارات العلوم الحديثة، ففي الوقت الذي يذكر فيه هذا النصّ نموذجاً لهذا النوع من الخطأ يؤكد اعتبار البعد الحسي واستنتاج الأمور غير الحسيّة منه في الجملة، إذن فلا ينبغي اعتبار هذه الشبهة أمراً جديداً يمكنه زعزعة هذا الأساس الثابت، وإنما هي مسألة قديمة، وقد تعرض لشرحها صاحب مجمع البيان قبل ثمانمائة سنة بأسلوب بديع، قبل ظهور عصر النهضة في أوروبا، وشرح معها شيئاً آخر بالمناسبة اسمه (الآل) وإليك بيانه:

شرح السراب في مجمع البيان:

يقول: (السراب هو شعاع يتخيل كالماء يجري علىٰ الأرض نصف النهار حين يشتدّ الحر، والآل هو شعاع يرتفع بين السماء والأرض كالماء ضحوة النهار وهو يحدث بسبب شدَّة الحر وضغطه، فيتحرك الهواء إلىٰ الأعلى بقوة حتى يكاد أن يرفع الشخص الذي فيه) أي أن خفة الهواء المصحوبة بالضغط الخاص وفي تلك الظروف الفيزيائية يمكنه أن يرفع الأجسام الثقيلة من مكانها، وهو أمر طبيعي جداً، وليس أمراً موهوماً ليعطى بُعداً خفياً، أو اعتباره أمراً فوق الطبيعة. كما أن السراب هو أمر طبيعي أيضاً وهو عبارة عن انعكاس النور بما يظهر للإنسان أنه ماء.

هذا وقد ذكر السراب في غير ذلك من الكتب، ولم أذكر هذا المصدر إلاّ كنموذج، إذن فهذا ليس شيئاً جديداً ولا ينبغي أن يوجد خللاً

ويشكل عقبة أمام البُعد الحسي أو الفكري للحصول علىٰ المعرفة.

وأما ما قلته من أن السراب يذكر عادة بوصفه من خطأ الحواس، إلاّ أنه في الحقيقة من الخطأ في الاستنتاج الذهني، فأرجو من أحد الإخوة أن يبيِّنه حتىٰ لا أكون أنا المتكلم الوحيد في هذا الاجتماع.

[أحد الحاضرين]: إذا كان الخطأ بالنسبة إلىٰ السراب ناتجاً عن الحس، فلا بد أن يكون العيب في عين الناظر، في حين أن عين الناظر سليمة إلاّ أنه يتصور أنه رأى ماء، وبعبارة أخرى: إن النور المنعكس قد رأته العين علىٰ ما هو عليه في الواقع، إلاّ أن الذهن قد أخطأ في تطبيقه علىٰ مصداقه.

تحليل علَّة وقوع الخطأ في الحواس:

[الدكتور بهشتي]: أحسنت، وأضيف موضحاً كلامك وأقول: ما هي وظيفة العين السليمة؟ إن وظيفتها هي التقاط الصور عن العالم الخارجي، فإذا انعكس النور من شيئين بدرجة واحدة فإن العين ستقوم بعملها في التقاط الصورتين علىٰ ما هما عليه، فكما أن العين تلتقط صوراً لانعكاس النور علىٰ سطح الماء، يمكنها أن تلتقط انعكاس النور فيما إذا انعكس من سطح الصحراء أو الشارع المعبد، فهي في الواقع صورة واحدة عن نور منعكس عن جسم، إلاّ أن الإنسان بما أنه اعتاد علىٰ رؤية ذلك بالنسبة إلىٰ الماء فقد قام بتعميم هذا الحكم، فأخذ يطلق الماء خطأً حتىٰ علىٰ النور المنعكس من سطح الصحراء، لا سيّما إذا كان ظمآناً، إذن فهو ليس من خطأ الحس، فالحس أدى وظيفته حسب الأصول، وإنما الخطأ في تطبيق الذهن لهذه الصورة علىٰ مصاديقها.

[أحد الحاضرين]: إذن لا يوجد عندنا شيء باسم خطأ الباصرة.

[الدكتور بهشتي]: هذا ما أردت أن أذكره الآن...

[أحد الحاضرين]: ولكن هناك موارد يكون فيها خطأ الحس بشكل آخر، كما هو الحال بالنسبة إلىٰ تجربة باولف حيث كان يقرن تقديم الطعام إلىٰ الكلب بقرع الجرس، ثم بتكرار العمليّة أخذ لعاب الكلب يسيل بمجرد سماع صوت الجرس وإن لم يكن هناك طعام في البيت، فكيف يمكن توضيح ذلك؟

شرح المنعكس الشرطي:

[الدكتور بهشتي]: هذا هو المنعكس الشرطي الذي يحصل بتأثير من أمر ذهني، حيث يتصور الطعام، ففي البداية كان تصور الطعام يتم عن طريق إحضار الطعام، فيحصل عندها لدى الذهن تصديق صحيح بوجود الطعام يؤدي إلىٰ ردود فعل نفسية وعصبية وبيوكيمائية، تفرز فيها الغدد اللعابية التي في فم الكلب، وبعد أن اقترن إحضار الطعام بقرع الجرس فأخذ صوت الجرس يقوم بنفس الوظيفة التي كان يقوم بها إحضار الطعام علىٰ طريقة تداعي المعاني، ولولاه لما أفرزت الغدد اللعابية، إذن فلنترك هذه المسألة جانباً، فإن ترشح اللعاب نتيجة طبيعية لهذا التصديق.

بالنسبة للماء فإن الأمر كذلك أيضاً، فإن صورة السراب عندما نفذت من العين إلىٰ الذهن، فتصور أنها ماء، لأنه كان يرىٰ ذلك من قبل ويلمس الماء ويشربه، وما تراه العين حالياً هو مصداق لما كان قد رآه ولمسه وتناوله من قبل، فالصورة عينها التي تنطلق عادة من سطح الماء.

[أحد الحاضرين]: لا إشكال في ذلك، لأن كل ما تلتقطه العين يرسل صوره علىٰ نقاط محددة من المخّ، ويصدر عن المخّ أمر، ليتحرّك ردّ الفعل في مقابل هذا الشكل.

[الدكتور بهشتي]: كلا.. اسمح لي.. توجد مسألة ناقصة هنا، فالقضية ليست قضية ردّ فعل أو (ري أكشن) وليست (ريفلكس) بل هي قضية تفسير، أي أنه صار يفسر صوت الجرس بوجود الطعام، وارتباط

صوت الجرس بحضور الطعام مشابه لارتباط انعكاس النور بوجود الماء.

[نفس الشخص]: وعليه يجب أن نقبل أنَّ بعض الأمور الغريزية قد تتغير.

[الدكتور بهشتي]: أبداً.

[نفس الشخص]: إن لم يكن الأمر كذلك، فعندما يسيل لعابي عند الجوع، كيف يمكن أن يكون ذهني مخطئاً، وقبل أن أحس بالجوع قد يخطىء ذلك العامل الآخر ذهني، ليوهمه بأنه حان وقت الطعام، وأنك جائع؟

[الدكتور بهشتي]: هذا مثال ثالث، اسمح لي أن لا ننشغل الآن بهذا المثال، لأن بحثنا هو شيء آخر. لنتابع نفس مثال (باولف) في ردّ الفعل المشروط لباولف فإن انطلاق صوت الجرس أصبح علامة لحضور الطعام، لكن هذه العلامة لا تتلازم بشكل واقعي وحتمي مع صاحب العلامة. أي أنه قد يكون هناك طعام دون انطلاق صوت الجرس، وقد يكون هناك صوت جرس دون وجود طعام. الحالة التي يوجد فيها الطعام دون الصوت ليست محل ابتلاء، المطروح هو وجود الصوت دون طعام. إن صوت الجرس هو علامة غير دائمة ومتلازمة مع حضور الطعام، لكن التجارب السابقة للكلب أثبتت له تلازم هذين الأمرين، ولم يجرّب انفصالهما، لذلك فهو عندما يسمع صوت الجرس يتصور حضور الطعام ويصدّق ذلك.

[أحد الحاضرين]: أي سيطرأ تغير علىٰ غريزته الثابتة؟

[الدكتور بهشتي]: لماذا؟ إن غريزته تقوم بإفراز اللعاب بمجرد تصور الطعام. . .

[ذلك الشخص]: ما الذي يدعوه إلىٰ تصور الطعام؟

[الدكتور بهشتي]: لا فرق فأياً كان السبب! إن اللعاب يسيل بمجرد تصور الطعام أيّاً كان سبب هذا التصور، فسواءٌ كان ناشئاً من رؤية الطعام أو

سماع الجرس، فيحصل ارتباط ذهني بينهما، ولا يزال هذا الارتباط الواقعي والنفسي والذهني والبُعد البيوشيميكي بين توجه الذهن إلى الطعام أو على صورة تصديق أو تصور موجوداً. فالذي يؤدي إلىٰ ترشح اللعاب ليس هو صوت الجرس، وإنما هو تصور الطعام الناشىء من سماع الجرس، وهكذا الأمر بالنسبة إلىٰ السراب، فالصورة المنعكسة عن الماء والطريق المعبدة واحدة، إلاّ أن الذهن نتيجة لتجاربه السابقة من لمس، وغرف باليد، وشرب قد جرَّب وفسَّر، فيرىٰ أنَّ هذه الصورة هي صورة ماء، ويقيس هذه الصورة مع الصور السابقة فيقول الذهن: إنها ماء أيضاً. وهذه عادة في الإنسان، إلاّ أن هذه العادة التي تكون سبباً في الوقوع في الخطأ في مورد واحد أو موردين أو ثلاثة أو أربعة أو عشرة لا تنقض قيمة المعرفة ولا تبطلها بالمرة.

هل الخطأ واقع في الحس أو في تفسير الحسّ؟

أما سؤالكم حول ما إذا كانت الأخطاء بأجمعها تقع في الاستنتاج الذهني؟ أو هناك اخطاء في الحسّ؟ فجوابه يتوقف علىٰ تفسيرنا لمعنى الحس، فإن كان الحسّ هو مجرد ذلك الأثر الفيزيقي الذي يتركه الشيء الخارجي علىٰ الجهاز العصبي، فعندها لا بد من القول بأن الخطأ لا يتطرق إليه، نعم يتطرق إليه التنوع، وهناك فرق بين الخطأ والتنوع، فالمثال بشأن الماء الفاتر والحار والبارد المتقدم يأتي هنا، فإن الأثر الذي يتركه الماء الفاتر علىٰ الجهاز العصبي عند الشخص الذي وضع يده في الماء البارد أولاً يختلف عن الأثر الذي يتركه علىٰ الشخص الآخر الذي وضع يده في الماء الحار أولاً، وعندها سيوجد تنوع في الأثر الذي يترك علىٰ الجهاز العصبي، وليس هناك من خطأ؛ إذ أن الخطأ إنما يصح إطلاقه بعد أن يتدخل الذهن ويصدر حكمه، وعليه إذا قال شخص: ليس لدينا خطأ بالنسبة إلىٰ الحواس. فهو صادق، ولكن كما تعلمون فإن الحسيّين إنما يستندون إلىٰ

الحس الذي يتعقبه تدخل من قبل الذهن، ولا يعتمدون علىٰ مراحل ما قبل الذهن، لأن تلك المراحل ليس لها قيمة إدراكية، وإنما هي مجرد أمور فيزيقية لا تعدُّ من اقسام المعرفة، وإنما هي من مقدماتها.

ومن هنا نقول: هل تنحصر المعرفة ببُعد الحس أو لا بد من إضافة بُعد التفكير والاستنتاج من الحسّ فيما أسميناه حسّاً أو لم نسمه حسّاً، وهذه بحوث لفظية لا بد من تجنبها، فالمهم أن القرآن نزل بين أناس يعرفون الخطأ الحسي أو الخطأ الناتج عن تفسير ما يرد إلىٰ الذهن بواسطة الحسّ، وقد استفاد القرآن من بعض موارد هذا الخطأ لبيان مراده، إلاّ أنه برغم ذلك لا يراه رادعاً ومانعاً من الاستفادة من بعد الحس وقوة الاستنتاج من الأمر الحسي كوسيلتي إدراك ومعرفة، هذا فيما يخصّ الحس، وأما بشأن استنتاج الأمور غير الحسية من الأدلة والآيات الحسية، فهناك نماذج كثيرة ذكرها القرآن، منها قوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[1] ففي ذلك إشارة إلىٰ هذه الحقيقة، إذ أنهم يمتلكون هذه الحواس، إلاّ أنهم عاجزون عن الاستنتاج، وبذلك فإن القرآن برغم ذكره لوقوع الخطأ في الادراك والاستنتاج إلاّ أنه مع ذلك يحث علىٰ التدبر، ولا يجعل من وقوع الخطأ مانعاً من الاستفادة الصحيحة من بُعد الحواس والقوة الاستنتاجية، هذا هو الحق الذي يقوم عليه تفكيرنا وتفكير الحسيين، وإلاّ كنا بأجمعنا من الشكّاكين، وتعيّن علينا غلق صفحة البحث بشأن المعرفة من الأساس.

كنت أزمعت الدخول في بحث جديد، إلاّ أن ضيق الوقت لا يسمح لنا بذلك، لذلك سأكتفي بذكر عنوانه فقط.

إلى الآن تمّ التعريف بمرحلة الحس والاستنتاج من الحس وأبعادهما النسبية في المعرفة، أو فهمنا ـ في الأقل ـ رأي القرآن في هذا المجال (لأن

---

(١) سورة الأعراف/ ١٧٩.

جلّ اعتمادنا في بحثنا إنما هو على القرآن) ويبقى لدينا بُعدان آخران في مسألة المعرفة لا بد لنا من التعرف عليهما وتبادل الآراء بشأنهما وما هو رأي القرآن فيهما.

الكشف الشهودي بوصفه مصدراً للمعرفة:

البُعد الأول: الكشف الشهودي والإشراق، والكشف والشهود والبصيرة، فمنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ظهرت في جميع الأمم والثقافات المختلفة جماعات باسم العرفاء يذهبون إلىٰ بُعد آخر من أبعاد المعرفة، بل يرون أن المعرفة تنبثق عنه، وأنَّ بقية أدوات المعرفة سطحية، وذلك البعد هو: بعد البصيرة والرؤية الباطنية والكشف والشهود والمكاشفة والإشراق وأمثال ذلك، فعلينا أن نتعرف علىٰ هذا البعد، ولا أقول بأننا لا بد لنا من أن نرتضيه، وإنما نريد أن نرى رأي القرآن فيه.

الوحي بوصفه مصدراً للمعرفة:

البُعد الثاني: الوحي، فنحن علىٰ يقين من أن القرآن والكتب السماوية الأخرىٰ تعتمد هذا البُعد من المعرفة، فعلينا أن نعرف ما هو الوحي وما هو المقدار الذي يمكننا معرفته بشأن الوحي.

وبما أني أزمعت علىٰ السفر بعد الانتهاء من هذه الجلسة، وسأغيب عنكم قرابة عشرين يوماً، لذا فإني أهيب بكم أن تغتنموا الفرصة وتطالعوا حول هذا الموضوع في حدود القرآن، وما قاله (برغسون)[1] و(وليم جيمس)[2] والردود التي أوردها (راسل)[3] عليهما، ويمكنكم في هذه

---

(١) هنري برغسون (١٨٥٩ ـ ١٩٤١) فيلسوف فرنسي، دافع عن الروحانية ضد مذهب الوضعية والمادية، له كتاب (محاولة في درس أوضاع الوجدان).

(٢) وليم جيمس (١٨٤٢ ـ ١٩١٠) فيلسوف وعالم نفس أمريكي، له كتاب (مبادىء علم النفس) و(ضروب الخبرة الدينية).

(٣) برتراند راسل (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠) فيلسوف ورياضي ومنطقي انجليزي.

المسألة أن تختموا القرآن بشكل كامل لتتعرفوا علىٰ الآيات القرآنية المتعلقة بشأن هذين البُعدين من المعرفة.

والآن وبعد أن قرأت لكم هذه الآية اسمحوا لي بأن أقرأ لكم الآيات التي تسبقها والتي تليها لنختم كلامنا كالعادة بالمسك ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1] وهذه الآيات جميلة جدّاً وترتبط بأبحاثنا إلىٰ حدٍّ ما، وهي الآيات المعروفة بآيات النور، والتي علىٰ أساسها سميت سورة النور:

تفسير سورة النور:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[2].

والانصاف أن تطور النهضات لو لم يلجئنا إلىٰ هذه الأبحاث لأمكننا تجاوزها، ولاكتفينا بتقليب وجوه القرآن لا نتعداها إلىٰ سواها، ولأصبح القرآن بيننا حيّاً وممتعاً، ولكن كيف نصنع وليس بوسعنا أن نغفل

---

(١) سورة المطففين/٢٦.

(٢) سورة النور/٣٥ ـ ٤٠

الضرورات المعاصرة، فانظروا إلىٰ روعة القرآن في هذه الآية، وهكذا الأمر بالنسبة إلىٰ القرآن بأجمعه، فأحياناً تقوم الآية أو السورة بوضع يدها علىٰ جميع مشاكل الإنسان، ومن هنا كان القرآن كتاب هداية وحركة ودعوة، وأما أبحاثنا فهي تسير إلىٰ جانب الحركة، ولا يمكنها أن تكون هي الحركة، وطبعاً بما أني قد جرّبت ذلك، أجد نفسي مضطراً للوقوف علىٰ هذه التجربة الثانية، فذات مرّة قمنا بحذف هذه الأبحاث ودخلنا ساحة الحركة، فتعرضنا إلىٰ طعنة في الظهر بواسطة هذه الأبحاث، وعندها أدركنا ضرورة مراقبة كلاً من الاتجاهين بأعيننا.

فهذه الآية تقول: إن مثل نور الله يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، فوقود هذا النور من شجرة مليئة بالزيت الخالص، حتىٰ أنه يشتعل قبل أن تمسه النار، والله يهدي لهذا النور من يشاء، ويكون هذا النور في بيوت أراد الله أن يرفعها ويذكر فيها اسمه، مثل الكعبة التي بناها إبراهيم أو أقام دعائمها، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾[1] وفي تلك البيوت رجال وأناس يخافون سوء المنقلب، فيجزيهم الله بفضله علىٰ صالح أعمالهم.

وفي قبال هؤلاء تجد الذين كفروا أعمالهم كسراب في صحراء يحسبه الظمآن ماءً، حتىٰ إذا دنا منه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده، فوفّاه حسابه، ثم تنثال عليه الظلمات حتىٰ لا يرى شيئاً بعد ذلك، ولا يمكنه الادراك والمعرفة، وإذا أخرج يده لم يكد يرها.

أكرر ثانية: ما أعظم سعادتنا لو أمكننا التخلص من قيود الأبحاث وانشغلنا بشكل كامل بالقرآن دون أن نلجأ إلىٰ الحواشي الأخرىٰ التي تعيق حركتنا.

فاحفظوا تأثير هذه الآيات في انتعاش أنفسنا، فإنها ستنفعنا في بحث

---

(١) سورة البقرة/ ١٢٧.

الإشراق والعرفان فيما يخص القرآن، ولو أمكن لهذه الآيات أن توجد في أنفسنا إحساساً روحانياً ونورانيّاً، ربما أمكننا توضيح معنى الإشراق من وجهة نظر القرآن إلىٰ حدٍّ ما، وأنا لا أريد أن أجزم بذلك، وإنما أريد أن أقول إن هذه الآيات صارت نموذجاً عملياً لبحث ذلك البُعد من الإيمان.

هذه آية النور التي اختتمت بها بحثنا لهذه السنة لتبقىٰ ذكرىٰ عطرة لنا جميعاً، أتمنى لكم سنة جديدة مباركة ملؤها الجد والسعي والتمتع بأبعاد فكرية وعملية تساعدنا علىٰ معرفة واجباتنا وأدائها والعمل بها، وأن تكون سنة تقدم لشعبنا نحو الهدف الذي ناضلوا من أجل بلوغه لعشرات السنين، ولا شكّ أن جهودهم تلك ستكون مثمرة إذا ما كانت واعية ومخلصة، كما وعد الله بذلك، وآمل أن لا تدفن تضحيات الشهادة والمقاومة والنضال المستميت لأبطال قم وتبريز وسائر المدن تحت الزنابق التقليدية لأعياد النوروز، وأن نتمكن جميعاً من إحياء تلك الذكريات. ولا شكَّ أن بداية العام الجديد لا تكتمل إلاّ بزيارة الأهل وصلة الرحم، لكن ما نتمناه هو أن لا تنسينا أننا أناسٌ يحافظون علىٰ ذكرىٰ تلك البطولات العزيزة لمجتمعنا. وعليه لا بأس باللقاءات والزيارات، لكن أن لا تتعارض مع تلك الذكرىٰ. أسأل الله التوفيق لي للقيام بذلك. وأسأله تعالىٰ أو يوفقني خلال بحثي هذا معكم أن لا أطرح إلاّ ما هو مفيد لفهم الموضوع، وأتوقع منكم أن تلفتوا نظري عن إطالة الحديث في غير محله، لنستمر بشكل أفضل وأكثر نفعاً. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله الطاهرين.

أسئلة وأجوبة:

. . .[1] يصرح القرآن بعجزها، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[2] وبحثنا أيضاً حول الفؤاد وذكرنا آية

---

(١) قطع في الشريط.

(٢) سورة الحج/٤٦.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾[1] حيث القلب الضالّ، يقول يمكننا أن نعيده إلىٰ شكله المطلوب ونوجهه، أي أن الأفئدة والأبصار يمكنها أن تدرك بشكل واقعي كما تدرك بشكل غير واقعي وعليه يعدُّ القلب والفؤاد في القرآن من أدوات المعرفة والادراك، إلاّ أنّه لا يُؤمَن عليهما من الضعف والخطأ، اتصور أننا تمكنا من عرض المسائل الأساسية التي تتعلق بالمعرفة في القرآن (لا المسائل الفلسفية والتحليلية) بيسر، وتجاوزنا الشبهات بسهولة، فإن تلك الشبهات إنما تجد لنفسها مجالاً إذا لجأنا إلىٰ البحوث التحليلية، إلاّ أننا مضطرون إلىٰ ذكر هذه الشبهات لنرى هنا مدى ارتباطها بالقرآن، آمل في المستقبل إذا تمّ تنقيح هذا البحث وتفسيره إن شاء الله أن نبيّن مسألة المعرفة من وجهة نظر القرآن ـ التي هي أساس الرؤية الكونية والآيديولوجية الإسلامية ـ بالشكل الذي يريده القرآن وترتضيه الفطرة.

[أحد الحاضرين]: إن هذه الآية من سورة النور معروفة جداً، وقد كتبت علىٰ كثيرٍ من جدران المساجد، إلاّ أنها في غاية الابهام، إذ ما هو السرّ في تشبيه نور الله بنور المشكاة؟ وهل يمتاز هذا المثال عن غيره من الأمثلة؟ وقد عبرت الأمر دون تعليق. فما هي ميزة هذا التعريف عن باقي التعاريف؟ يبدو أنه أكثر تعقيداً.

[الدكتور بهشتي]: طبعاً إن الأمر كما تقولون، فإن هذه الآية تحاول إثارة التفكير والبحث، فالقدر المتيقن هو أن القرآن يلهب الأفكار بسوطه، ويدعوها إلىٰ الحركة، أي أن القرآن كما يريد للأفكار أن تستند إلىٰ حقيقة ثابتة، يهيب بها نحو الانطلاق، فالقرآن يحث علىٰ الانطلاق مع الحفاظ علىٰ الارتباط بالمبدأ، فالخطر يكمن في الانطلاق بالفكر مع قطع الارتباط بالمبدأ، بالضبط من قبيل الأقمار الصناعية، فإنها إنما تكون مفيدة ونافعة فيما إذا حافظت علىٰ ارتباطها واتصالها بمركز التوجيه والقيادة، أما إذا

---

(١) سورة الأنعام/ ١١٠ .

انقطع الاتصال بها فسوف لا يكون مصيرها سوى الانفجار والاندثار. فهذه الآية من الآيات المرتبطة بانطلاقة الإنسان الفكرية، وسوف أشير إلىٰ مقاطعها واحداً بعد واحد؛ حتىٰ يتسنى لكل واحد منكم أن يدرسها في حدود قابلياته، وطبعاً يصرّ المفسرون علىٰ أن المراد من ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ هو أنّ الله صاحب نور السماوات والأرض، إلاّ أن صدر المتألهين[1] وأمثاله من ذوي الرؤية الواسعة، يقولون: إن الله هو نور السماوات والأرض، وهذه من تلك المقاطع التي تنطلق منها الأفكار.

وأما فقرة: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ فهي بيان لارتباط مركز هذا النور بميادين الاستفادة منه، والعوامل التي تساعد علىٰ الاستفادة الصحيحة من مركز هذا النور، وأن من أعقد المسائل الفلسفية حلّ مسألة الوحدة والكثرة والمركز والأطراف، والارتباط القائم بينها، والقرآن يشير هنا بأسلوب بديع إلىٰ الضرورات بشأن هذه الأطراف والفواصل المحيطة بمركز النور في العالم، والأثر المنظِّم لمركز النور وإفاضته للنور وأثر الزجاجات في حسن الاستفادة من هذا النور، شريطة أن تكون تلك الزجاجات صافية ومصقولة ﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾.

والفقرة الأخرى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ فهذه المشكاة تشتعل من زيت زيتونة خالصة كثيرة البركات لا شرقية ولا غربية. ويكمن هنا في قوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ أمر لطيف يعدّ من عوامل الانطلاق المتقدم.

﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ حينما أخذ صدر المتألهين وغيره من العرفاء في تفسير هذه الآية أحدثوا صخباً وضجيجاً عالياً، ولا أريد هنا أن أثير هذا الأمر فمعنى هذه الكلمات أن هذا الزيت يضيء من دون قدح الزناد فهل هي عبارة عادية أم أنه تعبير سامٍ جداً؟

---

(١) الملا صدرا (٩٧٩ ـ ١٠٥٠) له تفسير اسمه (تفسير سورة النور).

والفقرة المهمة هي قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فبعد ذلك يأتي التعليم بأجمعه.

ثم يردف ذلك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ فالملفت هنا أنّه قابل السراب بالنور مع أن السراب يختلف عن النور اختلافاً كبيراً، فإن السراب نور خادع، في حين أن وظيفة النور ليست هي الخداع وإنما هي الإخراج من الظلمات والغفلة، فهذه الأمور كلها بدائع يعطفها بقوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ وهذه من الفقرات الأدبية الدقيقة جداً.

بحث (نولدكة)[1] في كتابه (تاريخ القرآن) عن الأساليب الأدبية للآيات المكية والمدنية، فقال: حينما أخذت الآيات تنزل في المدينة وجدنا أنها تخلت عن أسلوبها الفني، وأخذت منحًى اعتيادياً إلاّ فيما ندر، حيث نشاهد أحياناً بعض الآيات المدنية تحتوي علىٰ أسلوب فني كما في آية النور، فهذه الآية تحتوي علىٰ أسلوب فني ورصانة أدبية قد تختلف عن الاسلوب الفني للآيات المكية، ففيها اسلوب أدبي وفني من الطراز الحديث.

---

(١) ثيودور نولدكة (١٨٣٦ ـ ١٩٣٠) مستشرق الماني اتقن اللغات الشرقية لا سيما العربية والفارسية واختص بدراسة التاريخ الإسلامي والآداب العربية، له بالإلمانية كتاب (تاريخ القرآن) طبع عام ١٨٩٠م والمتقدم ذكره، وقد قام الشهيد الدكتور محمد الحسيني البهشتي بترجمته إلى الفارسية.

الجلسة الحادية عشرة

نفتتح عام ١٩٧٨م وكلنا قلق بشأن ما يعيق سبيل تكامل مجتمعنا، مما يقع سواء في إيران أو لبنان وسائر بقاع العالم، لا شك أن ربيع هذا العام لا بد أن يبعث النشاط فينا، إلاّ أنه ينبغي أن لا يكون نشاطاً لإضاعة الوقت وإنما للاقتدار والاستمرار في مسيرتنا بشكل أكثر حيوية وأكمل وأكثر تحركاً وعطاءً وتوعية، إن حركة أمتنا في الوقت الراهن بحاجة إلىٰ أن نعي جميعاً ظروفنا الزمانية الخاصة، وأن نظافر جهودنا في الامساك بزمام الأمور وبلوغ الأهداف الإسلامية والإنسانيّة العالية، وأن نكون علىٰ وعي بالمؤامرات التي تحاك ضدنا، وأن نخصص جزءاً من طاقاتنا لإحباط هذه المؤامرات، ومن بينها ما نُشر في الصحف علىٰ لسان مَن يصطلح علىٰ تسميتهم بـ (التقدميين) حيث ينفردون فيما يقولون ويستنتجون، وبحمد الله فإني أقولها هنا مرفوع الرأس: إن شعبنا بجميع فئاته وطبقاته يتصرف بانضباط يستحق التقدير والثناء في إطاعته للقيادات الموجودة، وسأذكر لذلك نموذجين ليتضح مدى ما عليه شعبنا من وعي خلافاً لما يدعيه هؤلاء التقدميّون.

لقد اجتمعنا يوم الخميس الماضي مع آلاف الأشخاص من الجيل المخلص والواعي في مسجد آذربيجان في طهران والمدرسة المجاورة والسوق، بمناسبة مرور أربعين يوماً علىٰ حادثة تبريز، فلما رأت القيادة المنبثقة منا (طبعاً هي ليست قيادة بالمعنى الحرفي للكلمة إلاّ أنني مضطر إلىٰ استعمالها بسبب شحّ الألفاظ) المصلحة في أن تتفرق تلك الجموع الغفيرة بشكل سلمي وهادىء، أصدرت أوامرها لهم، فأخذ الجمهور يتفرق بانضباط منقطع النظير، الأمر الذي اندهش له ضابط كان هناك، فقال

للجندي تحت امرته: انظر حينما يكون هناك شخص يرتضيه الجميع فسوف يأتمرون بأمره دون إحداث أي ضجة وهو ما يعجز عنه أمثالنا.

وأنا لا أدري لماذا لا تغطي وسائل الإعلام هذه الاجتماعات وتكتفي بنشر الأخبار عن عملائها المباشرين وغير المباشرين، فإذا كانوا يريدون بذلك أن يكون هناك ظلم في المجتمع وخنق للأنفاس دون أن ينبس الناس ببنت شفة، فهو أمر غير معقول، فاسمحوا للحركات الواعية والهادفة التي لا تعرف حدّاً سوى إقامة النظام الاجتماعي والاقتصادي الصالح، والذي لا يهدف إلاّ إلىٰ اقامة العدل الذي يرتضيه الإسلام العزيز دون إثارة العقبات في طريقها، وعندها سوف ترون النتائج التي سنحصل عليها!

النموذج الثاني: ما حدث في صباح يوم السبت المنصرم حيث قام شباب مدينة قم المتحمس بالانتصار لأبسط الحقوق المضيعة لضيوف المدينة، فقاموا في مراسم تشييع المرحوم السيد الزاهدي باقتحام المدرسة الفيضية التي كانت مغلقة لعدة سنوات، فأقاموا هناك صلاة الظهر جماعة وأقاموا مجلس الفاتحة علىٰ روح ذلك المرحوم، وبعد أن هدد الجهاز الحاكم المراجع العظام بالهجوم علىٰ المدرسة إذا لم يتم اخلاؤها، فرأى المراجع المصلحة في إخلاء المدرسة مؤقتاً، فأوعزوا إلىٰ شبابنا بأن يتركوها ويلقوا مسؤولية استرجاع المدرسة علىٰ عاتقهم، فوافقوا جميعاً علىٰ الانصياع لكلام المراجع احتراماً ورعاية لانضباط كيان الحوزة الداخلي، فتركوا المدرسة، حيث بادر المراجع في اليوم التالي إلىٰ استعادة المدرسة جزئياً، إذ لم يتم إلىٰ الآن تسليمها بشكل كامل إنما تسلمها زعماء الحوزة.

أفلا يكفي هذان النموذجان لإثبات المستوى الذي بلغه شعبنا من الوعي والتكامل من الالتفاف حول القيادة المنبثقة عنه ولو بشكل نسبي؟ ألا يكفي ذلك لإثبات أن شعبنا ليس بذلك المجتمع الخانع الذي يحتاج إلىٰ قيّم يعلو رأسه بالسياط والهراوات؟

آمل أن يكون عام ١٩٧٨م عام تقدمنا جميعاً في مسيرتنا هذه، وأرجو من كل واحد منكم أن يكون داعية في مدينته أو قريته وبيته ومدرسته وصفه وأصدقائه، وأن نحمل لأصدقائنا في هذه السنة تكاملنا وانضباطنا، وأتمنى أن لا يتمكن الأعداء من أن يصفوا جموع امتنا الغفيرة بإثارة الشغب، فاعملوا علىٰ توعية الناس وفضح المؤامرات من خلال نظمكم وانضباطكم، فهدفنا هو الوصول إلىٰ نظام إلهي وإسلامي وإنساني صالح في جميع الأبعاد السياسية والثقافية والاقتصادية، ولا بد لنا من الاستمرار في بذل الجهود للوصول إلىٰ هذه الغاية المنشودة، معتمدين في ذلك علىٰ تعاليم القرآن والتجارب العلمية التي تساعد علىٰ تحقيق التعاليم القرآنية، وأنا اعتذر منكم عن ذكر هذه الكلمة الاعتراضية في مستهل البحث فعلى كل حال قد رأيت من واجبي في هذه الأيام أن أوضح رأيي من أجل هداية الناس وفضح المؤامرات، وآمل أن لا أكون قد تفوهت بشيء خلاف الحقيقة، فقد طلبت من الله علىٰ الدوام أن أكون تابعاً للحق والحقيقة، وأما الآن فأستجيزكم للدخول في البحث.

خلاصة البحث السابق:

وصلنا في بحث المعرفة في القرآن إلىٰ أن القرآن يصرح بوظيفة الحواس والادراك الحسي بوصفه من أدوات المعرفة برغم إمكان وقوعها في الخطأ، بل وذكر في آية النور نموذجاً لهذا الخطأ، كما أن القرآن يؤكد بصراحة أن قضية الاستنتاج هي من المدركات الحسية والتفكير، ثم قلنا: هل هناك في القرآن غير ذلك من أدوات المعرفة كالكشف والشهود والوحي والالهام والإشراق؟ ولذا فإننا سنتعرض إلىٰ كل واحدة من هذه المصطلحات.

دراسة الكشف بوصفه من مصادر المعرفة:

لقد ذكر القرآن مصطلح (الكشف) عشرين مرة بمشتقاته، وقد ورد في سبعة عشر مورداً منها بمعنى الازاحة الذي هو معناه الأصلي، وأكثره في

ازاحة الأمور القبيحة وغير المستساغة والعناء والعذاب، وفي آيتين منها في إزاحة الثوب عن الساق، كما في قصة ملكة سبأ وحول يوم القيامة في قوله تعالىٰ: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾[1] وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾[2] فعندما يكشف الإنسان عن ساقه، تظهر ساقه وتصبح قابلة للرؤية وتكشف. هنا الكشف ليس بمعناه الأصلي، لأننا قلنا إن معناه الأصلي هو الإزاحة.

واستعملت في مورد واحد بمعنى رفع الغشاوة عن البصر كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾[3] هذه الآية تتحدث عن رفع الموانع أمام البصر، ودقّة البصر ونفوذه، فالكشف هنا يعني إزالة موانع الرؤية، لكنه في يوم القيامة لا ربط له بالكشف والشهود الذي نحن بصدد البحث فيه، وعليه فإن الآيات التي وردت فيها كلمة الكشف ليس لها علاقة بالمكاشفة التي نحن بصدد البحث فيها، وعليه فلا شيء من مفردات الكشف الواردة في القرآن الكريم ذا صلة بالمكاشفة بمعناها المصطلح حالياً، وإن الآيات العشرين استعملت مشتقات هذا الأصل.

دراسة الشهود بوصفه من مصادر المعرفة:

قد استعملت كلمة (الشهود) بمشتقاتها المتنوعة كثيراً وهي مجاميع:

المجموعة الأولى: الشهادة، الشهيد، الشاهد، شَهِدَ، يشهد، شاهدان، شهود، شهداء. وقد استعملت بأجمعها بنحو عام بمعنى الشهادة وكما تلاحظون فإنها لا تنسجم مع كلمة الشهود بالمعنى المصطلح، ومن

---

(١) سورة النمل/ ٤٤.

(٢) سورة القلم/ ٤٢.

(٣) سورة ق/ ٢٠ ـ ٢٢.

موارد هذه الكلمة قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾[1] وهذه الآية تحكي لنا تجسم الأعمال، وآمل أن نهتم جميعاً بمعرفة القرآن علىٰ الخصوص فيما يتعلق بيوم القيامة، فالقرآن حيّ وبنّاء وجميل ومن هنا كانت الآيات القرآنية تؤكد علىٰ الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح. وهذه الأمور مرتبطة ببعضها البعض ارتباطاً عجيباً. وعليه إنكم تلاحظون أن ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أنها اشتقت من الشهود، لكنها بمعنىٰ الشهادة.

دراسة الشهود كمصدر للمعرفة، ومعاني الشهود:

والمجموعة الثانية: الشهود بمعنى الحضور، الحاضر، الناظر: فهي ليست بمعنى الشهود المصطلح في العرفان، بل هي بمعنى الحاضر والناظر الحسي، وهناك آيات عديدة في ذلك منها ما ورد في قصة ملكة سبأ أيضاً في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾[2] أي ما دمتم حاضرين، لذا فشهد هنا تعني الحضور، لكنه الحضور الحسّي المتعارف، لا الحضور العرفاني. وأصرح منها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾[3] فليس الحج مجرد منسك عبادي، بل مضافاً إلىٰ ذلك فيه منافع اقتصادية وفكرية وثقافية واجتماعية، هذا وإن فلسفة ذبح الأضحية في الحج واضحة، فإنها تحتوي علىٰ الانفاق الذي يتطهر بواسطته الإنسان المضحي، كما تحتوي علىٰ ضمان اجتماعي تنصب فيه مائدة كبيرة ليقدم فيها المستطيع الطعام الذي يأكل منه الفقير. فليس كل من يذهب إلىٰ الحج يكون علىٰ

---

(١) سورة يس/ ٦٥.

(٢) سورة النمل/ ٣٢.

(٣) سورة الحج/ ٢٧، ٢٨.

مستوى عالٍ من الغنى، حتى الذين يأتون إلىٰ الحج من أماكن بعيدة ووضعهم المالي جيد لا يمكنهم التضحية أحياناً فثلثي الحجاج الذين يأتون الحج براً ـ حتى من اليمن ـ فإنهم يأتون بوسائل بدائية، ويؤمّنون معيشتهم من طريق سفرهم، لذلك حدَّد القرآن وضعهم. ولذلك فإن الأضحية تجب علىٰ المستطيع فقط، وأما غير المستطيع فما عليه إلاّ أن يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة عند عودته. إذن فالمسألة عبارة عن دعوة عامة إلىٰ الإطعام، فالشهود هنا ليس بمعنى المكاشفة، بل هو النظر والرؤية، كما أنه ليس بمعنى الشهادة.

[أحد الحاضرين]: وهل المرحلة التي تليها ليست من الشهادة أيضاً؟

[الدكتور بهشتي]: كلا، أي شهادة؟

[الشخص ذاته]: الشهادة العينية.

[الدكتور بهشتي]: كلا، الشهادة هنا بمعنى النظر.

الشهود بمعنى الحضور:

المجموعة الثالثة: شهد بمعنى (حضر) في قبال (السفر) ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[1] فكما لاحظتم لم تستعمل أيّاً من هذه الآيات ألفاظ الشهود وشَهِدَ بجميع مشتقاتها في الشهود المصطلح والمكاشفة. وكما تلاحظون أنَّ الأقسام الثلاثة المذكورة لم تستعمل الأمر بهذا المعنى أيضاً.

دراسة الإشراق كمصدر من مصادر المعرفة:

لقد وردت لفظة الإشراق بمشتقاتها في مواضع من القرآن، إلاّ أنه حتىٰ كلمة (الإشراق) بنفسها جاءت بمعنى شروق الشمس، ومنها اشتق لفظ

---

(١) سورة البقرة/ ١٨٥.

(المشرق) قال تعالىٰ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾[1] وكلمة (معه) هنا يمكن إرجاعها أدبياً إلىٰ (سخَّرنا) ويمكن ارجاعها إلىٰ (يسبّحن) فالإشراق هنا في قبال العشي بمعنى شروق الشمس في الصباح دون الفجر، أو أن العشي بمعنى الليل والإشراق بمعنى النهار بل طلوع الشمس. وفي العشي والإشراق يعني في الليل والنهار، فإما لحظة طلوع الشمس أو طول مدة شروقها، وأياً كان المعنى فالإشراق هنا لم يستعمل في معناه المصطلح.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾[2] فالإشراق هنا ليس الإشراق العرفاني، و(نور ربها) أي النور الذي أرسله الله فأضاء الأرض كلها ولا يعني ذلك أن الأرض تلقَّت إشراقاً إلهياً. إذن فالإشراق هو الإضاءة بالأنوار الحسّيّة، ثم أن بقية مشتقات الإشراق عبارة عن المشرق، والمشارق، و. . . إذن فكلمة الإشراق لم تستعمل في القرآن بالمعنى المصطلح.

الرؤية في القرآن:

قبل أن ندخل في مفردات الوحي والالهام، نقف عند مفردة (الرؤية) فإن هذه المفردة ـ وإن لم تكن تستعمل في المعنى المصطلح ـ إلاّ أنه قد يقول قائل: حسناً. . لكن مصطلح الكشف والشهود والإشراق لم يذكر في القرآن، لكن مصطلح الرؤية جاء فيه، وبما أنه ورد في البحث عدة مرات، لذلك لا بدَّ من البحث عن موارد استعمال مشتقَّات الرؤية والمشاهدة والبصر والبصيرة في القرآن ليكتمل بذلك البحث.

---

(١) سورة ص/ ١٧، ١٨.

(٢) سورة الزمر/ ٦٨، ٦٩.

[أحد الحاضرين]: ألم تكن الأرض في بداية أمرها تحت الماء؟

[الدكتور بهشتي]: بلى.

[الشخص ذاته]: إذن لا بد أن تكون هناك علقة بين كونها تحت الماء ثم ظهورها وبين إشراقها.

[الدكتور بهشتي]: إلاّ أنه ليس المراد أنه حصلت للأرض مكاشفة، فالآية تقول: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ لكن علينا أن نرىٰ أيّ نوع من الإشراق هو؟ هل كان مكاشفة للأرض؟ لا أظنّ ذلك. فالذي يبدو ظاهراً أن المراد هو أنه في النفخة الأولى ـ التي تحدثت عنها الآيات والروايات بشأن البعث ـ ستكتنف الأرض بالظلام، ويمكن أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾[1] ناظراً إلىٰ هذه الحقيقة، وفي النفخة الثانية التي هي نفخة إعادة الحياة بنور جديد يأتي دور ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ فقبل ذلك كانت مشرقة بضوء الشمس، وأما الآن فضياؤها من نوع آخر، وهذا لا يعني أن الأرض حصلت علىٰ نوع من الإشراق العرفاني.

أما الرؤية فمشتقاتها في القرآن كثيرة، جاءت في الغالب بمعنى الرؤية الحسية، وفي بعض منها جاءت بمعنى الرؤية الفكرية، من قبيل قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾[2] وهـذا لا يفيد الرؤية بالعين، بل الرؤية الفكرية، أي رأىٰ أنَّ عمله السيىء حسناً، فهذه رؤية في النظرة الفكريَّة. كما استعملت في موضع آخر بمعنى الرؤية الباطنية ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[3].

ما هو نوع الرؤية هنا؟ فالرؤية هنا ليست بصرية، وإنما هي فكرية

---

(١) سورة التكوير/١.

(٢) سورة فاطر/٨.

(٣) سورة العلق/٦ ، ٧.

وباطنية، ولا ربط لها بالإشراق والمكاشفة والشهود.

الرؤية بمعنى المنام:

كما استعملت الرؤية بمعنى الرؤيا في كثير من مواضع القرآن، وهما من أصل واحد، بمعنى ما يراه النائم من أحلام، منها قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾[1] تلاحظون هنا أنَّ (رأيت) تعني الرؤيا في الحلم، إلاّ أن الرؤيا في المنام ليست من المكاشفة في شيء، وإذا قال شخص: إن بعض الرؤيا من المكاشفة، هذا شيء آخر غير أنَّ جميع أنواع الرؤيا من المكاشفة، فرؤيا الأنبياء عليهم السلام مثلاً هي وحي وشهود، إلاّ أن هذا ليس المعنى الواسع الذي نريد أن نبحثه كأداة من أدوات المعرفة، ففي هذه الموارد التي أذكرها جاءت الرؤية مختصَّة بالأنبياء، وذلك كما في قوله تعالىٰ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾[2] فالكلام هنا يدور حول البصر والرؤية، ورؤية النبي صلى الله عليه وآله هي من الآيات والدلالات الإلهية ولا يمكن تعميمه علىٰ جميع الرؤى، وشبيه ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾[3] فهذه الآية تحدثنا عن رؤية النبي صلى الله عليه وآله لجبرائيل، وهذه ليست رؤية عادية، وإنما هي مختصة بالنبي صلى الله عليه وآله.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥﴾[4] وهذه إما أن تكون من رؤية الأنبياء للوحي أو من مختصات النبي صلى الله عليه وآله أي المقصود هو الطريق الذي دلَّك الله عليه، أو أنها مما يريه الله سبحانه وتعالىٰ للناس من طريق قويم

---

(١) سورة يوسف/ ٤، ٥.

(٢) سورة النجم/ ١٧، ١٨.

(٣) سورة التكوير/ ٢٣.

(٤) سورة النساء/ ١٠٥.

وصحيح، إلاّ أنها علىٰ كل حال لا ربط لها بالرؤية العرفانية والعامة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾[1] فلو لم يكن يوسف قد رأى برهان ربه لكان قد تعلَّق بها، إلاّ أنه رآه، وقد تكون هذه الرؤية من النوع العرفاني، إلاّ أننا لا نجزم بذلك، وعلى فرض أنها رؤية عرفانية فهي من مختصات النبي ﷺ ولا يمكن تعميمها.

وقال تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾[2] هل المقصود من الرؤية هنا المكاشفة، أم أنه يقول لو كان عندك يقين...؟ فعندما يكون عند الفرد يقين بالمستقبل البعيد وعلم قطعي به فكأنه يراه، لكن هذه الرؤية لا يمكنها أن تكون بمعنى المكاشفة، فلا يمكن القول بأن من يرىٰ حالياً لهيب جهنم عن طريق المكاشفة، وقد حمل كثير من العرفاء هذه الآية علىٰ هذا المعنى، إلاّ أن الانصاف أنني لا أتصور أن الناس في عصر النزول فهموا من هذه الآيات هذا المعنى الذي ذهب إليه العرفاء، أي انه تعالى أراد بذلك: أنكم لو كنتم تملكون علم اليقين لرأيتم بأعينكم نار جهنم، ولو بعلم المكاشفة. كلا. فالذي تريده الآية هو أنكم لو كنتم علىٰ يقين لكنتم تسلكون سلوك من يرى جهنم عياناً، ولما تطرق إليكم الشك.

[أحد الحاضرين]: قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة همام (كمن رآها).

[الدكتور بهشتي]: نعم، (فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون)[3] حيث دقّقت في جميع آيات الرؤية، فلم أجد سوىٰ الآيات التي ذكرت التي قد ترتبط

---

(١) سورة يوسف/ ٢٤.

(٢) سورة التكاثر/ ٥ ـ ٧.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٩٤.

بذلك، من قبيل قوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[1] فقد حملها بعض علىٰ الشهود العرفاني، إلاّ أنها ليست منه في شيء، وعلى كل حال فلو أننا ألزمنا أنفسنا في فهم القرآن بالمعايير التي نلزم بها الآخرين لما وجدنا في آيات الرؤية ما يتعلق منها بالكشف والشهود والإشراق.

[أحد الحاضرين]: فما معنى ما قيل من أن أصحاب الإمام الحسين عليه السلام رأوا في يوم عاشوراء مواضعهم من الجنة؟

[الدكتور بهشتي]: قد يكون ذلك، إلاّ أن هذه رواية، ونحن الآن نتحدث بشأن القرآن، فإما أن يكونوا قد رأوا بمعنىٰ أنهم كانوا مستيقنين إلىٰ حدّ كالرؤية مثل ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾[2] أو مثل «فهم والجنة كمن قد رآها» أي أنه بيان مثالي أم أنهم رأوا ذلك واقعاً، لكننا الآن ننوي بيان المعرفة في نظر القرآن، لذلك قلنا بأننا لم نعثر علىٰ آية من هذا القبيل.

[أحد الحاضرين]: ولكننا قرأنا في التعاليم الإسلامية قصة زيد بن حارثة حيث سأله الرسول صلى الله عليه وآله: كيف أصبحت؟ فقال: أرى أهل النار في جهنم وأهل النعيم في الجنة.

[الدكتور بهشتي]: قلنا إن كلامنا الآن في القرآن، وما تذكرونه راجع إلىٰ الروايات والسنة والروايات التاريخية وهي ليست مجال بحثنا، وقد قلت مراراً في بداية البحث إننا نريد أن نرىٰ ماذا يمكننا أن نفهم من القرآن ككتاب وسند قطعي، ولا يعني ذلك أننا نلغي السنَّة أو لا نرىٰ لها قيمة وسند، بل نريد أن نحفظ الحدود بين القرآن والسنَّة، فنقول ما فهمناه من القرآن هو كذا، ثم سنتعرض إلىٰ بيان الأحاديث ولا بد من تمحيصها، فلا نؤمن بها لمجرد ذكرها في ديوان شعر، وننسب ما روي فيه عن النبي صلى الله عليه وآله علىٰ أنه كلام النبي صلى الله عليه وآله. أو نقرأ في كتاب تاريخ عاشوراء ونقول إن

---

(١) سورة فصلت/ ٥٣.

(٢) سورة التكاثر/ ٦ .

الأصحاب فعلوا كذا وكذا. بل لا بد من التحقيق بشأنها سنداً ومتناً وتاريخاً، وإلاّ فإننا سوف لا نحصل علىٰ آيديولوجية إسلامية دقيقة، بل سنحصل في تراثنا الإسلامي علىٰ ما يشبه الكشكول أو الحساء الذي يضع فيه كل شخص ما يحلو له.

[أحد الحاضرين]: أيها الدكتور، لقد ذُكرت مسألة اللقاء أيضاً.

[الدكتور بهشتي]: في الدنيا أو الآخرة؟ فما بأيدينا يتحدث عن الآخرة، وهو غير المقابلة مع ربّ الأرباب المشهود، وهو غير الكشف والشهود والإشراق والرؤية فهل هناك شيء آخر؟

[أحد الحاضرين]: الوحي والالهام.

الالهام في القرآن بوصفه من مصادر المعرفة:

[الدكتور بهشتي]: نعم، إلاّ أننا سنبدأ بالالهام أولاً، فقد استعمل القرآن الإلهام مرة واحدة وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾[1] فما هو المراد من الالهام هنا؟ لا شك في أن هذه الآية تقول: إن الله قد ألهم الإنسان الشر والخير والخوف من الله والتقوى وأداء الواجبات. حسناً.. فما هو المقصود من كلمة (ألهمها) هنا؟ لا شك أنه يريد أن يقول إنَّ الله أعطىٰ الإنسان معرفة، وألهمه الفجور والتقوىٰ والخشية من الله، فما معنىٰ ألهمه؟ لقد بحثت هذه المسألة في السنوات الماضية تحت عنوان (المعروف والمنكر) وأحيل تفصيل الأمر إلى تلك البحوث. وسأكتفي هنا بذكر ما يرتبط ببحثنا، إلاّ أن لهذا البحث تفصيلاً ممتعاً ذكرته في الموضوع المتقدم، وقد تم تسجيله علىٰ الأشرطة، وربما ضممناه فيما بعد إلىٰ اشرطة المعرفة.

فقد ألهم الله الإنسان الشر والخير والإحساس بالمسؤولية وأدائها وهي

(١) سورة الشمس/٨.

روح التقوى، فكيف يكون هذا الالهام؟ وهذه مسألة مهمّة جدّاً، فما هو المعيار الذي يمكننا علىٰ أساسه التميز بين الفجور والتقوىٰ والشر والخير والقبح والحسن؟ وما هو المعيار الذي يمكننا بواسطته أن نقول هذا عمل حسن وذاك عمل سيىء؟ ومن أين يأتي البشر بذلك المعيار؟. . .[1] الذي أدى إلىٰ السير خلف العقائد التي تبحث عن الحق والباطل الحقوقي والأخلاقي، فواجهت طريقاً مسدوداً، إلاّ المذاهب الفكريَّة التي تؤمن أن في الإنسان فطرة يتمكن بواسطتها من التمييز بين الخير والشر والقبح والجمال المعنوي، فإنها لا تواجه طريقاً مسدوداً، وبرغم علمي بعدم امكانية التوسع في هذا البحث، ولكن لا بد من توضيح بعض جوانبه.

المشتركات الأخلاقية بين جميع الناس طوال التاريخ:

يشترك جميع الناس ـ مهما كانت انظمتهم الفكرية والاعتقادية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ـ في استقباح بعض الأمور واستحسان أمور أخرىٰ، ولا نقول: إن عدد هذه المشتركات قد يبلغ المئة مورد، بل يكفينا مورد واحد منها أو موردان، فإننا نرىٰ أنَّ فطرة جميع الناس تستقبح بعض الأمور بشكل مشترك طوال التاريخ وعلىٰ مدىٰ الجغرافيا. وتستحسن أموراً أخرىٰ. فمثلاً ليس هناك في العالم من يستقبح التواضع غير الناشىء من الاحساس بالضعة أو التملّق. وعليه نقول: إنَّ التواضع غير الناشىء عن ضعف النفس، ولغير أعداء الحق والعدل هو صفة حسنة. وهل هناك من يستقبح هذا النوع من التواضع؟ كما أن الثقافات المختلفة تستحسن الايثار وتقديم الشخص حقوق الغير علىٰ حقوقه، شريطة أن لا يكون ذلك الغير معتدياً أو يدعوه الايثار إلىٰ الطغيان أو إلىٰ التقاعس، ذلك الإيثار الذي يحرّك المحرومين ويقضي على الحارمين. فهل هناك في العالم من يستقبح هذا النوع من الايثار؟

---

(١) تبديل الشريط احدث سقطاً في بعض الفقرات.

بل إننا نشاهد أن جميع المذاهب الفكريّة والفلسفيّة ترفع الايثار شعاراً لها، أي أنها تستحسنه، فالماركسية ترفع الايثار شعاراً ثورياً لها، وتعتبره خُلقاً ثورياً، وتسعىٰ لإعداد إنسان صاحب إيثار. وهكذا الإسلام والمسيحية والبوذية كلها تحاول إعداد إنسان صاحب إيثار، بل حتىٰ إذا ذهبتم إلىٰ عمق الغابات الأمريكية وبين قبائل الهنود الحمر أو زنوج إفريقيا لوجدتم الايثار شيئاً ممدوحاً، أي أن الفطرة الإنسانيّة علىٰ العموم تستحسن الايثار، نعم إذا كان الايثار يؤدي إلىٰ التقاعس أو العدوان لا يكون محبوباً كرهاً واستقباحاً للتقاعس والعدوان، وليس للإيثار نفسه، لكنهم يحبون الإيثار نفسه، فالسيطرة علىٰ النفس، وامتلاك زمامها، وتأديبها وتزكيتها، وما يمثل المعنىٰ الحقيقي للتقوىٰ، أي والالتزام خوفاً من الله ومن عقابه، الايثار بنفسه دون أن يقترن بأمور ثانوية، فإنَّ جميع الناس يحبون الحريّة والاختيار والتقوى التي هي مفهوم يستبطن الخوف من الله وصيانة النفس من الرذائل.

وعليه فهناك أمور تتفق قلوب جميع الناس وفطرتهم علىٰ حبها، وفي المقابل فإنها تستقبح ما هو ضدها من فجور وظلم، فتنفر من الأنانية. نعم.. إنَّ الرغبة والشوق والحب للإيثار وللتضحية والفداء هي أمور فطرية، قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ وقد ذكرت في بحث (المعروف والمنكر) أن الإنسان يحصل من خلال تجميعه لآيات المعروف والمنكر علىٰ شيء اسمه المعروف، ومعنى المعروف هو الذي يرتضيه الناس، وشيء اسمه المنكر؛ أي المكروه. وقد ذكرت في ذلك البحث أن المعروف والمنكر يراد منه هذا المعنى، وتطرقنا بعدها إلىٰ بحث الحسن والقبح الذاتي والعقلي، وتطرقنا إلىٰ الأشاعرة والمعتزلة، فكما تلاحظون فإن الله سبحانه ما أن خلق الإنسان حتىٰ أودع في فطرته وألهمه الفجور والتقوى والقبيح والجميل والخير والشر، وبذلك فإن المذاهب ذات العقيدة ومنها الإسلام لا تواجه طريقاً مسدوداً بشأن هذه البحوث. إذن فهذا الالهام ناظر إلىٰ أساس في المعرفة وهي المعرفة الفطرية

للخير والشر والقبح والجمال والحسن والقبيح، فهل يرتبط هذا النوع من المعرفة بمسألة الكشف والشهود والإشراق والمكاشفة والعرفان؟ قد يبدو للنظرة الأولى أن لا ربط له بها، إلاّ أننا لو دققنا لوجدنا هناك ارتباطاً بينهما.

إدراك الخير والشر هو طريق للوصول إلىٰ الله:

إن من بين الطرق المناسبة للوصول إلىٰ معرفة الله ومبدأ الوجود: النظر إلىٰ الذات واستكشاف النفس وما يكمن فيها من ميل نحو الخير والشر. هذا بالنسبة إلىٰ المذاهب ذات الاعتقاد، أما غيرها من المذاهب الالحادية فإنها ترى الإنسان مجرد موجود مادي، فأين منه الخير والشر، كما أنه ليست هناك تجربة عملية تثبت للإنسان مفهوم الخير والشر، فهل الخير والشر من مخترعات الإنسان؟ وهل ادراكهما هو من الأكاذيب التي اختلقها الإنسان؟ (ومن هنا فقد ذكرنا أن مثل هذه المذاهب الفكريَّة دائماً ما تواجه طريقاً مسدوداً) أو هل هناك أصالة لادراك الخير والشر؟ وهل يتلخصان في أنانية الإنسان وحبه لذاته؟ أو هما يذهبان إلىٰ ما هو أبعد من ذلك؟ إن الذين يذهبون إلىٰ أن مفهوم الخير والشر أبعد من الأنا... أنا اتعجب من الماركسية حيث تنفي الأنا الفردية ومحورية الإنسان، وترى الإنسان ذائباً في المجتمع، وتحاول أن تجعل من المجتمع بديلاً عن الفرد، فلا بد أن نقول لهم: أنّى لكم هذا؟ فهل هبط الإنسان علىٰ الأرض من أول الأمر اشتراكياً وضمن المجتمع الذي تراه الاشتراكية مجتمعاً اشتراكياً بدائياً، أو أنه لا بد في بداية الأمر من أن يكون فرد أو فردان أو أكثر بحيث لا يتجاوزون عدد أصابع اليد؟ فمن أين جاؤوا بهذه الصفة الاجتماعية التي كان عليها الإنسان في بداية أمره، والتي قضت عليها الآلة والانتاج والملكية فيما بعد، وما علينا الآن إلاّ أن نرجع بالمجتمعات الإنسانيّة إلىٰ ما كانت عليه في أول أمرها من الحياة الاشتراكية. إن القرآن يقول: إن هذه خصلة

وجذوة إلهية وهي من لوازم الروح حيث قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[1] فالمسألة محلولة عندنا، والإسلام لا يعتبرها خصلة ذات منشأ سيىء. أما المذاهب التي ترى الإنسان محض وجود ماذي، فإنها سوف لا تستطيع الخلاص من هذا اللغز المعقد، سواء الماركسيون أم غيرهم، فحتى الرؤية الكونية لدى اتباع سارتر[2] المادي لا يمكنها أن تجيب عن هذا التساؤل.

فنحن نجد أن الفطرة تدرك الخير والشر، والايثار المقدس غير الناشىء من حبّ الجاه، فإذا كانت لدينا أمور فطرية مقدسة غير مشوبة بالأنا، فعندها سنحصل علىٰ منفذ وبصيص أمل نحو مبدأ يمكنه أن يلهم الإنسان هذه المقدسات، فإن إدراك الفجور والتقوى وتمييزهما عن بعضهما دليل علىٰ أن هناك من ألهمنا وتفضل علينا بهذا الإدراك، ومن هنا أمكن لإدراك الخير والشر أن يهدي الإنسانيّة نحو الله، ويحتمل قوياً أن (كانت) حيث بلغ في نقده للعقل النظري إلىٰ القول بأن العقل النظري لا يمكنه تجاوز معرفة هذه الظواهر ليصل إلىٰ جوهر الأسبينوزية[3] ثم حاول الوصول إلىٰ الله عن طريق نقد العقل العملي وإدراك الخير والشر، وحاول أن يثبت أن هذا الطريق هو من أنسب الطرق لمعرفة الله، الذي هو كمال وخير مطلق، وبذلك أراد أن يتعرف علىٰ الله الخير المطلق عن طريق الإدراك الذاتي للخير والشر في الإنسان، وهذا الكلام لا يخلو من الصحة، ولا يبعد أن أكثر عرفاء الغرب في القرون الأخيرة قد اعتمدوه، فلا يبعد أن باسكال[4] حينما قال إن بإمكان القلب أن يدرك ما لا يدركه المخّ. أو

---

(١) سورة الحجر/ ٢٩ وسورة ص/ ٧٢ .

(٢) جان بول سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠): روائي وكاتب مسرحي وناقد وصحفي وفيلسوف فرنسي، زعيم المدرسة الوجودية الفرنسية.

(٣) باروخ سبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧): فيلسوف ومفكر ديني هولندي أكّد دور العقل في الأخلاق وما وراء الطبيعة، أشهر آثاره (كتاب الأخلاق).

(٤) بليز باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢): رياضي وفيلسوف وكاتب فرنسي، وضع مبدأ باسكال، وهو قانون تعادل السوائل، وقد أسس نظرية الاحتمال الجديدة، وأسهم في تطوير حساب الدفرانسيل.

حينما يذكر وليم جيمس هذا البُعد من الإنسان ـ بوصفه عالماً نفسياً معروفاً ـ وإذا سلك بريجسون العالم الطبيعي هذا الطريق من خلال دراساته الفيزيائية والطبيعية ليغدو عارفاً، ليس من البعيد أنهم بأجمعهم أرادوا سلوك هذا البُعد الذي شغل اهتمام العرفان البشري منذ القدم.

كان أحد أقاربي اليافعين له من العمر ١٤ عاماً، وكان كثيراً ما يسألني ويسأل أساتذته عن الله بأسلوب استدلالي، إلاّ أن هذه البحوث الاستدلالية ـ وإن كانت مقنعة له ـ بالنسبة إلىٰ توحيد الله وصفاته، بعد فرض تسليم وجوده، إلاّ أنها لم تكن لتقنعه بالنسبة إلىٰ أصل وجود الله ومبدأ العالم، وقد حدثني ذات يوم، فقلت له: يا بني إنك تهدر وقتك بهذا الاسلوب، اذهب وابحث عن الله في موضع آخر. فقال: أين؟ فأجبته: كلما وجدت نفسك في مفترق طريقين أحدهما رحماني والآخر شيطاني، فإن تمكنت من معرفة الرحماني منهما تكون قد عثرت علىٰ ربك. ثم مضت مدة انجرف معها الشاب في ظلمات الحياة، حتىٰ أضحت الحياة عنده عديمة النور والفائدة، فقلت له: دقق جيداً وانظر إلىٰ أي اتجاه يؤدي بك المسير. فأخذ يعدد أموراً مادية، حيث انقطع عن القيم المعنوية بالمرّة، فقلت له: آن الوقت لكي تستفيق وتبصر نور السماوات والأرض. وبعد حديث حيوي كان له مع أحد أساتذته تحفزت عنده الروح الوثابة والباحثة عن المبدأ والخالق، فصعقت روحه، فعاد إلىٰ البيت باكياً مهزوز القلب مشدوهاً، فذكرت له ما قلته سابقاً من أن الفرصة الآن مناسبة للعودة من الظلمات إلىٰ النور، فاغتنم الفرصة، وأوضحت له بعض الأمور باختصار ثم تركته، كان قد استعاد الضياء، ولم يبق لديه أثر من تلك البحوث الاستدلالية، ولا يزال سائراً في طريق النور. وهذه حقيقة، فأنا لا اتصور أن هناك ما هو أفضل من الحياة العمليّة والوقوع بين مفترق طريقي الخير والشر للعثور علىٰ الله دون احتياج إلىٰ جميع هذه البحوث الاستدلالية.

العرفان الحقيقي:

وعليه ترتبط حقيقة قوله تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ ببحث الكشف والشهود والإشراق والعرفان، هذا هو العرفان الحقيقي الذي أتطرق إليه أحياناً في بحوثي وأتعشقه، لا الصومعات والكشكول والشوارب المتدلية والخرقة، فإن هذه الأمور ليست سوى دكان بضاعة، وهكذا المحراب والمنبر وكرسي السياسة وعنوان معلم الأخلاق ومرشد المجتمع، وحقّاً أن الخالق الذي نعثر عليه في نفوس الشخصيات الربانية هو إله محبوب يمكن العثور عليه بيسر، ولا يمكن التخلي عنه، فأيكم يصادف إنساناً ربانياً ولا ينجذب إليه؟ وأيكم يواجه شخصاً مؤثراً علىٰ نفسه دون أن يكون فاتح دكان، أو زاهداً حقيقياً لا مرائياً ومتظاهراً، ولا يهيم به حبّاً وعشقاً؟ فمن أين تنشأ هذه المحبة؟ فكل إنسان حتىٰ الزاهد قد خلق من ماء مهين، وبرغم ذلك تراه يُعشق ويُحب حباً نورانياً، فمن أين جاء هذا النور لهذا الظلام؟ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

نختم بحثنا بالآية التي بدأنا بها تبركاً: ﴿۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾[1] دققوا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[2] تلاحظون أن الإنسان الرباني يستحق لقب (آية الله) و(حجة الإسلام) فهو آية وعلامة علىٰ الله، كما هو حجة ودليل قاطع عليه، وإذا كثر أمثال هذه الشخصيات في المجتمع، فإنه سائر لا محالة نحو الله بشكل تلقائي، وإن حجة الإسلام وآية الله الحقيقي هو الذي لا يسعى لطلب هذه الألقاب ولا تخطر علىٰ باله، فهل هذا الانجذاب الروحي نحو الشخصيات

---

(١) سورة النور/ ٣٥.

(٢) سورة النور/ ٤٠ .

الربانية التي يظهر عليها نور الله هو أمر مصطنع فرضته عليكم الثقافة والبرجوازية، أو أنه أعمق من ذلك؟ ومن هنا كانت أهمية قوله تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ لا بلحاظ لفظ الالهام فيها، وإنما لكونها تمهد الأرضية التي توصل الإنسان إلىٰ الخالق علىٰ الصعيد العملي. . .

الاعتقاد بالله أمر فطري:

أكرر سؤالي مرة أخرى: هل ميلكم القلبي وحبنا جميعاً هو حبٌّ مفروض جاءت به ثقافة مخصوصة؟ أم هو حب فطري طاهر وعام وعالمي في جميع الثقافات؟ إني أوصي الإخوة بالاهتمام ببحث المعرفة علىٰ هذا المستوى؛ لأن هذا هو نوع من معرفة الذات والمشاهدة الباطنية، أي أن هذا الشهود والمشاهدة هو من نوع مشاهدة باطنية، ومعنى الكشف أنك إذا امكنك من خلال هذه المشاهدة أن تتقدم إلىٰ الإمام، فإن الحجب المادية التي تحجبك عن الله سوف تنهار ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] فالكشف هنا بمعنىٰ إزاحة الستار والكشف لم يرد في القرآن بهذا المعنى، إلاّ أن الكشف والشهود مع ذلك ليسا مصطلحين معقدين، وإنما هما بيان لمعنًى واضح جداً، وهو أنك إذا تمكنت من إدراك الخير والشر في مشاهدتك الباطنية؛ ستكون قد فتحت لنفسك طريقاً إلىٰ معرفة الخير والحق والكمال والعدل المطلق، وتكون قد أزحت عن بصرك الباطني غطاء الجهل، تلك هي مكاشفة وشهود. وعندها يشرق قلبك المظلم وباطنك المظلم ليشرقان بالنور الإلهي. وكما قلت فإن ذلك الشاب اليافع كان متخبطاً في داخله في الظلمات والفراغ. . .[2] وما جاء في أقوال العرفاء (من أن الصوفي هو ابن الوقت)[3]. ناظر إلىٰ هذا المعنى، ورغم أن الوقت

---

(١) سورة ق/ ٢٢ .

(٢) تبديل الشريط أحدث سقطاً في بعض الفقرات.

(٣) مقطع من بيت شعر للشاعر المولوي يقول فيه:

صوفى ابن الوقت باشد أى رفيق　　نيست فردا گفتن ازشرط طريق

يعني زمان محدد لكن الوقت عندهم يعني تلك البرهة المناسبة التي ينبغي اغتنامها، وقولهم (اغتنم الوقت)[1] وهو لا يقتصر علىٰ الزمان فقط، وإنما يشمل المكان والأين أيضاً، وعندها سيتمكن الإنسان من العثور علىٰ النور والإشراق الإلهي ويجد العلاقة الطبيعية الفطرية بسهولة، وأعني هنا بكلمة الطبيعية أي الفطرية، لا الطبيعة في مقابل الله. ويدرك عندئذٍ الارتباط الفطري والذاتي القائم بين الإنسان وخالقه أي ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾.

قال الشاعر:

اصغ إلىٰ الناي وما يحكيه، إنه يشكو البعد والفراق، من بستان القصب قطعوني، وكم من رجل وامرأة نفخوا فيَّ آهاتهم.

إن الإشراق يعني الدفء والنور، ذلك أن إشراقة الشمس، تمنحنا الدفء وتبثّ الحرارة في حياتنا، وتضيء لنا الظلمات، وما أقوله هنا ليس له أدنى علاقة بالتصوف والخرقة، وإنما هي مسألة واضحة، ولا أخدعك بالقول: إذا أردت أن تكون إشراقياً فتقدم نحوي حتىٰ أنفخ في نفسك نفحة إلهية، كما لا أؤيد الأدعياء من البابوات والقساوسة في الكنائس إذ يدّعون امتلاكهم لروح القدس، وأن بحوزتهم شعاعاً من روح القدس، وأن بإمكانهم أن يهبوا الإنسانيّة هذا الشعاع، وأن يفتحوا ـ علىٰ غرار الشركات المساهمة ـ دكاناً لتوزيع روح القدس، فليس هذا سوى هراء، فبإمكانك الاستناد في انطلاقك نحو الله إلىٰ أسس الفطرة ومعرفة الخير والشر والقبح والحسن والفجور والتقوى أياً كنت، ومهما كان مذهبك الفكري، وعلى أي معيارٍ كنت ولم تكن تؤمن بخير أو شر، فإن الحركة ستفقد معناها ومحتواها عندك، إذن فتقدم من خلال هذه المعرفة وكن يقظاً، افتح أمامك الطريق نحو الخير المطلق، ونحو الحق المطلق والعدل المطلق ـ فإن الداعم لهذا

---

(١) مقطع من بيت شعر للشاعر حافظ الشيرازي يقول فيه:

وقت راغيمث دان آنقدركه بتوانى　　حاصل ازحيات أى جان يك دم است تادانى

الإحساس هو الحق والعدل والخير الذي فيَّ وفيك ـ عندها ستحصل على كشف وستجد في نفسك شهوداً وإشراقاً، ولكن حذار من ربط مصطلحات الكشف والشهود والإشراق والرؤية القرآنية بذلك. نعم يمكنك العثور علىٰ مصطلحات الذكر والتذكير والخشية والتقوى، كما أن قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[1] التي تفيد بأجمعها معنى التقوى، فمن يتّقي الله ويخشاه فسيمنع نفسه عن الهوىٰ والهوس. فالتقوى ليست رادعة فحسب وإنما هي دافعة ومحفّزة أيضاً، إلاّ أنها رادعيّة ودافعيّة ناشئة من مخافة الله، إذن فالتقوى والتذكر والخوف والخشية هي مصطلحات يمكن لموارد استعمالها أن تقرب الإخوة إلىٰ شيء ينتهي إلىٰ بحث الكشف والشهود والإشراق والعرفان، وبدوري لن أطرح باقي الآيات خشية توسيع البحث أكثر. لكني أتوقع من الإخوة الذين اشتغلوا بالقرآن خلال هذه المدة أن يطرحوا ما لديهم في هذه الجلسة أو في الجلسة القادمة لأستمع لهم، لأن بحثكم ومساهمتكم هو أمر مهم وأساس لعمل المستقبل. يبقى عندنا بحث الوحي الذي سنخوض فيه فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ.

أسئلة وأجوبة:

[أحد الحاضرين]: هل اثبتم في اشرطة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) مسألة الاشتراك المعنوي بين ألفاظ من قبيل العدالة في الثقافات العالمية المختلفة؟

[الدكتور بهشتي]: لم أفهم مرادكم بالضبط؟

[الشخص ذاته]: يعني مثلاً العدالة أو الايثار وبقية الأمور التي يشترك الناس في تحسينها، هل هي من المشتركات المعنوية بينهم أو هي مشتركات لفظية فقط؟

---

(١) سورة النازعات/ ٤٠.

[الدكتور بهشتي]: مشتركات لفظية؟!

[الشخص نفسه]: أجل، يعني أن كلمة العدل أو الايثار تطلق علىٰ معناها الخاص في كل مجتمع، أردت أن أسألكم هل بحثتم هذه المسائل المعنوية الموجودة في هذه الألفاظ في بحوث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو لا؟

[الدكتور بهشتي]: أنا لم أبحث في هذه الجلسة بحثاً لفظياً! وإنما بحثتها من الناحية المعنوية، فلم أقل إن للايثار لفظاً في كل المجتمعات، إنما قلت إنه ممدوح ومحبوب. فما أشرتُ إليه في هذا البحث هو المشترك المعنوي، أي أننا نرىٰ في الجغرافيا والتاريخ، والتاريخ الجغرافي والجغرافيا التاريخية أنَّ جميع الناس الذين نعرفهم في جميع الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية يحبون الإيثار. طبعاً الإيثار الذي لا يؤدي إلىٰ كسل الآخرين ولا يشجع الظالم علىٰ ظلمه هو المطلوب، والكلّ يحبه. ليس هذا بحثاً لفظياً، بل هو بحث معنوي. نعم كان هذا البحث في تلك الاشرطة أوسع وأكثر تفصيلاً.

[الشخص ذاته]: إن المجتمع الذي يغلب عليه الطمع أساساً لا يحب التواضع والايثار، ويسعى إلىٰ السيطرة علىٰ المتواضعين واعتبارهم من الحمقى.

[الدكتور بهشتي]: أي مجتمع؟

[الشخص ذاته]: المجتمع الذي يسوده الطمع، ويمكننا أن نقول إن الشيء الوحيد الذي تشترك فيه المجتمعات كافّة هو عدم نقض العهود، فحتى عصابة المجرمين تستنكر علىٰ بعض أفرادها نقضهم للمواثيق والعهود الدائرة بينهم، إلاّ أن التواضع والايثار ليسا مشتركين.

[الدكتور بهشتي]: لا بأس، قلت يكفينا مورد واحد، لأن هذا البحث موضوعي، فما دام يرتبط بالمعرفة يكفينا ذكر مثال واحد وهو المثال الذي

يروق لكم، فإن كنتم ترونه الوفاء بالعهد، فليكن هو ذلك، فبإمكان الإنسان أن يصل من خلاله إلىٰ منشأ هذه الشعلة النورانية.

[أحد الحاضرين]: حينما قلتم: كيف يمكننا تفسير الحياة الاشتراكية البدائية للمجتمع الأول، فهل تريدون بذلك تفسير الأمر أو روحه؟ أعني أنك قصدت روح الحياة الاجتماعية، أو أنه كيف عاش الإنسان حياة اجتماعية اشتراكية في أول الأمر؟

[الدكتور بهشتي]: أقول ما هو الترجيح آنذاك... هل كان ذهن الإنسانيّة آنذاك خالياً من الأنا، أم أنَّ الأنا كان متغلغلة فيه إلاّ أنه رجّح الحياة الاجتماعية علىٰ الفردية والأنانية؟ فإن كان قد رجحها فما هو سبب ذلك الترجيح، فهل هو الربح أو الكمال؟

[الشخص نفسه]: حسناً يمكن تبرير ذلك.

[الدكتور بهشتي]: لا شأن لنا بإمكانية تبريره، قلت إنَّ العقيدة الماركسية تريد أن تصور هذا الأمر بوصفه أمراً مثالياً وطلباً للكمال، وإن الذي يتبع أفكارها هو الإنسان المثالي الذي يحاول من خلال ايثاره أن يقدم مصلحة الجماعة علىٰ مصلحته الفردية، وإذا لم يكن الإنسان كذلك فهو ممسوخ. ونحن نقول إن كل إنسان تمكن من العثور من خلال فطرته علىٰ الكمال والخير المطلق ـ ولو في نموذج واحد ـ أمكنه أن يعثر علىٰ طريقه إلىٰ النور والدفء في ليل حياته المظلم والبارد، ليسمِّي ذلك إشراقاً أو شهوداً أو مكاشفة، فجميع هذه الكلمات تناسب المقام.

[أحد الحاضرين]: إن الاشتراكية البدائية وما تلاها من المجتمعات كان يسودها عامل الربح و...[غير مفهوم].

[الدكتور بهشتي]: يعني مجتمعاً برجوازياً مرفهاً، وهل تريد البرجوازية غير ذلك؟

[الشخص نفسه]: حسناً، هذا اصطلاح لا شأن لنا به، فالمهم النتيجة.

[الدكتور بهشتي]: كلا، دققوا إن الذي أريد أن أقوله هو أن هذا لا يمكنه أن ينفي ذلك، إذ لو كان العامل الداخلي لدى الإنسان هو الربح، فالبرجوازي ليس ممسوخاً عن الآلة، وإنما هو يعمل وفقاً لإنسانيته، والإنسان الممسوخ هو الذي أضاع هويته وانفصل عن إنسانيته. فإذا كان هناك ربح فلا تقولوا: انقطع الإنسان عن إنسانيته. ففي هذا المعيار الذي يرفع فيه الإنسان فأسه علىٰ رأسه، ويريد كل شيء لنفسه، هو إنسان طالب الربح وصالح. ففي معيار الربح هل يعدّ هذا إنساناً متكاملاً أو ممسوخاً؟ فبقطع النظر عن هذه المذاهب الفكرية، هل تستسيغ فطرتكم مثل هذا الإنسان؟ فأحياناً تشاهدون إنساناً مستاءً من نفسه بفطرته الإلهيَّة، فما معنى ذلك؟ إن هذه هي النفس اللوامة التي عبّر عنها القرآن بقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[1] إذ يقسم بالنفس المستيقظة التي لم تنفصل عن ذاتها، فيأخذ بلوم نفسه علىٰ ما بدر منها، هذا ما نقوله، واستعملت عبارة (لو) و(إذا) لأني لا أريد أن أثبت ذلك خلال بحثي عن المعرفة، فقلت لو أننا آمنا بمسألة ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ فإن كلمة ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ لا يمكن أن تكون مكاشفة ولا إشراقاً، وإنما هي من العطاءات الفطرية التي تعدّ أرضية مناسبة للكشف والشهود والمكاشفة والإشراق المصطلح، هذا ما أردت قوله كاحتمال ولا أريد اثباته بضرس قاطع، لأن بحثنا الحالي في مستوى المعرفة.

[أحد الحاضرين]: كيف تعرّف الماركسية الإنسان.

[الدكتور بهشتي]: من الصعب عليها تعريفه، فالذي يمكنها فقط هو أن تقول: إنه كان اجتماعياً، والايثار هو دليل علىٰ اجتماعيته، والايثار ليس

---

(١) سورة القيامة/ ١، ٢.

سوى الحياة الجماعية، إلاّ أنني قلت: كيف اختار الإنسان الحياة الاجتماعية؟ فهل فرضت عليه فرضاً، أو أنه التجأ إليها باختياره؟ وإذا كان قد لجأ إليها باختياره فكيف رجحها علىٰ أنانيته، فهل كان سبب هذا الترجيح هو عامل الربح أو الاحساس والشعور؟ ومن هنا يواجهون طريقاً مسدوداً.

[أحد الحاضرين]: ما هو السبب في اختيار الناس للقبح والشر خلال حياتهم؟ فهل يعود ذلك إلىٰ أنهم لا يستطيعون التمييز بين الخير والشر بفطرتهم، أو أنهم ينقضون الخير والشر ولا يفعلونه برغم وجود هذه الفطرة عندهم؟

[الدكتور بهشتي]: يذكر القرآن عدّة أصناف للبشر، فصنف من الناس يتخبط في الشر حتىٰ يراه خيراً، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾[١].

والصنف الثاني يمكن تشبيهه بالسيارة التي فقدت كابحها، وهي سائرة بسرعة في طريق منحدرة، لم يعد عنده مكابح، فإن هذا الصنف قد يلتفت إلىٰ سوء فعله ويندم، إلاّ أنَّ حياتهم تلك أصبحت قالباً وعادة.

والقسم الثالث هو الذي يعبِّر عنه القرآن بقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[٢] وهذه مرحلة خطيرة جدّاً، فهؤلاء قد فقدوا رؤيتهم للخير، إذ عميت أعينهم عن معرفة الخير ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٣].

[أحد الحاضرين]: لم تذكروا مثالاً للصنف الثاني.

[الدكتور بهشتي]: الصنف الثاني هم أناس نادمون، إلاّ أنهم

---

(١) سورة الكهف/ ١٠٣، ١٠٤.

(٢) سورة البقرة/ ٧.

(٣) سورة الأعراف/ ١٧٩.

كالشخص المدمن علىٰ المخدرات.

[الشخص ذاته]: كلا، أريد منكم أن تذكروا آية من القرآن الكريم لهذا الصنف.

[الدكتور بهشتي]: في الوقت الراهن لا تحضرني آية لهذا الصنف، إلاّ أن مثاله هو ما ذكرته من المدمن النادم، لكن مكابحه مستهلكة ولا يمكنه السيطرة علىٰ نفسه، وربما كانت هناك آية تتحدث عن هذا الصنف في سورة التوبة وأتذكر شعراً لحافظ يقول فيه:

عزمت علىٰ التوبة ليلاً، فقلت سأستخير، لكن ربيع تحطيم التوبة قد أتىٰ، فماذا سأفعل؟

الجلسة الثانية عشرة

خلاصة البحث السابق:

وصل بنا البحث حول المعرفة إلىٰ الكشف والشهود والإشراق والالهام، وكانت النتيجة النهائية هي عدم إمكان الحصول علىٰ شيء من القرآن مباشرة بشأن الكشف والمكاشفة والشهود والإشراق من المعارف المتداولة في العرفان والتصوف، وأما بشأن الالهام فكانت لدينا آية واحدة هي قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝﴾[1] وتحدثنا عنها بإسهاب، ثم قلنا في ختام البحث: ما هو هذا الإلهام؟ وهل يتفاوت عن الإلهام المتعارف؟ هذه هي خلاصة البحث السابق، أوردتها لنتمكن من بدء البحث اللاحق، والإخوة الذين كانوا حاضرين يتذكرون، ومن لم يكن حاضراً يمكنه سماع الأشرطة المسجَّلة. ثم توجهنا نحو الإلهام، بحيث عندما أقول: ألهم قلبي اليوم بكذا، أو ألقي في قلبي. فهل لمثل هذا الإلهام علاقة بالمعنىٰ الموجود في القرآن أم لا؟ الإلهام بهذا المعنىٰ موجود في القرآن لكن تحت عنوان الوحي. لذلك لا داعي لتفصيل بحث الإلهام، بل سندخل في بحث الوحي مباشرة.

الوحي بوصفه مصدراً للمعرفة، ومعانيه في القرآن:

استعمل القرآن الكريم كلمة الوحي في موارد كثيرة جدّاً، كما استعمل مشتقات هذه الكلمة في موارد متعددة ومنطبقة علىٰ معانٍ وتصورات متنوعة، وعليه فإننا سنتحدث كالعادة شيئاً ما حول هذه الآيات وندرسها ونستنتج منها.

---

(١) سورة الشمس/٧، ٨.

١ ـ الوحي بمعنى الإشارة:

استعمل الوحي في القرآن الكريم بمعنى الإشارة العادية، كما لو أشرنا لشخص بيدنا أن اسكت أو اخرج فمرة نقول للشخص اسكت أو اخرج، وأخرىٰ نشير له بذلك بأيدينا. وقد استعمل الوحي في القرآن بمعنى الإشارة، وذلك في قصة زكريا وزوجته اليزابيث[١] حيث بُشّرا في شيخوختهما بغلام، فاندهشا لذلك، حتىٰ جاءهما مَلَكٌ من الله فقال لهما، لا تعجبا إن الله علىٰ كل شيء قدير، فالنظام الهندسي للعالم له إطار في نظري ونظرك، لكنه دون إطار عند الله الذي هو مهندسه وصانعه، فسأل زكريا ربه أن يعطيه آية، فقال: آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً؛ أي كاملة، وهو ما يصطلح عليه بصوم السكوت أو الصمت، فالصيام علىٰ أنواع وأقسام، منها الصيام عن الكلام، أو صيام الصمت، ولذا فقد شغل وقته في هذه المدّة بالعبادة، وفي ذلك قال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾[٢] إذن فأوحى هنا بمعنى أشار إذ لم يمكنه الكلام بعد أن كان صائماً، إذن فقوله: (أوحى إليهم) يعني (أشار إليهم) وهذا واضح جدّاً، وقد ذكره جميع المفسرين وليس فيه نقاش، فالوحي هنا بمعنىٰ الإشارة. هذا هو أول معاني الوحي، وهو إشارة الإنسان للإنسان.

٢ ـ وحي شياطين الجن والإنس لبعضهم:

جاء في القرآن ذكر وحي الناس والجن من أعداء الأنبياء، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾[٣].

---

(١) انظر انجيل لوقا: ١ ـ ٥.

(٢) سورة مريم/ ١٠، ١١.

(٣) سورة الأنعام/ ١١٢، ١١٣.

وبذلك فقد كان لكل نبيٍّ أعداؤه من شياطين الإنس والجن، وستدركون في البحوث المقبلة إن شاء الله أن لكل جزءٍ من الآية في القرآن ارتباطاً ببحث من البحوث، وسأكتفي هنا بمجرد الإشارة، فكما قلت مراراً إن من جملة أهداف هذه البحوث: تعليم الإخوة أساليب دراسة مواضيع القرآن بشكل عملي.

علّة خلق أعداء الأنبياء:

إن الآيات التي تتحدث عن خَلْق أعداء الأنبياء ليست مبهمة جدّاً، إلاّ أنها اثارت لغطاً كثيراً بين المفسرين حول أنه ما هو الداعي إلىٰ خلق أعداء الأنبياء؟ في حين أن الأمر في غاية الوضوح، إذ إن الله قد خلق الإنسان وهو يحمل دافعين متضادين، فقد أراد الله للإنسان أن يصقل نفسه بواسطة اصطكاك هذين القطبين المتضادين، وفهم ذلك بسيط جدّاً ولا يحتاج إلىٰ تلك البحوث الجدلية والكلامية، فلولا هذان القطبان لما أمكن للإنسان أن ينمو ويسمو، وهو بالتالي قرار إلهي، أن يصقل الإنسان بين المتضادات والمواجهات والاصطكاك. وإذا كنت في ذلك الخضم ملكاً من الملائكة، فهذا جيد، لكنك لست إنساناً، ومطلوب منك أن تكون إنساناً. لذا فإن التضادّ والمواجهة والاصطكاك موجود في متن نظام الخلقة ونظام الله في الانسانية، وحتى في مواجهة الأنبياء لا بدَّ من وجود تضاد واصطكاك ليكون الرشد. وإذا كتب الله لنا عمراً وكنّا سوياً سنبحث هذه الأمور بدقّة، وسنرىٰ كم هي واضحة في القرآن. لكن ما أن نقول إنه تضاد (فيل) فسيقع الإخوة مباشرة بذكر الهند. هذا التضاد موجود، لكن ما هي أبعاده، وفهم هذه الأبعاد أمر مهم للغاية. وسنتعرض إلىٰ معنى التضاد هنا في البحوث القادمة إن شاء الله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ وطبعاً إن مفرده ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هنا فيها إشارة إلىٰ أنها قاعدة، فهي ليست من مختصات خاتم الأنبياء، فكل نبي له أعداؤه من الجن والإنس يوحون إلىٰ بعضهم زخرف القول، وجميله

بحسب ظاهره، وقبيحه في واقعه، فهو عسل قد مزجوه بالسم وبالأذية، وذلك بغية الخديعة والافتراء، ويوحون هنا بمعنىٰ يتهامسون، فصفوف أعداء الأنبياء والحق يهمسون لبعضهم بعضاً، شياطين الإنس والجنّ يوحون لبعضهم ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ لماذا؟ ليخدعوا بعضهم بعضاً. وربما أمكنني القول: إن أكبر عقبة تواجه الإنسان المثابر هو الافتراء ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ إلاّ أنه شاء أن يكون العالم هكذا ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فما عليك إلاّ أن تسير في طريقك قُدماً بين الأضداد الماثلة أمامك دون التفات إلىٰ افتراءاتهم حتىٰ تجد طريق الحقّ والكمال وتسير فيه.

صعوبة اجتياز الصراط المستقيم:

إنني أخرج أحياناً من الموضوع، ولست أدري ما إذا كان هذا جيداً أم لا، فهو من جهة يحيي البحث، إلاّ أنه يؤدي من جهة أخرىٰ إلىٰ التطويل. غالباً ما يسأل الإخوة المجدّون في البحوث والحوارات: ما الذي علينا فعله؟ ومعنى هذا السؤال: هل هناك طريق لاحب ومستقيم للوصول إلىٰ الهدف أم لا؟ فهؤلاء يتصورون أن طريق الحق ينبغي أن يكون خالياً من الصعوبات والعقبات، وقد كان جوابنا لهم دائماً: أن التعاليم القرآنية لا تؤيد تصوراتهم، فليس معنى الصراط المستقيم أنه طريق لاحب ومعبد، وإنما معناه أنه اقصر الطرق لبلوغ الكمال والتكامل والوصول إلىٰ الغاية الإلهية والنور، إلاّ أن هذا الصراط المستقيم عبرت عنه الروايات الرمزية بأنه (أحدّ من السيف وأدقّ من الشعرة) وإذا أردنا بيان ذلك بلغة عصرية لقلنا: إنِه مليء بالعقبات والمطبّات، إذن فما الذي يتعيّن علينا فعله؟ الجواب: تهذيب النفس وصقلها وبناؤها لتكون قادرة علىٰ فتح الطريق وإزاحة العقبات عن الصراط المستقيم بغية الوصول إلىٰ الغاية.

كتبت بحثاً عام ١٩٦٢م وقد طبع في مجلة (مقالة عاشوراء) تحت عنوان (المجاهد المنتصر) ذكرت في بدايته مقدمة مفادها: أن الله إنما خلق

الإنسان ليقضي حياته في الجهاد والكدح في سبيل الله، وبذلك يكون نافعاً ومنتفعاً. هذه بحوث جانبية أخشى أن تبعدنا عن صلب الموضوع، إلاّ أن الذي أردته هو تذكير الإخوة بأنهم حينما يحاولون فهم القرآن واستنطاقه عليهم أن يراعوا النظرة الشمولية في دراستهم له.

إذن فشياطين الإنس والجن يقفون بوجه حركة الأنبياء، ويوحون ويسهمون إلىٰ بعضهم كلمات منمّقة في ظاهرها، إلاّ أنها مسمومة في واقعها ومحتواها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾[1] فهذه الآية مكيّة، فحينما كان الرسول يبني النواة الأولى لانطلاقته، كان بعض المغرضين يثيرون أسئلة من هنا وهناك بغية اثارة اللغط والقلاقل من قبيل سؤالهم عن الروح وما شاكل ذلك، ثم قالوا: كيف ينهى نبيكم عن أكل الميتة مع أنها لا تختلف عن المذبوحة؟ فإن الميتة قد تمَّ ذبحها بيد الله؟ فتصدى القرآن إلىٰ احباط مؤامرتهم بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ﴾ فيشغلوكم بالبحوث الجدلية التي تستهلك الوقت دون طائل وليس من ورائها سوى زعزعة الإيمان فإن أطعتموهم إنكم لمشركون. ما هي سعة الشرك في القرآن؟ لا بد من فهم معنى الشرك في القرآن، وكلامنا الآن في أن الشياطين يوحون إلىٰ اتباعهم وأوليائهم، وترون أن الوحي في القرآن مصطلح لا يختصُّ بما إذا كان الموحي هو الله، ولا أن يكون الموحى إليه نبيّ، فمعنى هذا المصطلح واسع يشمل وحي الإنسان للإنسان والشيطان للإنسان، وشياطين الجن لبعضهم. والآن ندخل في تفاصيل الآيات التي يكون فيها الموحي هو الله، والآيات التي فيها الموحي هو غير الله قليلة، بينما الآيات التي يكون الموحي فيها هو الله فإنها كثيرة جداً.

---

(١) سورة الأنعام/ ١٢١.

٣ ـ وحي الله إلىٰ النحل:

قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾[1] وبحثنا الآن لا يدور حول النحل والعسل، وإنما الذي يهمنا هنا هو فقرة ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ فقد أوحى الله إلىٰ النحل أن تتخذ لنفسها مكاناً، وأن تأكل من الثمرات، ثم قال سبحانه إنه أقام هذا النظام ليوجد العسل، وإن الموحي هنا هو الله، إلاّ أن الموحى إليه هو النحل، فما معنى هذا الوحي؟ نعلم أن هذا الوحي هو عبارة عن تلك الهداية الغريزية والفطرية في النحل وجميع الحيوانات الأخرى، فهذا الوحي والنداء الإلهي هو الذي يدعو النحل إلىٰ ابداع مثل هذا العمل المذهل... لا أريد الخروج عن البحث، إلاّ أني أدعوكم أن تدققوا في هذه الآيات، أو أن تقرأوا في الأقل كتاب (النحل) لميترلنج، فإن حياة النحل وعمله من بدائع الخلقة وآياتها، فإن النحل تسلك طريقاً طويلة، وأنا شخصياً اتحدى كل شخص يدخل مسافة كيلومتر في عمق الغابة، ثم يمكنه الرجوع دون أن يضل الطريق. اللهم إلاّ إذا علّم الطريق أثناء دخوله، فنقول: ما هي العلامة التي يتركها النحل في طريقه وهو يطير في الهواء، فيجتاز المسافات الواسعة ليعود أدراجه إلىٰ مكانه وخليته؟ وهنا يشير القرآن الكريم إلىٰ لطيف صنعة هذه الحشرة الصغيرة فيقول أولاً: أوحينا إليها أن تتخذ لنفسها بيتاً. وثانياً: أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك سبل ربها التي ذللت لها. فهذه إشارة إلىٰ تمهيد الطريق بشكل يساعدها كي لا تضل طريقها، وكل هذه الأمور هي بدائع أوحاها الله للنحل، ونحن لم نطلع علىٰ ذلك السرّ الذي أوحى به الله إلىٰ النحل، إلاّ أننا نرى آثاره العظيمة، وهذا لا يختص بالنحل وإنما يشمل

---

(١) سورة النحل/٦٨، ٦٩.

النمل والديدان والعناكب والحيوانات البحرية والجوية والطيور التي تهاجر من القارّة الإفريقية إلىٰ القارّة الأوروبيّة، وما إلىٰ ذلك من الأمثلة الكثيرة، والاسماك التي تهاجر في أعماق المحيطات المتشابهة لتصل إلىٰ نقطة تضع فيها بيوضها للمرة الأولى والأخيرة؛ إذ تموت بعيد وضع البيوض، فتخرج صغار الاسماك دون أن ترى أمهاتها، إلاّ أنها برغم ذلك تذهب إلىٰ نفس الأماكن التي سلكتها أمهاتها فيما سبق، وعليه نجد أن هذا الوحي منطبق علىٰ هذا النوع من الهداية الغريزية في الحيوانات. فيكون الموحي هنا هو الله والموحى إليه هو النحل.

٤ ـ وحي الله إلىٰ الأرض:

هناك آية في القرآن تشم منها رائحة أن الله سبحانه يوحي إلىٰ الأرض، قال تعالىٰ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾[1] وقد استعمل القرآن ﴿أَوْحَىٰ﴾ في جميع المواطن واردفها بـ ﴿إِلَىٰ﴾ إلاّ في هذا الموضع حيث أردفها بـ ﴿لَهَا﴾ وهما لغة بمعنى واحد وكلا الاستعمالين صحيح، ويمكن استعمال إحداهما مكان الآخر، إلاّ أن استعمال ﴿لَهَا﴾ في هذا المقام أفضل وذلك رعاية للسجع وفواصل الكلمات، وعلى كل حال فالموحي هنا هو الله والموحى إليه هي الأرض، فإن كان معنى (لها) مغايراً لـ (إليها) فسوف لا نستفيد هنا أن الله قد أوحى إلىٰ الأرض، علىٰ غرار ما أوحى إلىٰ غيرها من الأشياء، ولكن يبدو أن المعنى واحد ولا يختلف، ولأجل هذا التردد قلنا أولاً: يشم منها رائحة الوحي. كان هذا كله بشأن وحي الله لسائر الكائنات من غير الإنسان، وذكرنا لذلك موردين هما: النحل والأرض، ومنه سننتقل إلىٰ وحي الله للإنسان في القرآن الكريم.

---

(١) سورة الزلزلة/ ١ ـ ٥.

٥ ـ وحي الله لأم موسى:

وقد تحدث القرآن عن وحي الله لأم موسى في موردين: الأول: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨﴾[1] والثاني: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[2] وقد ذكرت الآية الثانية أصل القصة بشيء من التفصيل، بينما اشارت الآية الثانية إشارة، ولذلك فإني سأعتمد على الآية الثانية، حيث قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾[3] وبذلك أوجد مجتمعاً طبقياً أو غير ذلك، ولكنه على كل حال أوجد مجتمعاً غير متحد، ومن جملة الانتهاكات التي قام بها فرعون أنه أخذ يذبح كل ولد ذكر في بني إسرائيل، وقد كانوا مستعبدين في أرضه، إلاّ أن إحدى العوائل ولد فيها مولود ذكر كان المقرر أن ينجو بأعجوبة وبشكل معجز ليغدو فيما بعد منقذاً تاريخياً عظيماً ونبياً كبيراً، وفي ذلك قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾[4] فقد ولدته أمه دون مساعدة واحدة من النساء، إذ كانت القوابل يعملن جاسوسات لصالح البلاط الفرعوني، وحينما ولد موسى أوحى الله لها أن تقذفه في الماء (إن موسى كلمة عبرية معناها الملتقط من الماء، وقد اطلقها عليه البلاط الفرعوني بعد أن أخرجه من الماء) ثم قال تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾[5] وهم لا يشعرون أنهم بذلك إنما يقومون بتربية من سيقوض دعائم حكمهم ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا

(١) سورة طه/ ٣٨.
(٢) سورة القصص/ ٧.
(٣) سورة القصص/ ٤.
(٤) سورة القصص/ ٧.
(٥) سورة القصص/ ٨، ٩.

لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾[1]

فهذه الآيات تقول: إننا أوحينا إلىٰ أم موسى بهذه الأمور، فكيف أوحى الله إليها بهذه الأمور؟ نحن نجهل تفاصيل ذلك، ولكن ماذا بشأن كيفيته؟ فهل كان إلهاماً؟ من قبيل ما نقوله أحياناً من أنه دخل في روعي أن أزور ابن عمي،وما إلىٰ ذلك، أو أن معنى هذا الكلام أوسع وأعمق؟ فهل كانت أم موسى حزينة فدعاها حزنها إلىٰ أن تفكر بمثل هذه الأفكار الفذّة؟ طبعاً يمكن القول بأنه ربما انقدح في ذهنها شيء بشأن وضعه في اليم بغية انقاذه من الموت المحتّم، ولكن بشأن بقية التفاصيل من أنه سيردّه إليها ويكون نبياً؟ إذن هذه الآيات إنما تتحدث عن نداء الهي لأم موسى، وهناك نظائر لذلك من قبيل تكليم الملائكة لزوج إبراهيم وأم إسحاق، حيث بشروها بغلام علىٰ كبر سنها، فأجابتهم: أنى يكون لي ولد وأنا في هذه السن المتقدمة. فأجابوها بقولهم: كذلك يفعل الله ما يشاء. إذن فعلى الأرجح أن هذه الآية كانت نداءً مخصوصاً، من الخطأ حمل (أوحى) هنا علىٰ الالهام الاعتيادي، فالتفاصيل المذكورة في الآية لا تنسجم مع الالهام العادي، فهو إما وحي من ملك أو شيء آخر لا نعرفه من خلال هذه الآيات، ولا في الآيات الواردة في سورة طه، وعلى كل حال فإن المهم هنا أن الموحي هو الله والموحى إليه إنسان، لكنه ليس بنبي أو مرسل.

٦ ـ وحي الله للحواريين:

إن كلمة (الحواري) تعني الخالص والمخلص، فالحواريون هم خلّص أنصار عيسى عليه السلام قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى

---

(١) سورة القصص/ ١٠ ـ ١٣.

وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾[1] فالله هو الموحي، والحواريون هم الموحى إليهم، فهل كان ما أوحى به إلىٰ الحواريين من الإيمان بعيسى إلهاماً؟ محتمل، هل هو أبعد من الالهام؟ محتمل أيضاً، فالانصاف أننا إذا بقينا نحن وهذه الآيات سوف لا نصل إلىٰ نتيجة قطعية بكيفية هذا الوحي، كما ذكرت توضيحات بشأن الآيات اللاحقة إلا أنني أعرض عنها لأنها أمور جزئية.

٧ ـ الوحي إلىٰ الملائكة:

كما ورد الوحي إلىٰ الملائكة في القرآن، فإن الله قد أوحى إلىٰ الملائكة أيضاً، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾[2] فالموحي هو الله والموحى إليه هم الملائكة، والوحي هو عبارة عن أمر الله لهم بتثبيت قلوب المؤمنين. وبذلك يتضح أن ما يقوله الله للملائكة هو من قبيل الوحي.

٨ ـ الوحي إلىٰ الأنبياء خاصة:

هذه هي موارد استعمال الوحي بالنسبة إلىٰ غير الأنبياء، وأما بالنسبة إلىٰ الأنبياء، فهناك في القرآن استعمالات كثيرة جدّاً للوحي باشتقاقه، إلاّ أنني سأكتفي بذكر واحدة منها؛ لما تحتويه من نقاط لطيفة بشأن الوحي إلىٰ الأنبياء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ

---

(١) سورة المائدة/ ١١١، ١١٢.

(٢) سورة الأنفال/ ١٢.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾[1] ويفهم من ذلك أن عدد الأنبياء هو أكثر ممن ورد ذكرهم في القرآن، وأن الله خاطب موسىٰ وكلَّمه، وأن الأنبياء هم مبشرون ومنذرون. ومن المسائل اللطيفة التي يستحسن أن يشتغل بها الإخوة فيما بعد عن القرآن هي مصطلح التنذير والتبشير، أو الإنذار والتبشير، فهو بحثٌ قرآني جميل، وكيفية مواجهة القرآن للإنسان بشكل ممزوج بالتهديد والترغيب. لذلك نراه يقول إن الأنبياء هم مبشرون ومنذرون لئلاّ يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل. والمهم من هذه الآيات هي الآية الأولى التي تقول: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ حيث الإشارة إلىٰ الوحي إلى الأنبياء، وقبل الدخول في بيان مراد هذه الآية أود أن أعرف ماذا تفهمون منها ابتداءً؟

[أحد الحاضرين]: إن هذا التسلسل مستمر.

[أحد الحاضرين]: أن ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾[2].

[الدكتور بهشتي]: كلا! إن كلامنا يدور حول الوحي، فما الذي تفهمونه من الآيات بشأن الوحي؟

[الشخص نفسه]: إن الوحي إلىٰ الأنبياء يختلف عن سائر أنواع الوحي المطروحة في المواضيع الأخرى.

[أحد الحاضرين]: أتصور أن اختلافه يكمن في أن الضمير الوارد هنا ضمير جمع في حين أنه في المواضع الأخرىٰ ضمير مفرد.

[الدكتور بهشتي]: أين؟

[الشخص نفسه]: في (أوحينا).

[الدكتور بهشتي]: كلا! فقد جاء لفظ (أوحينا) وقد تقدّم عندنا قوله

---

(١) سورة النساء/ ١٦٣ ـ ١٦٦.

(٢) سورة البقرة/ ٢٨٥.

تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾.

[أحد الحاضرين]: إن الوحي إلىٰ الأنبياء قبل نوح عليه السلام يختلف عن الوحي إلىٰ الأنبياء بعده.

[الدكتور بهشتي]: كلا!

[الشخص نفسه]: يقول: أوحينا إليك كما أوحينا إلىٰ نوح وإلى النبيين من بعده.

[الدكتور بهشتي]: يعني تريد أن تقول: ألم يكن هناك أنبياء قبل نوح؟ إنه سؤال مطروح: هل كان هناك أنبياء قبل نوح أم لا؟ هذا البحث يرتبط بقوله تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[1] والذي يهمنا هنا أكثر هو معنى الوحي، إني أرىٰ ما رآه الأخ هنا وكأن القرآن هنا يتحدث عن الوحي بوصفه من خصوصيات الأنبياء، ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ ثم يقول أخيراً: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي أنهم جميعاً امتازوا بهذه الخصوصية وهي: الوحي. فهذه الآية تؤكد أن هذا الوحي هو من خصوصيات الأنبياء. هذا ما يفهمه الإنسان من تلك الآيات، وإلاّ إذا كان من قبيل الوحي إلىٰ أم موسى والحواريين بل والنحل أيضاً، لما أمكنه أن يكون علامة مميزة للنبوّة، وبذلك يتضح أن هذه الآية تتحدث عن نوع وحي يميّز الأنبياء من غيرهم، وهو الذي نعرفه نحن المسلمين عرباً وعجماً عن الوحي حالياً. فلو قيل لنا قبل هذا البحث: ما هو الوحي؟ لأجبنا: معناه واضح، فهو ذلك النداء الغيبي الذي ينزله الله علىٰ أنبيائه، ولما خطر ببالنا أيّاً من المعاني المتقدمة للوحي من الإشارة وغيرها، فكم مرَّ عليكم بحث الوحي، لكن ذلك لم يخطر ببالكم. وقد أراد الله أن يخص الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بهذه الخصوصية التي تميّز الأنبياء من غيرهم، ليثبت بذلك نبوته أيضاً، وأما تعجُّب المشركين من ذلك؛ لكون محمد صلى الله عليه وآله من البشر

(١) سورة البقرة/ ٢١٣.

فيردّه أن من تقدّم من الأنبياء كانوا من البشر أيضاً، وأن البشر يمكنه أن يستلم نداء الله المخصوص ووحيه. وأنا أروم في هذه الليلة أن أختم بحث الوحي، إذ لو استرسلنا بقراءة الآيات لما انتهى البحث، في حين أننا أردنا أن نختم بحث المعرفة في سبع جلسات أو ثمان، وها نحن قد أنهينا عدة جلسات ولا يزال هناك أمران مهمان في البحث أرى من الضروري بحثهما وهما؛ الأول: بحث الأساليب وعلى الخصوص التعريف بالديالكتيك بمعناه الواسع. والثاني: مسألة ارتباط الوحي بالعمل. إذن اسمحوا لنا بإتمام بحث الوحي في هذه الساعة المتبقية، وأرجو من الإخوة أن يراجعوا الآيات بأنفسهم.

كيفية الوحي إلىٰ الأنبياء:

كيف كان يتمّ هذا الوحي الذي هو من الخصوصيات المميزة للأنبياء؟ من خلال دراستي لآيات القرآن دوّنت لهذا الوحي عدّة كيفيات سوف أذكرها مستشهداً بالآيات:

الأولى: أن يكون هذا الوحي كلاماً، فينزل علىٰ النبي ﷺ بحروف وكلمات صوتية، كما هو الحال بالنسبة إلىٰ موسى عليه السلام قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾[1] واقرأوا أيضاً الآيات من ١٣ إلىٰ ١٥ من سورة طه، كما يؤكّد القرآن هذه الكيفية من الوحي قائلاً: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[2] هذا هو النوع الأول.

النوع الثاني: أن يقوم الملَك بحمل الرسالة من الله إلىٰ النبي ﷺ، وذلك إما من خلال الكلام (كما في الآيات المتعلقة بقصة إبراهيم، حيث نشاهد في سورة إبراهيم وغيرها كيف كان الملك يحاور إبراهيم ويبلغه رسالة الله) أو أن ينزله علىٰ قلب النبي كما هو الحال بالنسبة إلىٰ

---

(١) سورة طه/ ١٣.

(٢) سورة النساء/ ١٦٤.

رسـول الله ﷺ قـال تـعـالـىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[2] إذن هذا هو النوع الثاني من الوحي الذي ينزل به الملك فيبلغه للرسول بواسطة الكلام أو الانزال علىٰ القلب، ولكن هذا الانزال يختلف عن الالهام العادي اختلافاً شاسعاً، فالملَك يقوم بإنزال نصّ القرآن بأكمله علىٰ قلب الرسول.

النوع الثالث: الرؤيا، قال تعالىٰ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾[3] فقد تلقى إبراهيم هذه الرؤيا بوصفها وحياً ونداءً إلهياً.

هذه هي الاشكال المتنوعة للوحي إلىٰ الأنبياء التي ذكرها القرآن الكريم، ومهما كانت هذه الاشكال فالمهم أن هذا الوحي هو من مختصات الأنبياء، وأما محاولة بعض الكتّاب والمفكرين قديماً وحديثاً، بل وحتى الصوفية والعرفاء من تعميم الوحي ليشمل العارف والصوفي والسالك وكل مؤمن وإنسان عبقري وكاتب؛ فلا تخلو من تعسف، إذ أنه لا ينسجم مع التحقيق الشامل في مجال الوحي في القرآن الكريم، فقد ظهر مما تقدّم من بيان لمعنى الوحي في القرآن أن الوحي ليس من مقولة واحدة، إنني لا أريد أن أبحث موضوع الوحي، وإنما أبحث الوحي في خصوص ارتباطه بالمعرفة، ولكن اذكّر فقط بهذه النقطة من معرفة بحث الوحي، لأنها مهمة جدّاً فحاولوا أن تلتفتوا إليها جيداً، وهنا سأذكر خصوصيات بشأن هذا الوحي.

خصوصيات الوحي إلىٰ الأنبياء:

١ ـ إن الوحي واضح للأنبياء وضوحاً مطلقاً لا شائبة فيه، فهو شبيه برؤيتي لهذا المصباح، فما يصل الأنبياء عن طريق الوحي هو في غاية

---

(١) سورة البقرة/ ٩٧.

(٢) سورة الشعراء/ ١٩٢ ـ ١٩٥.

(٣) سورة الصافات/ ١٠٢.

الوضوح عندهم، فلا يتصورنّ أحدكم أن الوحي إلىٰ الأنبياء شيء مبهم لا يدركه حتىٰ الأنبياء أنفسهم، وقد اعترضت علىٰ بعض الأساتذة الكبار المعاصرين إذ عنون كتاباً له بـ (الوحي والشعور المبهم)[1] وقلت له: إن هذه التسمية لم تعجبني؛ إذ أنها توحي للسامع أنه أمر مبهم وغامض حتىٰ للأنبياء أنفسهم، في حين أن الوحي ـ وإن كان غامضاً ومبهماً عندنا ـ إلاّ أنه شديد الوضوح للأنبياء. وهنا تكمن أهمية الوحي، إذ أنها تكمن في وضوحه للنبي ﷺ ولا بد من دراسة ذلك في مبحث الوحي إن شاء الله.
هذه واحدة من خصوصيات الوحي، فإنه واضح لمستلمه لا تشوبه أدنى شائبة.

٢ ـ إن وحي الأنبياء عادةً ما يكون له محتوى ومضمون للأنبياء أنفسهم ولغيرهم، فإن الله من خلال الوحي يجعل من الرسول واسطة بينه وبين الناس، فلا بد أن يكون مقام الرسول والوسيط واضحاً للناس وضوح الوحي للنبي نفسه، فلا بد أن يؤمن الإنسان بنبوة النبي، وأن تكون واضحة عنده وضوح الشمس حتىٰ تصح منه الشهادة عندما يقول: (أشهد أن محمداً عبده ورسوله) فقد ورد أن النبي ﷺ قال لشخص: (هل ترى الشمس؟ قال: نعم، قال ﷺ: علىٰ مثلها فاشهد)[2] فلا بد أن تكون نبوة النبي واضحة وضوح الوحي للنبي، وإلاّ لما أدّى الوحي مفعوله في هداية الناس.

٣ ـ والنتيجة أن الأنبياء كانت لهم علاماتهم علىٰ صدق نبوتهم، وهذه العلامات والآيات تختلف باختلاف الأزمنة، فكما أن لكل سفير أوراق اعتماده، فإن لكل نبي حكماً وعلامة وأوراق اعتماد، وإلاّ فلا معنى للنبي دون هذه الآيات والعلامات، ذلك أن النبي ليس فيلسوفاً ولا حكيماً ولا كاتباً كبيراً ومقتدراً أو زعيماً عادياً، وإنما هو شخص يحتوي كل هذه الأمور، فهو مفكر وزعيم ومؤجج ثورة وباعث (لا الباعث أو البعث

---

(١) تسمية اطلقها العلامة الطباطبائي على واحد من كتبه.
(٢) وسائل الشيعة ج١٨، ص٢٥١.

المزيف)[1] ومحرك، إلاّ أن هذه الأمور بأجمعها لا تصلح دليلاً علىٰ نبوته، وإنما تكمن نبوته في أنه مبعوث من قبل الله إلىٰ الناس ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[2] ومن هنا يتضح ارتباط الوحي بالمعرفة، إلاّ أن القرآن لم يذكر الوحي كإلهام من نوع الإلهامات التي نتحدث عنها في حواراتنا الاعتيادية.

[أحد الحاضرين]: إذن فما هو الوحي الذي نزل علىٰ أم موسى؟

[الدكتور بهشتي]: قلنا إن لهذا الوحي ـ بوصفه عاماً ـ محتواه المخصوص، ولكن هل هو من نوع الالهام المتداول عندنا؟ من المحتمل أن يكون إلهاماً إلاّ أنه يختلف عن الالهامات العادية التي نتحدث عنها.

[الشخص نفسه]: إذن يمكن أن يكون وحياً خاصاً.

[الدكتور بهشتي]: خاصّاً؟ كلا! قلت إنه عامٌ، بذلك القيد المتقدم فإن الذي نريده من بحث المعرفة هو الوصول إلىٰ طرق نافعة لنا جميعاً، وعليه إذا أراد الإخوة في بحث المعرفة من وجهة نظر القرآن أن يتعرضوا إلىٰ الالهام استناداً إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ أو ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بوصفه من طرق المعرفة العامة، فإنهم علىٰ اشتباه؛ إذ تقدّم بيان آية ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ ولم نجد فيها أي ارتباط بالالهام الاعتيادي، وأما ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ فهي قصة خاصة لها محتواها الخاص. وإلى هنا فهمنا من القرآن المشاهدة والاستنتاج من المشاهدة بمعناها الواسع، وسنوضح سعة المعنى هذه إن شاء الله بعد بياننا لميادين المعرفة من المشاهدة والحس والادراك الحسيّ والاستنتاج من الادراك الحسيّ.

[أحد الحاضرين]: أرجو المعذرة، ما معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) البعث هو اسم الحزب الذي أسسه الشاه المخلوع، ودعا جميع الناس للانتساب إليه، ثم أطلقه على اسم صحيفة.

(٢) سورة الأنبياء/ ١٦٥.

جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[1]؟

[الدكتور بهشتي]: علينا أن نعرف المعنىٰ، إن الآية تقول إن الذين يجدّون ويجاهدون في سبيل الله، فإن الله سبحانه سيوضح لهم سُبل هدايته، لكن كيف يكون ذلك؟ لا يخبرنا في هذه الآية عن الكيفية. لكننا ـ كما ذكرت آنفاً ـ عندما نتعامل مع القرآن فإن هدفنا الأساسي هو أن لا ننسب إلىٰ القرآن إلاّ ما نفهمه منه، أما ما أوضحه أنا وأضيفه إليه فلا ننسبه للقرآن. فالآية هذه تقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ فما هو معنىٰ ذلك؟ إني أفهم منها شيئاً، وسأقوله، إلاّ أن هذا غير الالهام الاعتيادي، فهو شيءٌ آخر، وسوف نتعرض إلىٰ بيان هذه الآية فيما يخص مسألة ارتباط المعرفة بالعمل، ولا أقصد بالعمل، العمل الاعتيادي، بل اقصد به ما هو أوسع منه.

[أحد الحاضرين]: هل ترون قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ وحياً أو هو حالة من الوحي.

[الدكتور بهشتي]: لقد تعامل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع هذه الرؤيا وكأنها وحي، حيث قال ذلك، ثم توجه للتنفيذ. إننا نقول ان أحد أساليب تلقي النبي للأمر الإلهي كانت هذه الرؤيا. لكن اسعوا أن تكون أسئلتكم دوماً مرتبطة بالبحث، حتى لا يتشتَّت.

إذن تلاحظون أنه لا يوجد في القرآن ذكر للالهام المتداول بيننا، أي ألقي في قلبي، أو خلوت بنفسي فألهم إليّ. هذه العبارات غير موجودة في القرآن. أي لا يوجد في القرآن طريق عام للمعرفة بإسم الالهام.

[أحد الحاضرين]: أشرتم في بداية الحديث إلىٰ أن قوله تعالىٰ: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ أن الإلهام هنا بمعنى الوحي.

---

(١) سورة العنكبوت/ ٦٩.

[الدكتور بهشتي]: كلا! إنما وصلنا إلىٰ الالهام، ولم نقل إنه وحي، فقد ذكرنا الالهام بعد أن تجاوزنا الوحي، هل تقصدون بداية بحث هذه الليلة؟

[الشخص نفسه]: أجل.

[الدكتور بهشتي]: قلت إن بعض الآيات التي ذكرت فيها كلمة (الوحي) أُريد منها الالهام كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا۝٨﴾ فالوارد هو كلمة (الالهام) لا (الوحي).

[الشخص نفسه]: أليست هي بمعنى واحد؟

[الدكتور بهشتي]: كلا، لقد ذكرت معنى (ألهمها) في الأسبوع المنصرم فراجعوا الشريط إذا شئتم.

إذن تلاحظون أننا لم نعثر من خلال دراستنا للقرآن علىٰ ما يجعل الالهام بمعناه المتداول بيننا طريقاً إلىٰ المعرفة ولا أرى دليلاً لذلك، هذا أولاً.

وثانياً: أن الوحي بالنسبة للأنبياء هو مبدأ خاص من مبادىء المعرفة، مضافاً إلىٰ الحس والادراك الحسي، ومضافاً إلىٰ الفكر والاستنتاج من الادراك الحسي، فهو مبدأ ثالث يخصّ الأنبياء فقط، إنه مبدأ بلا واسطة ونوع خاص يختلف عن أدوات المعرفة الأخرى، فهو ليس حسّاً اعتيادياً ولا استنتاجاً من الحس ولا يشبههما، سمّوه إذا شئتم بـ (الحسّ غير الاعتيادي) كالحاسة السادسة أو السابعة، إلاّ أن ذلك أيضاً ليس بمعنى الحاسّة المصطلح عندنا، ولكنه علىٰ أيّ حال من أدوات المعرفة الواضحة عند الأنبياء، بل هو أوضح من الحسّ أيضاً.

وثالثاً: إن وحي الأنبياء هو مبدأ خاص ونوع خاص من أدوات

المعرفة عند الأنبياء، فهو بالنسبة إلىٰ النبي أداة مباشرة إلىٰ المعرفة، إلاّ أنه بالنسبة لغيره من الأدوات غير المباشرة إلىٰ المعرفة، فما هو مقدار صحة تفكير أولئك الذين يحاولون قياس هذا المبدأ الثالث بالمبدأ الأول والثاني؟ فأنا أقول: هذا مبدأ ثالث، وبإمكانك أن تدقق كثيراً لتمييز الأنبياء الصادقين من الادعياء، إلاّ أنك بمجرد التعرف علىٰ النبي الصادق لا يحق لك بعدها أن تجعل كلامه مساوقاً للحس والاستنتاج من الحس، ذلك أن الحس يجوز عليه الخطأ وكذلك الاستنتاج من الحس، إلاّ أن الوحي لا يقبل الخطأ، وعليه لا بد من الاستناد إلىٰ نتاج الوحي لكل الذين آمنوا بالرسل وحملة الوحي بشكل واضح وقاطع بوصفه من اللوازم القطعية للعمل بقوانين المعرفة، إلاّ أنه يختلف عن قوانين المعرفة.

حسناً، آمل أن لا ينمحي من اذهانكم هذا الجزء المهم من ارتباط الوحي بالمعرفة أبداً، فالوحي بالنسبة للنبي ﷺ ولنا هو مبدأ وطريق إلىٰ المعرفة، وهو غير الحسّ والاستنتاج والتفكير، وقيمته الاحتمالية في الصدق والإصابة ١٠٠٪ وأما الذي لا يمكنه العثور علىٰ هذا المبدأ فهو كالأعمى، فالرؤية والابصار مبدأ قوي للمعرفة بالنسبة إلىٰ المبصر، وأما الضرير فلا يتمتع بهذا المبدأ، إلاّ أن البصر لا تسقط قيمته بسبب عمى ألف شخص، فلو كان هناك مئة مليون شخص لا يعرفون الحقيقة، فإن الأمر كما لو كان هناك مئة مليون أعمى، فلو تصورتم أنه لا يوجد في العالم سوى شخصين مبصرين فقط، وأما بقية سكان العالم فكانوا مكفوفين بأجمعهم، فهل سيزيل ذلك أو يقلل من قيمة المعرفة الادراكية التي ينالها هذان الشخصان من خلال قدرتهما علىٰ الإبصار.

أيها الإخوة والأخوات المؤمنين بالوحي، إن أدنى تأمل أو شك أو بحث ديالكتيكي أو مادي ديالكتيكي أو سابق علىٰ الديالكتيك أو لاحق له في أن الوحي ومن جاء به ومن أنزل عليه حقٌّ أم لا؟ مقبول بأجمعه، إلاّ أنه ما أن يحصل لك يقين بصحته وأحقيته لا يمكن لك إلاّ أن تنصاع له

فتقول: كان لي لحد الآن جناحان أطير بهما في سماء المعرفة هما: جناح الحس والادراك، وأما الآن فقد أضيف لهما جناح ثالث قوي جدّاً يفوق الجناحين المتقدمين دون أن يكون بينهما تضاد، فالحس والتجربة والاستنتاج والفكر هي أمور معتَمدة يمكن الاستناد إليها، إلاّ أنها لا تجاري الوحي، فللوحي خصوصية زائدة علىٰ أدوات المعرفة المتقدمة، فهو قطعي وواضح وضوح النهار لا يجاريه في ذلك سوى البديهيات أما النظريات فإنها لا تجاريه أيضاً.

بعد أن أدركتم موقع الوحي ودوره في المعرفة، فإذا كان عندكم سؤال فاذكروه؛ لأن هذه المسألة في غاية الأهمية، إذ أن معرفة الإسلام تعدّ لغواً دون إدراك الوحي في مبحث المعرفة، فلا بد إذن من إدراك موقع الوحي في مبحث المعرفة ادراكاً جيداً حتىٰ لا تواجهوا متاهة في معرفة الإسلام.

[أحد الحاضرين]: ذكرتم أن للوحي مبدأ مستقلاً، أي لا هو حس ولا استنتاج منه، إلاّ أنكم في معرض الحديث عن خصائص الوحي أشرتم إلىٰ كيفية ايصال الرسالات إلىٰ الرسل، ولم يكن بعضها من مظاهر الحس.

[الدكتور بهشتي]: بل كان هناك سمع وإبصار.

[الشخص ذاته]: حينما كان الرسول يستلم النداء الإلهي كان يسمع صوتاً، فكيف لا يكون الوحي مظهراً من مظاهر الحس أو الاستنتاج منه؟.

[الدكتور بهشتي]: قلتُ: إنه مثل البديهيات، فهو صوت يشبه شيئاً بديهياً، فهو وإن كان صوتاً محسوساً إلاّ أنه يختلف عن حواسنا، ولذلك لم يكن كل الناس ليسمعوا ذلك الصوت أو يرون ما يراه النبي ﷺ، فحينما قلت إن الوحي ليس بحسّ، أردت بذلك حواسنا المتعارفة، لا أن عين الرسول ﷺ وأذنه كانتا حين الوحي عاطلتين عن العمل.

[الشخص ذاته]: أي أن الصوت الذي كان النبي يسمعه ليس جزءاً من

الحواس التي نمتلكها.

[الدكتور بهشتي]: أجل، بل أساساً هناك تفاوت في أسماعنا نحن أيضاً، فإنك قد تسمع صوتاً ولا اسمعه أنا، والمقارنة التي اقمتها لا تتعلق بالرسول ﷺ وإنما تتعلق بنا، وهنا اكرر مرة أخرىٰ أنه لا بد أن تكون اسئلتكم مرتبطة بما نحن فيه كي تساعد علىٰ ايضاح بحثنا ومسألتنا.

تكلم الله مع البشر:

هناك آية كريمة تتحدث عن كيفية تكليم الله للبشر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾[1] كما حصل ذلك مع النبي ﷺ وعليه فإن ظاهر هذه الآية يقول:

١ ـ التكليم، كما حصل لموسى عليه السلام حيث كلّمه الله من وراء حجاب دون أن يتمكن موسى عليه السلام من رؤيته.

٢ ـ الوحي المباشر، كما تقدّم ما ذكرناه من الوحي لإبراهيم عليه السلام في الرؤيا.

٣ ـ الوحي بواسطة الملك، كالوحي والقرآن الذي نزل علىٰ نبينا ﷺ.

[أحد الحاضرين]: بالنسبة إلىٰ ما ذكرتموه من الشخص المبصر وسط جمهور المكفوفين، أفلا يؤدي ذلك حتىٰ إلىٰ الزعزعة أو سدّ الطريق؟

[الدكتور بهشتي]: كلا، لا يمكن للمكفوفين أن يزلزلوا رؤية المبصر.

[ذلك الشخص]: أفلا يمكنهم حتىٰ ايجاد عقبة في طريقه؟

---

(١) سورة الشورى/ ٥١.

[الدكتور بهشتي]: قلت ذلك بالنسبة إلىٰ القيمة الادراكية لا الحركية التكاملية.

أود قبل أن يتفرق الإخوة أن أعلن أنه وفقاً لاقتراح البعض تقديم ساعة الجلسة بشكل يمكن اختتامها عند صلاة المغرب حيث نصلي ثم نتفرق، وهذا الوقت الجديد جيد بالنسبة لنا جميعاً، والآن إنني مستعد لإجابة الأخ وبإمكان الآخرين أن يتركوا الجلسة إذا شاؤوا ذلك[1].

---

(١) لم تسجل بقية الجلسة.

الجلسة الثالثة عشرة

أسلوب المعرفة:

وصل بنا الكلام إلىٰ أساليب المعرفة ومعاييرها، وموضوع بحثنا لهذه الليلة هو أسلوب المعرفة والمعايير في تحديد صحتها وسقمها، إذ لا شك في أن المعرفة تحتاج إلىٰ أسلوب، فلا يمكن القيام بأي عمل دون أسلوب ومنهج، فكل أمر تقوم به بروية صحيحة ومتناسبة، سيكون كثير العطاء والبركة، وإلاّ فسيكون إما غير منتج أو يكون عطاؤه قليلاً، فالإنسان يحتاج لبلوغ هدفه أن يسلك طريقاً مخصوصاً، وإذا سلك الطريق المنحرف فإنه كلما تقدّم إلىٰ الأمام سيكون قد ابتعد عن الهدف مسافة أكثر، وقد توصل الإنسان منذ القدم إلىٰ ضرورة الأسلوب الصحيح لبلوغ المعرفة، قال الشاعر:

أخشى أنك لن تبلغ الكعبة يا أعرابي فهذا الطريق يؤدي إلى تركستان

فمنذ حوالي خمسة وعشرين قرناً احتدم في اليونان نزاع فكري وعقائدي شديد أدى إلىٰ التفات البعض إلىٰ ضرورة تأسيس أسلوب يضمن للإنسان بلوغ الغاية الصحيحة ونيل الحقيقة من خلال أفكاره، وظهرت حينها أسماء للمذاهب الفكرية آنذاك، ولا تزال قائمة إلىٰ يومنا هذا، حتىٰ أنه ندر في العصور المتأخرة أن ظهر مذهب عقائدي فكري جديد، وإذا كانت هناك مذاهب جديدة فهي مزيج من تسميتين أو ثلاثة أسماء قديمة.

أسلوب سقراط وتاريخ ظهور المنطق:

سعى المفكرون اليونان القدماء في تلك البرهة إلىٰ تنظيم أسلوب مناسب للتفكير والمعرفة، فبادرت جماعة قبل افلاطون إلىٰ تنظيم أسلوب

للمعرفة اصطلحوا علىٰ تسميته في اليونانية بـ (لوجيكا)[1] أي المنطق وحينما ترجمت المؤلفات اليونانية إلىٰ اللّغة العربية في العصور الإسلامية عرّبت لفظة (لوجيكا) إلىٰ (المنطق) هذا وقد اشتقت كلمة (لوجيكا) من (Logos) التي تعني في اليونانية القديمة: العقل والحكمة، وقام هذا الأسلوب علىٰ تقدّم الذهن. ثم جاء سقراط وابتكر طريقاً آخر في مسار التفكير الصحيح يقوم علىٰ الحوار، فبدلاً من أن نأتي بمسألة ونحاول الاستدلال عليها، نباشر حواراً يقوم علىٰ السؤال من جانب والاجابة من جانب. ويتبع ذلك سؤال آخر مني وجواب منك، وهكذا دواليك حتىٰ نصل إلىٰ ترتيب مجموعة مقدمات من خلال أجوبتك وإلى النتيجة المطلوبة، أو لا نصل أحياناً إلىٰ نتيجة. وقد عرف هذا الأسلوب بالأسلوب السقراطي والذي يتم علىٰ شكل (ديالكتيك) إذ ان الديالكتيك يعني الحوار والمباحثة، فهو مأخوذ من كلمة (Dialect)[2] بمعنى اللهجة، إذن عرف هذا الأسلوب بـ (ديالكتيك سقراط) وطبعاً إننا نجد هذا المصطلح في مؤلفات أفلاطون إذ ليس بأيدينا من مؤلفات سقراط شيء مستقل، وتلاحظون أن مصنفات أفلاطون المترجمة إلىٰ العربية قد ترجمت علىٰ شكل حوار، علىٰ النحو التالي مثلاً: قال أناكسمندر[3]. أو قال زينون[4] أو قال سقراط، وطبعاً إن بعض هذه الأسماء كانت مزيفة وقد تكون حقيقية أحياناً.

فالجماعة الأولى اختارت (لوجيكا) للمنطق، ثم اختارت فيما بعد لفظة الديالكتيك... أما أرسطو فقد قام بعمل واسع ومنظم ودقيق لتأسيس طريقه للمعرفة من خلال الأسلوب التحليلي[5] وهو ما يعبّر عنه بالأسلوب القياسي، إذ اعتمد ارسطو علىٰ القياس، وبذلك اصطلح علىٰ المنطق

---

(١) (Logica) باللاتينية بمعنى (Logic) بالانجليزية.

(٢) عن اللاتينية (Dialectus).

(٣) Anaximander (٦١١ ـ ٥٤٧ ق.م): فيلسوف يوناني.

(٤) Zeno of Elea (حوالي ٤٩٥ ـ ٤٣٠ ق.م): فيلسوف وعالم رياضي يوناني.

(٥) Analyse أوAnalyze.

(الآناليز) وبذلك شاعت علىٰ ألسنة الأوربيين علىٰ طول التاريخ هذه التسميات الثلاث للمنطق وهي: اللوجيكا والديالكتيك والآناليز، والنتيجة هي أن المنطق قد تم الاهتمام به منذ القدم فهو ليس أمراً مستحدثاً.

الديالكتيك ومساره التحولي ومعنى الحوار:

بما أنه قد كثر الحديث في زماننا حول الديالكتيك رأيت من اللازم أن اتكلم بشكل مختصر عنه وعن تاريخ تطوره، فالديالكتيك كما تقدّم يعني البحث والحوار، فإن السوفسطائيين بدلاً من الأسلوب الهادىء الذي ترتضيه الفطرة والذوق السليم لترتيب مقدمات توصلهم إلىٰ نتائج مقبولة، قد انتحوا في حواراتهم أسلوب إقناع الخصم بما يريدون أو إسكاته في الأقل، فإنهم يجادلون الخصم بدلاً من حواره، وكان الحوار عندهم يساوق الصراع، فلم يكن الهدف من وراء الحوار هو بلوغ الحقيقة، وإنما هو الغلبة. وهنا أود أن أسألكم ما هي النسبة المئوية في حواراتنا ومباحثاتنا التي تنطوي علىٰ هذه النزعة؟ إن المباحثة كلمة لطيفة وجميلة، فهي مأخوذة من البحث بمعنى التنقيب، وربما لا نجد كلمة أفضل منها لتكون بديلاً صالحاً للديالكتيك، فالمباحثة تعني أن هناك شيئاً خافياً علينا نحاول العثور عليه من خلال التعاون فيما بيننا، إلاّ أن هذه المباحثة لا بد لها من طريق وأسلوب صحيح علينا أن نلتزمه، إلاّ أنني اشاهد حتىٰ صغارنا حالياً يتنازعون ويتجادلون أكثر مما هم يتباحثون، بل اشاهد ذلك حتىٰ في أوساط الحوزة العلمية وبين طلاب العلوم الدينية، فالمعروف بين الطالبين المتباحثين أنهما يلوحان بالكتاب لبعضهما حين المباحثة، فإذا كانا يريدان بلوغ الحقيقة، فما معنى رفع الكتاب والتلويح به، وإذا كانا مؤدبين اكتفيا بالصراخ والزعيق بوجه بعضهما، فهل الصراخ والزعيق أسلوب صالح لبلوغ الحقيقة؟ أسألكم مرة أخرىٰ وأريد منكم أن تجيبوني عن سؤالي، سواء أكنتم يساريين أم يمينيين، متدينين أم غير متدينين، شباناً أم كهولاً أم شيوخاً، ما هي النسبة

المئوية التي تشكلها المباحثات الجدلية من بين مجموع حواراتنا؟ وما هي نسبة المباحثات الخالية من هذه العيوب والنواقص؟

[أحد الحاضرين]: ٢٪.

[الدكتور بهشتي]: إذن هناك اثنان بالمئة منّا من الباحثين و٩٨٪ ما هم إلاّ جدليون ليس لهم من همّ سوى النزاع ومحاولة التفضل علىٰ خصومهم وإثبات أحقيتهم من خلال الصراخ والزعيق، في حين أن هذا الأسلوب يؤدي إلىٰ نتائج معكوسة، وأول نصيحة اقدمها للإخوة بهذا الخصوص هي أن هذه الطريقة مضرة تربوياً، حتىٰ وإن كان ضررها بنسبة ١٪ إلاّ أنها مضرّة علىٰ كل حال، فعلينا أن نعوِّد أنفسنا علىٰ المباحثة بدلاً من المجادلة، إذن فلا بد للافراد أن يؤمنوا بهدف في كل عمل اجتماعي يقومون به ليتجهوا نحوه بإيمان، فإذا لم يتمكن عشرة أشخاص من الجلوس مع بعضهم لساعتين ـ وبمجرد بروز الاختلاف في وجهات النظر بينهم يتحول مجلسهم إلىٰ حلبة للصراع والنزاع ـ فهل يمكنهم أن يكونوا إخوة في مكافحة عدوّهم المشترك؟ ومن هنا فقد نهت الأخبار والروايات عن الجدل والنزاع.

وقد كان السوفسطائيون من الذين بدلوا المباحثة والديالكتيك وحولوها إلىٰ الجدل، وبذلك اكتسب الديالكتيك معنى جديداً وصار حتىٰ يومنا هذا مرادفاً للنزاع والجدل الفكري، وإذا أردنا أن ندخل النزاع في تعريف الديالكتيك فالصحيح أن نقول: إن الديالكتيك هو حوار متقابل ينتهي إلىٰ كشف الحقيقة، فهو جهد فكري وفلسفي للتغلب علىٰ التناقض الذي يحكم الأفكار والواقع، كما لو كانت هناك فكرة في ذهني لا أراها منسجمة مع الواقع، فتتحول إلىٰ مجهول واسع للبحث عنه من خلال الحوار وهو ما يسمى بالديالكتيك، فإذا أردنا تفسير التناقض بهذا الشكل فلا بأس به، وأما إذا أدى التناقض بيننا إلىٰ النزاع والصدام فهو أمر مرفوض.

الأطروحة، والطباق، التركيب:

والآن دققوا جيداً، حينما يتباحث شخصان بصدق ليصلا إلىٰ الحقيقة، فإن واحداً منهما يذكر مسألة ويقول: (أرى أن الشمس تدور حول الأرض، فهي تبزغ من جهة المشرق وتأفل في ناحية المغرب) وبذلك يطرح فرضية أو (أطروحة)[١]. فإن ارتضاها صاحبه فلا مباحثة في البين، إذ أن المباحثة إنما تكون فيما إذا رفض أحد المتباحثين مقالة الآخر، واستدل علىٰ خطئها بأدلة ثابتة عنده، ويأتي برأي آخر ينقض به الرأي الأول. وهو ما يسمى بـ (الطباق)[٢] فإذا قنع به الشخص الأول ينتهي البحث، إلاّ أن المسألة لا تنتهي عند هذا الحدّ في الغالب، وإنما يقوم الشخص الأول عادة بإجراء مقارنة بين الاطروحة والطباق، فِيخرج منهما بأمر ثالث متولد عن ايجابيات الاطروحة والطباق وهو ما يسمى بـ (التركيب)[٣].

وقد دأبنا في مباحثاتنا أيام الدراسة في الحوزة العلمية علىٰ سلوك هذه الطريقة، كما أُلّفت الكتب الدراسية القديمة بأسلوب ديالكتيكي، وبذلك يثبت أننا ديالكتيكيين منذ القدم، خلافاً لما تصورناه من أن الديالكتيك هو شيء جديد طرأ علىٰ أفكارنا حديثاً، فإن الأسلوب المتبع في كتبنا الأصولية مثل: المعالم، والقوانين، والرسائل، والكفاية وحتى كتب الفقه من قبيل المكاسب... هي بأجمعها ديالكتيكية يقوم فيها المؤلف بتصدير موضوعه بقوله: (مسألةٌ) وهذه المسألة هي بمثابة الاطروحة التي يحاول اثباتها والاستدلال علىٰ صحتها ببضعة أسطر. ثم يقول بعدها: (إن قلتَ) حيث يستعرض فيه الطباق أو النقيض الذي يحتوي علىٰ بيان نقاط ضعف في الاطروحة التي صدرها بقوله (مسألةٌ). ثم يقول بعدها: (قلتُ) والتي هي عبارة عن التركيب حيث يقرر فيها الاطروحة بأسلوب آخر متأثر بالطباق.

---

(١) (thesis) الاطروحة: المرحلة الأولى من مراحل الديالكتيك.

(٢) (antithesis) الطباق: المرحلة الثانية من مراحل الديالكتيك.

(٣) (Synthesis) التركيب: نتيجة الجمع بين الأطروحة والطباق في الديالكتيك.

وقد يطول أحياناً تقرير الأطروحة والطباق مراراً، حيث يكرر قلتَ وقلتُ أكثر من مرة، ليصل بعد استكمال البحث من جميع جوانبه حتىٰ لا تبقى شاردة وواردة إلاّ ذكرها ليصل إلىٰ التركيب، وحتى بعد بلوغ التركيب لا يقرره بضرس قاطع، بل يعقّبه بقوله: (والله أعلم) مما يدلّ ـ خلافاً للاتهامات الموجهة إلينا ـ علىٰ أننا لسنا جزميين، وهذه هي الطريق الديالكتيكية السليمة والصحيحة.

[أحد الحاضرين]: هل يمكننا أن نصطلح علىٰ هذه المراحل الثلاث بـ : الموضوع ونقيض الموضوع والنتيجة؟

[الدكتور بهشتي]: لا بأس بها، وإن لم تكن بقوة ما ذكرناه من مصطلحات. وعلى أيّ حال فإننا إذا أجرينا مقارنة بين هذه المصطلحات وما هو موجود في كتبنا وجدنا أن (مسألة) تقابل (الاطروحة) و(إن قلتَ) تقابل (الطباق) و(قلتُ) تقابل (التركيب) وبذلك يتضح أن الديالكتيك ليس شيئاً جديداً جاءنا من الخارج، فالجديد فيه هو الكلمات فقط، ونحن عادة لا نكلّف أنفسنا عناء البحث عن معاني الكلمات التي تفد إلينا، لمعرفة ما إذا كانت جديدة أو مألوفة عندنا.

[أحد الحاضرين]: ما هو معنى الديالكتيك لغة؟

[الدكتور بهشتي]: سبق أن قلت: إن الديالكتيك يعني المباحثة والحوار، وذكرت أن الديالكتيك هو حوار صادق للوصول إلىٰ الحقيقة، وإن الجدل طرأ عليه بشكل متأخر.

[الشخص نفسه]: فماذا بشأن المفكر والديالكتيكي كأمرين متقابلين؟

[الدكتور بهشتي]: لا يمكن أن يكونا متقابلين، ولست أدري كيف ذهبتم إلىٰ هذه المقابلة! فالمعنى الدقيق لكلمة الديالكتيك في اليونانية هو ما ذكرته من المباحثة والحوار، ثم تمَّ تحريفها فيما بعد فأطلقت علىٰ الجدل.

[الشخص نفسه]: سمعت في بحث سابق ـ وربما علمتم بذلك أيضاً ـ أن الكاتب شخصٌ ديالكتيكي بخلاف المفكر.

[الدكتور بهشتي]: لا أعلم، ربما أردتم الانتلكتوئيل!

[الشخص نفسه]: كلا الانتلكتوئيل والديالكتيك.

[الدكتور بهشتي]: جعلا متقابلين؟

[الشخص نفسه]: أجل[1].

[الدكتور بهشتي]: لا أعرف من فعل ذلك، ولم اقرأ عنه شيئاً، ولا أعرف محتواه. وأعلن هنا أنَّ هذا البحث ـ في رأيي ـ لا ربط له بجذور هذه الكلمة وتكامل هذا المصطلح، وإذا كان هناك ارتباط بينهما فأتحفونا به فيما بعد.

إذن يتضح أن عامّة المفكرين في الدنيا هم من الديالكتيكيين، إلاّ أن الذي ينبغي قوله هو أن للديالكتيك أساليب مختلفة، وأننا إذا أردنا أن نذكر أسلوباً محدداً ومعيناً للديالكتيك نكون قد ضيقنا في معناه وحجّمناه، ومن هنا فقد ألّف (جورج نموريج) الديالكتيكي المعاصر كتاباً شرح فيه مسار المجتمع، واستغرقت مقدمته ثلاثة أرباع الكتاب، بيَّن فيها التطور الذي طرأ علىٰ الديالكتيك نفسه، إلاّ أنه ـ للأسف الشديد ـ قد ترجم بأسلوب نثري معقد، وربما كان النصّ معقداً أيضاً؛ لأن هذا الكتاب نصف فلسفي، والنصوص الفلسفية غالباً ما تكتب بأسلوب معقد، وقد ألّف هذا الكتاب باللغة الفرنسية، وبما أني لا أستطيع قراءة الفرنسية، لا يمكنني أن أبدي رأياً حول أصل هذا الكتاب، إلاّ أنني حينما اقرأ النصوص الألمانية في الفلسفة أجدها في غاية الصعوبة والتعقيد، كما أن النصوص الانجليزية بدورها

---

(١) إن الأمر كما قال الدكتور البهشتي، فليس هناك وجود لما قاله هذا الشخص، ويتضح أنه حصل له خلط بين الديالكتيك وما قاله الدكتور شريعتي حيث فرق بين المفكر والانتلكتوئيل، فلم يميِّز هذا الشخص بين الديالكتيك والانتلكتوئيل.

صعبة أحياناً، فربما كان النص الفرنسي معقداً أيضاً، وعلى أي حال فإن الترجمة الفارسية له المتداولة حالياً قد ترجمها صديق فاضل وأثير عندنا[١]، إلاّ أن نثرها في غاية الصعوبة، وبامكان الإخوة أن يقرأوا هذا الكتاب ليتعرفوا علىٰ هذه الاعجوبة التي وردت إلينا من ثقافتنا، وما اعتراها من تحول وتطور، وربما كان هذا الكتاب شيئاً جديداً بالنسبة إلىٰ الكتب التي ترجمت إلىٰ الفارسية في هذا المجال، هذا أولاً. وثانياً: لأن مؤلفه مشهور نسبياً وواسع الاطلاع. وثالثاً: قد ألف بشكل جامع وشمولي تقريباً، ولكن هناك مؤلفات أوسع وأكثر تفصيلاً وشمولية في تاريخ المنطق والديالكتيك، إلاّ أنها لم تترجم إلىٰ الفارسية يمكن للإخوة أن يراجعوها أحياناً.

وعليه فإن للديالكتيك أنواعاً، ولا يمكن التعرض لواحد منها بخصوصه، فإذا قيل: إن الإنسان يفكر تفكيراً ديالكتيكياً. قيل له: أي نوع من أنواع الديالكتيك هو؟ وأنتم تعلمون أن ماركس يرى نفسه ديالكتيكياً، إلاّ أنه برغم ذلك يعتبر هيغل ـ أستاذ أستاذه ـ أكبر ديالكتيكي مرفوض، أي أن ماركس لا يرتضي ديالكتيك هيغل، وبذلك يتضح أن للديالكتيك أنواعاً. وهنا نشرح ديالكتيك هيغل بشكل مختصر بغية التعرف عليه.

ديالكتيك هيغل:

إن الديالكتيكية الهيغلية تعتمد الأسلوب الآتي: فهو يبحث في المفاهيم والمقولات، فيأتي إلىٰ الوجود مثلاً فيحلله لكي يعرفه، ويتقدم في تحليله حتىٰ يصل إلىٰ نتائج جديدة فيقول: إننا حينما نحلل مفهوم الوجود جيداً ونتقدم إلىٰ الأمام نجد الوجود وكأنه عدم، أي نقيضه. وحينما نقتفي أثر الوجود والعدم نصل إلىٰ مفهوم ثالث وهو (الصيرورة) وعندها ندرك أن الذي لا بد لنا من البحث عنه أكثر من الوجود والعدم هو الصيرورة التي تحتوي علىٰ الوجود والعدم، فهي وجود وعدم.

---

(١) نقله إلى الفارسية حسن حبيبي تحت عنوان (ديالكتيك يا سير جدالى وجامعه شناسى).

إن الديالكتيك الهيغلي يخوض في المفاهيم والأمور الذهنية، إلاّ أنها طبعاً ليست أموراً ذهنية محضة، ولو سألتموني لقلت: إن هيغل قد عمل في مجال المفاهيم الذهنية بما لها من ارتباط بما يقابلها ويطابقها من الأمور العينية، ولكن بما أن استيعاب كلام هيغل هو أمرٌ في غاية الصعوبة، وبما أن الذين لم يطّلعوا علىٰ الفلسفة الوجودية بدقة لا يمكنهم فهم ما يقوله هيغل؛ فقد حكموا عليه بأنه هراء وسفاسف. ومن هنا فإن شخصاً مثل (آرثر شوبنهاور)[1] ـ وهو معاصر لهيغل ـ قد وصمه بالجنون قائلاً: (إنه يتكلم بعبارات ضخمة ومبهمة، فهو حينما رأى (كانت) قد سبقه بإطلاق كلمات طنّانة ورنانة لاقت صداها عالمياً، أراد أن لا يتخلف عنه، فجاء بعبارات أكبر وأشد إبهاماً لتلاقي صدًى أكبر) إلاّ أن الحقيقة هي أن مردّ هذا الابهام يعود إلىٰ طبيعة العمل المعقد الذي قام به هيغل، كما أنه ناشىء من أفكاره المشتتة والمضطربة، ويعود القسط الأكبر في هذا الابهام إلىٰ صعوبة فهم الفلسفة الوجودية كما أسلفنا، وعلى كل حال فقد قيل إن الديالكتيك الهيغلي مثالي يرتبط بالأمور الذهنية.

الديالكتيك بعد هيغل:

وبعد هيغل ظهرت حركة أخذت تدعو إلىٰ الديالكتيك الواقعي بدلاً من الديالكتيك الذهني، ومن رواد هذه الحركة (فوير باخ)[2] تلميذ هيغل وأستاذ ماركس، إذ ذهب هو ومن علىٰ شاكلته إلىٰ أن الواقعية العينية هي الواقعية المادية، فليست هناك واقعية عينية وراء ما نراه ونلمسه، فلا وجود للواقعية خارج الوجود المادي.

[أحد الحاضرين]: هل هذه هي الواقعية؟

---

(١) ارثر شوبنهاور (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠): فيلسوف الماني متشائم.

(٢) لودفيغ فوير باخ (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢): فيلسوف ألماني تتلمذ على هيغل، ولكنه انتهى ليصبح اعنف منتقدي فلسفته، تأثر ماركس بكثير من آرائه المادية.

[الدكتور بهشتي]: أجل، وبذلك تحول الديالكتيك الواقعي إلىٰ الديالكتيك المادي، فأخذ الديالكتيك منذ ذلك الحين ـ وعلى الخصوص منذ عهد ماركس إلىٰ يومنا هذا ـ يذكر مقروناً بالمادية والمادية الجدلية.

[أحد الحاضرين]: عفواً، قلتم إن ماركس هو الذي جاء بالنظرية المثالية؟

نقد المادية الجدلية (المادية الديالكتيكية):

[الدكتور بهشتي]: بل رفضها، قلنا: إن فوير باخ أستاذ ماركس قال: بما أنه لا وجود للواقعية وراء المادة، إذن لا بد لنا من المصير إلىٰ المادية الديالكتيكية، وقد سُلك هنا أسلوب لا بد من الإشارة إليه والتنبيه عليه، إذ قيل: إن هيغل وكانت وأمثالهما قد فكروا بشكل مثالي؛ إذ حصروا تفكيرهم بالأمور الذهنية. إلاّ أن هذا غير صحيح علىٰ اطلاقه، وأقول بصراحة إن ماركس لم يفهم بعض أقوال هيغل، بل من المستحيل عليه أن يفهمها، لأنه كان غريباً عن ألفباء الفلسفة الوجودية، فصحيح أن ماركس كان مختصاً بالفلسفة، إلاّ أنه دخل المعترك الاجتماعي وهو لا يزال غرّاً، ويشترط فيمن يدخل المعترك الاجتماعي أن يترك الفلسفة جانباً ويتفرغ للمسائل الاجتماعية والاقتصادية والثورية، إلاّ أن ماركس ظل متمسكاً بالأمرين معاً، وليس من الصحيح أن يبقى الإنسان متمسكاً بالفلسفة نظرياً مع الابتعاد عنها عملياً، فالفلسفة هي معترك واسع يحتاج إلىٰ مطالعات دقيقة وواسعة تحتاج بدورها إلىٰ وقت وجهد وتركيز، وليس من الصحيح إبطال كل ما لا نفهمه، وطبعاً هذا هو رأيي، ولا أجبر أحداً علىٰ الاقتناع به. وعلى فرض صحة نسبة المثالية إلىٰ كانت وهيغل وأمثالهما الأمر الذي يدعونا إلىٰ البحث عن ديالكتيك واقعي ـ وهو في الحقيقة شعار جيد وخلاّب ـ إذ ليس من الصحيح أن يقتصر الإنسان علىٰ عالمه الذهني، إلاّ أن هؤلاء قد حصروا الواقعية بالمادة، ثم اردفوها بذلك الشعار البديع،

فمزجوا السم بالعسل، حيث جاؤوا بمسألة شغلت اهتمام الإنسان منذ القدم في أن الواقعية العينية منحصرة بالواقعية المادية والمتطورة أم لا؟ وقد فسرت الواقعية المادية بأنها الواقعية الملموسة التي يمكن أن تقع في البُعد المكاني والزماني، والبُعد الزماني يعني بُعد التطور، إذ قالوا: إننا نحصل علىٰ الزمان من خلال الحركة والتطور. إلاّ أننا نقول: إن هذا أول الكلام، إذ أنكم لم تثبتوا ذلك، فصحيح أن المادة شيء واقعي - في قبال الذين انكروا واقعية المادة - إلاّ أن ما نرفضه هو انحصار الواقعية بالمادة، فإذا صح قولنا كل جوزة هي كروية، فليس بالضرورة أن يصح قولنا كل كروي هو جوزة، وإلاّ صارت الكرة الأرضية جوزة أيضاً. إذن فالمسألة بحاجة إلىٰ اثبات، بل قد ثبت عكسها بعد أن اعترف الماديون الديالكتيكيون أنفسهم بوجود الواقعية الثابتة وغير المتطورة، وذلك بالنسبة إلىٰ القوانين، فقد ورد في منشوراتهم أن للمادة الديالكتيكية عدّة مقدمات:

١ - إن للعالم واقعية عينية، فهو ليس أمراً ذهنياً، ومن هنا كنا واقعيين ولم نكن مثاليين.

٢ - إن هذه الواقعية العينية يمكن التعرف عليها.

٣ - إن لهذه الواقعيات العينية نظاماً وقانوناً يحكمها ويشرف عليها وعلى تطورها، وإلاّ لما أمكننا دراستها والتعرف عليها.

وعليه فإننا نسأل هذا الديالكتيكي المادي: هل لهذا القانون واقعية عينية أو هو أمر ذهني؟

[أحد الحاضرين]: هل القانون منتزع عن الواقعية؟

[الدكتور بهشتي]: ماذا تعني منتزع؟ يعني أنه أمر ذهني؟

[الشخص نفسه]: المفهوم.

[الدكتور بهشتي]: ماذا يعني المفهوم؟ يعني ليس له واقعية خارجية،

وإن هذا العالم لا يسير بموجب نظام، بينما أنا أذهب إلىٰ أنه يسير بإشراف من النظم والترتيب.

[الشخص نفسه]: لا! لا! بمعنى أن ذهني هو الذي أوجده...

[الدكتور بهشتي]: إذن له واقعية عينية، فكل ما لم يصنعه ذهني فهو واقعي، وهو ما يقوله الديالكتيكي المادي بشأن القانون، وفي الوقت نفسه يدعي أنه واقعي فهو يدعي الواقعية ويذهب إلىٰ أن القانون أمر انتزاعي، ولا يرى ذلك منافياً لكونه واقعياً! فنحن نسأله: هل القانون هو أمر منتزع أو هو أمر عيني؟

[الشخص نفسه]: إن ذهني ينتزع القانون من الواقعية العينية مثل قانون الحركة.

[الدكتور بهشتي]: أعلم، ولكن علىٰ كل حال، إذا لم يكن هناك ذهن فهل هذا القانون موجود أم لا؟

[ذلك الشخص]: أجل.

[الدكتور بهشتي]: إذن هو مستقل عن الذهن، فمن الأسس التي يؤمن بها المادي الديالكتيكي تقدّم المادة علىٰ الذهن، فالمادة موجودة قبل وجود الذهن، فنفس السؤال أقوله بشأن القانون: فلو لم يكن هناك ذهن هل يكون هذا القانون أم لا؟

[أحد الحاضرين]: يمكن للقانون أن يكون متحولاً في حدِّ ذاته.

[الدكتور بهشتي]: يكون القانون متحولاً؟!

[الشخص ذاته]: من قبيل قانون الحركة، فهو في عين سكونه في عالم الذهن، إلاّ أنه يحكي عن جسم متحرك.

[الدكتور بهشتي]: كيف؟

[الشخص نفسه]: أفليست الحركة ثابتة؟

[الدكتور بهشتي]: إن الحركة متحولة، إلاّ أن قانونها ثابت. فسؤالي عن قانون الحركة لا الحركة ذاتها، فالقانون الذي يؤلف بين الأوكسجين والهيدروجين ويوجد الماء هل هو ثابت أم متغير؟ نعم الماء متغير وهكذا الأوكسجين والهيدروجين، فتارة يتحدان، وأخرى يفترقان، وأحياناً يكونان علىٰ هيئة سائلة، وأخرى بخاراً، وثالثة ثلجاً جامداً. . .

[الشخص ذاته]: أظهر لنا هذا القانون في الخارج بوصفه واقعية خارجية!

[الدكتور بهشتي]: هنا يكمن اشتباهكم، حيث تقولون ان الواقعية تنحصر في ذلك الشيء الذي يمكن اظهاره فقط، فإذا كان هذا هو اعتقادكم، فلا كلام عندي سوى أني اطلب منكم أن تعرّفوا لي الواقعية العينية.

[الشخص نفسه]: الواقعية العينية هي أنه ليس هناك شيء غير محسوس يمكننا أن نتحدث بشأنه.

[الدكتور بهشتي]: ماذا يعني غير المحسوس؟

[الشخص ذاته]: أي أن الهيدروجين والأوكسجين مفهومان وظاهرتان عينيتان، كما أن القانون الذي يوجد الماء من خلال التركيب بينهما هو وجود عيني أيضاً؟

[الدكتور بهشتي]: صحيح، لكنني أريد أن أعرف هل هو عيني أم لا؟ فأنا أقول عرِّف لي العيني.

[الشخص نفسه]: العيني هو ما له واقعية، والماء واقعيته مستقلة عن هذين الموردين.

[الدكتور بهشتي]: ليس مستقلاً عنهما، وإنما هو مرتبط بهما، حتىٰ

الهيدروجين ليس مستقلاً عن الكاربونات، فهو يرتبط بها في العالم الخارجي.

[الشخص نفسه]: ما هو الاشكال في أن نقول: إن ذهننا ينتزعه من الخارج؟

[الدكتور بهشتي]: حسناً، ألاّ يعني ذلك أن هذا القانون يعمل بمعزل عن ذهني؟

[الشخص نفسه]: هذه ليست قوانين، وإنما هي واقعيات خارجية.

[الدكتور بهشتي]: أنا أيضاً أقصد تلك الواقعية الخارجية، فليس النزاع لفظياً، فهل للقانون واقعية عينية أم لا؟ وحينما نفسر الواقعية العينية نقول: إنها الحقيقة المستقلة عن الذهن، فهي موجودة وإن لم يكن هناك ذهن أصلاً، فإذا كان عندكم تعريف آخر للواقعية العينية فأتوا به.

[الشخص نفسه]: كلا، فهو ما قلناه.

[الدكتور بهشتي]: فإذا كانت الواقعية العينيّة عبارة عن ذلك الشيء الموجود قبل وجود الذهن وصاحب الذهن، إذن فالماء يوجد بعد امتزاج الهيدروجين والاوكسجين قبل وجود الذهن، مما يدلّ علىٰ أن لهذه الحقيقة أصالة حتىٰ مع غياب الذهن، إلاّ أنها واقعية عينية لا يمكن مشاهدتها بالعين ولا تشغل بُعداً مكانياً ولا زمانياً، كما أنها ليست متطورة، لأن المفروض أن القانون أمر ثابت.

[أحد الحاضرين]: إن هذه المسألة تصدق في الغالب بشأن الذوات دون الأعراض.

[الدكتور بهشتي]: ماذا تعني بالذوات؟

[الشخص نفسه]: أعني الأمور التي تخضع للزمان والمكان.

[الدكتور بهشتي]: الذات هي التي تخضع للزمان والمكان؟!

[الشخص نفسه]: القانون ليس أمراً ذاتياً له وجود في الخارج، فليست له عينية خارجية بوصفه ذاتاً، إنما القانون هو نوع من أنواع العرض.

[الدكتور بهشتي]: عَرَض؟!

[الشخص نفسه]: أجل، فهو أمر يعرض على الذوات.

[الدكتور بهشتي]: نحن نبحث بشكل ديالكتيكي، فماذا تعني الذات؟

[الشخص نفسه]: الذات ذلك الشيء الذي له عينية خارجية وما هو ملموس ويخضع للزمان والمكان وأمثالهما.

[الدكتور بهشتي]: إذا عرفتم الذات بهذا النحو فسوف تكون الذات جسماً، والقانون ليس جسماً إلاّ أنه واقعية عينية، وهذا لا كلام لنا فيه.

[الشخص نفسه]: إن الذين ينفون وجود الثابت يريدون بذلك الذوات.

[الدكتور بهشتي]: لا تقل ذات، لأنها توقعنا في الخطأ، بل قل جسماً. فإن لكلمة الذات في مصطلحنا معنًى أوسع، حيث نقول، ذات الباري تعالىٰ: ذات الروح. والجسم عندهم عبارة عن ذلك الشيء الذي له بُعد مكاني، وبما أنه متطور يكون له بُعد زماني أيضاً، وهذا ما يقوله الجميع فليس هناك من يذهب إلىٰ خلافه، فحتى أرسطو ذهب إلىٰ ذلك أيضاً، إذ قال: إن الأجسام الطبيعية والمحسوسة هي موجودات تشغل بُعداً مكانياً ولها قوة وفعل، أي أنها في تطور مستمر، إذن ليس هذا بالشيء الجديد، فلماذا حصرتم الواقعية بهذا الشيء، وقلت: لا يصح استعمال كلمة الذات لأنها مبهمة، فلا بدّ أن تفسروها، فأحياناً تطلق الذات في قبال الفكرة، وأحياناً في قبال العَرَض، فتكون الذات من الجواهر، إذن فالذات لها عدّة معانٍ. وتارة تكون في قبال الظاهرة وهو ما ذهب إليه (كانت) حيث

قال: (الذات هي النومينون[١] في قبال الفينومينون)[٢] فأيّ هذه المعاني للذات تريدونه؟ إذن أرى من الأفضل أن تتجنبوا الكلمات المبهمة. ونحن نقول: إن الواقعية العينية لا تقتصر علىٰ الجسم وصفاته، لأن القانون ليس صفة للجسم، إذ أنكم تقولون إن القانون يحكم الجسم، والصفة لا يمكنها أن تكون حاكمة، فالقوانين الطبيعية لمّا كانت حاكمة علىٰ الأجسام في العالم، فلا بد أن تكون أسمى وأعلى منها.

[الشخص نفسه]: عفواً، ذكرتم أن القانون حاكم، إلاّ أنني لا أرى في البين حاكماً ومحكوماً، فالمسألة هي أنه كلما وجد جسم وجد قانونه معه.

[الدكتور بهشتي]: صحيح، لكن أيهما المؤثر وأيهما المتأثر، فهل القانون يؤثر في الجسم أو الجسم يؤثر في القانون؟

[الشخص نفسه]: لا ينبغي التفكيك بين هذين الشيئين.

[الدكتور بهشتي]: إن القانون أمر مستقل، وإن كان مرتبطاً بالجسم.

[الشخص نفسه]: أفهل هناك قانون بمعزل عن الجسم؟

[الدكتور بهشتي]: نحن لم نقل إن القانون يوجد دون جسم، وإنما قلنا: هو موجود. كما أننا لم نقل إن الله موجود من دون طبيعة، أو الروح من دون جسم. وإنما كلامنا في أن الواقعية هل هي منحصرة بذلك الشيء الواقع في البُعد الزماني والمكاني، أو أنها غير منحصرة بذلك حتىٰ علىٰ رأي الديالكتيكي؟

[الشخص نفسه]: إن القانون ليس شيئاً له وجود في ذاته، فهناك أمور

---

(١) (noumenon): الشيء أو مفهوم الشيء كما هو في ذات نفسه أو كما يبدو للعقل المحض (في الفلسفة الكانتية).

(٢) (Phenomenon): الظاهرة، واقعة أو حادثة يمكن ملاحظتها وادراكها بالحواس.

موجودة في حدِّ ذاتها، وهناك أمور موجودة بغيرها، ومنها القانون فوجوده ليس ذاتياً.

[الدكتور بهشتي]: كما أن الجسم كذلك أيضاً، لأنه إنما يوجد من خلال قانونه، فما هو المعيار الذي علىٰ أساسه تجعلون أحد هذين الأمرين أصلاً والآخر فرعاً؟

[الشخص نفسه]: ليس في البين أصل وفرع، وإنما المسألة هي أنه علىٰ كل حال عَرَض و...

[الدكتور بهشتي]: القانون عرض؟ القانون ليس عرضاً.

[الشخص نفسه]: كيفيةٌ...

[الدكتور بهشتي]: كما أنه ليس كيفية.

[الشخص نفسه]: إن القانون من الكيفية والخصوصيات التي تحكم الأجسام والذوات، فالقانون ليس له ذات واحدة، ولا يمكنه أن يوجد وحده.

[الدكتور بهشتي]: كما أن الجسم لا يمكنه أن يوجد وحده أيضاً، إذ دائماً يكون قانونه معه.

[الشخص نفسه]: يمكن للجسم أن يكون موجوداً بلا قانون.

[الدكتور بهشتي]: كلا، هذا مستحيل.

[الشخص نفسه]: مرادي أنه الآن لا يوجد في الخارج، أقول: من الممكن أن يكون هناك جسم غير خاضع للقانون ويكون محكوماً للاضطراب.

[الدكتور بهشتي]: إذن فالقانون أيضاً يمكن أن يوجد من دون جسم، فالقانون يحتاج إلىٰ رقعة، وقد تكون هذه الرقعة ليست جسماً، إذا تكلمنا في حدود الإمكان فقط.

[أحد الحاضرين]: إذا قلنا: إن القانون هو مجموعة الروابط القائمة بين الظواهر، فسوف نجد أن الظواهر ليست سوى الارتباط القائم بينها، وبذلك يغدو القانون ذاتياً بالنسبة للظواهر والمادة، والذاتي يعني نفسه، إذن فالمادة ليست سوى مجموعة ارتباطاتها.

[الدكتور بهشتي]: والروابط ليست سوى مجموعة قوانين.

[الشخص نفسه]: إذن لا يمكن دراسة الرابط بشكل مستقل عنّا، فذات المادّة يعني المادة نفسها.

[الدكتور بهشتي]: المادة نفسها، أم مع المادّة؟

[الشخص نفسه]: المادة نفسها.

[الدكتور بهشتي]: إذا كان نفس المادة، فما هي رقعة هذا القانون؟ فإنكم تقولون: إن القانون أي الأصل والأمر الدائم وإن كان في نطاقنا هذا، فكلما وجد هيدروجين وأوكسجين وتوفرت الظروف الملائمة وجد ماء؟

[الشخص نفسه]: تحدث رابطة.

[الدكتور بهشتي]: حسناً، أنا أيضاً أقول رابطة، إلاّ أن هذه الرابطة هل هي المادة أو أن لها مجالاً تعمل فيه؟

[الشخص نفسه]: مجموعة روابط.

[الدكتور بهشتي]: أنا الآن أتحدث حول هذا المورد.

[الشخص نفسه]: لا يمكن تفكيكه عن الماء.

[الدكتور بهشتي]: دققوا! أنا أقول انتبهوا الآن إلىٰ هذا المورد، هل هذا المورد هو المادة أو هو عبارة عن ذلك القانون الثابت لروابط المادة؟ أيهما؟

[الشخص نفسه]: إن هذا قانوناً يبين واحداً من روابط المادة الثابتة.

[الدكتور بهشتي]: حسناً، إذا قلتم إن هذه الرابطة ثابتة، فإننا سنحذف كلمة القانون، فنقول: هل لدينا في العالم روابط ثابتة أو أنها متغيرة؟

[الشخص نفسه]: لدينا روابط ثابتة، فإذا أردنا أن تكون لدينا مادة فلا بد من ايجاد روابطها الثابتة.

[الدكتور بهشتي]: حسناً، إذن لدينا رابطة ثابتة، فهل هذه الرابطة الثابتة لها واقعية أو هي وهم؟

[الشخص نفسه]: لها واقعية، إلاّ أنها ليست مستقلة عن المادة.

[الدكتور بهشتي]: المادة أيضاً ليست مستقلة عنها، فهما مترابطان.

[الشخص نفسه]: إن ما هو عيني وملموس ما هي نسبته إلىٰ المادة؟ إذن له واقعية.

[الدكتور بهشتي]: ماذا؟! [ضحك الحاضرون] كنا نسير معاً، فكيف سبقتنا وتقدمت علينا؟

[الشخص نفسه]: سلكت سلوكاً ديالكتيكياً [ضحك الحاضرون].

[الدكتور بهشتي]: ولكن كان من الأفضل أن نسير جنباً إلىٰ جنب قلتم إن هذا القانون هو رابطة المادة، ونحن أيضاً نرفع كلمة القانون، ونقول: رابطة المادة. وتقولون: إن هذه الرابطة ثابتة وإنها رابطة واقعية، فهل هي المادة أو رابطة المادة؟

[الشخص نفسه]: رابطة المادة.

[الدكتور بهشتي]: رابطة المادة، ولكنها مع المادة وليست المادة نفسها.

[الشخص نفسه]: هي في الوقت نفسه من روابط المادة.

[الدكتور بهشتي]: وأنا أقول ذلك أيضاً.

[الشخص نفسه]: أي أننا إذا أردنا أن يكون لدينا ماء فلا بد لنا أن نوجد رابطة الهيدروجين والأوكسجين.

[الدكتور بهشتي]: ما هي الرابطة التي نقيمها؟

[الشخص نفسه]: أنتم تتحدثون عن الرابطة وكأنها شيء مستقل.

[الدكتور بهشتي]: كلا! لم أقل إنها مستقلة. دققوا: إن ثبات القانون في الهيدروجين والأوكسجين في عين تغيرهما المستمر، إلاّ أنه توجد بينهما رابطة ثابتة. قولوا: إنه أمر ذاتي ثابت، أي أن الأوكسجين والهيدروجين اللذين تراهما في تغير دائم وفي جميع الجهات في الحقيقة إنهما لا يتغيران في جميع الجهات، وإنما يتغيران في بعض الجهات، وقد أردت في الواقع التوصل إلىٰ هذه النتيجة. فحينما تعرّفون المادة بأنها شيء له بُعد متغير، فلا بد أن تقولوا: ولها بُعد ثابت أيضاً، وما قلتموه بشأن الواقعية العينية من أنها عبارة عن الواقعية الكائنة في البُعد المكاني والزماني، فإن هذه الخصيصة في المادة واقعية، فهل بإمكانكم قياس هذه الخصيصة في المادة بالمتر؟

[الشخص نفسه]: أجل، يمكن قياسها، ولكن لا بالمتر.

[الدكتور بهشتي]: هذا ما أريد قوله، فهي لا يمكن قياسها بالمقياس المكاني، كما أن من خصائصها أنها لا تخضع لرقعة الزمان، لأنكم تقولون إن الخاصية ثابتة، وكل ما هو ثابت لا تحده رقعة الزمان. وعليه فإن أساس هذه الرؤية الكونية القائمة علىٰ صرف التحول والتطور وحصر الواقعية بناحيتها المتحولة، أو ناحية البُعد المكاني قد تزلزل، ونحن لا نتحدث عن القانون وإنما عن ذلك الشيء الذي تأخذون منه القانون الثابت فهو ليس مادة متغيرة، فلا يمكن استخراج قانون ثابت من المادة المتغيرة، وإنما يمكن الحصول علىٰ القانون الثابت من الناحية الثابتة في المادة، إذن

فالواقعية العينية منحصرة بالواقعية التي لها بعد مكاني، فواقعيتنا العينية مزيج، ففيها جوانب ملموسة لها بُعد مكاني، ومتحولة واقعة في البعد الزماني، وجوانب لا هي في البعد الزماني ولا المكاني، ولا تتحول ولا يمكن رؤيتها، فهل تشاهدون الخصائص الثابتة لذرة الأوكسجين والهيدروجين أو أنكم تستنتجونها؟

[الحضور]: نستنتجها.

[الدكتور بهشتي]: إذن فقد أدركتم من خلال الفيزياء واقعية عينية ليس فيها شيء من الصفات التي ذكرتموها، فهي لا تدرك بالحس ولا تخضع للبعد الزماني، وإلاّ تطورت وتحولت، كما أنها لا تخضع للبعد المكاني.

[أحد الحاضرين]: عفواً، أفليس الاستنتاج هو إيجاد رابطة بين المفاهيم؟

[الدكتور بهشتي]: كلا، فيما يرتبط بالعين... هو ما ذكرته من أنَّ هؤلاء ينسبون المثالية لهيغل وكانت وغيرهما اعتباطاً، ولذا قلت: إنهم درسوا المفاهيم فيما يرتبط بالعين، وليس بشكل مستقل.

[أحد الحاضرين]: بالنسبة إلىٰ الديالكتيك هل هناك حسٌّ مستقل عن الواقعية الخارجية... [غير مفهوم].

[الدكتور بهشتي]: نعم، إن هذا بحث جميل حقاً، قلت: هناك نوع من الاضطراب في أعمال هيغل، فكلمات الفلاسفة الوجوديين المسلمين أقرب للفهم وأكثر نظماً وتنسيقاً من تعبيرات الفلسفة الوجودية لهيغل، ويبدو أن بعض الأمور لم تكن واضحة لهيغل، حتىٰ نقل عنه أنه قال: (أحياناً لا أفهم ما أقوله حتىٰ بعد المرّة الثانية). ولا أريد التوغل في تفاصيل البحوث الفلسفية، لأنها بحاجة إلىٰ مقدماتها الخاصة، ومن هنا سنتعرض إلىٰ مقدمات بشأن القرآن الكريم.

[أحد الحاضرين]: إذن الرابطة بين المفاهيم. . .

[الدكتور بهشتي]: فيما يرتبط بالعين.

[الشخص نفسه]: توجد المفاهيم عند ارتباطها بالعين.

[الدكتور بهشتي]: حسناً، إذا كان ارتباطها بالعين، فما هي الرابطة التي تكشف عنها؟

[الشخص نفسه]: الرابطة العينية.

[الدكتور بهشتي]: إذن لو توصلنا إلىٰ رابطة ثابتة فما هو الشيء الذي نكون قد توصلنا إليه؟ هل هو الرابطة الذهنية الثابتة أو العينية الثابتة؟

[الشخص نفسه]: نحن نعتبر ذات المفهوم أمراً ذهنياً أم عينياً؟

[الدكتور بهشتي]: ذهنياً.

[الشخص نفسه]: إذن توصلنا إلىٰ رابطة ثابتة، فنحن نقيم رابطة بين الثوابت، وهذه الرابطة ليس لها عينية متحركة.

[الدكتور بهشتي]: إذن فجميع القوانين العلمية التي نستنتجها. . .

[الشخص نفسه]: بوصفها واقعية خارجية ومفهوماً في الذهن.

[الدكتور بهشتي]: أعرف، أنا قلت ذلك وتجاوزته، فسواء اقلتم إنها ثابتة أم متغيرة فالآن أجيبوا عن سؤالي هذا: هل هذه الرابطة التي اكتشفتموها كقانون علمي هي رابطة ذهنية وهمية أم لها معادل عيني؟

[الشخص نفسه]: لها معادل عيني.

[الدكتور بهشتي]: معادلها العيني هذا ثابت؟ أم أن القانون ثابت ذهني وليس ثابتاً في الخارج؟

[الشخص نفسه]: لولا الزمان والمكان لكانت ثابتة، إذن فهي مع

وجود الزمان والمكان متحركة وليست ثابتة.

[الدكتور بهشتي]: إذن فالقانون يتغير؟ فما معنى هذا التحرك؟

[الشخص نفسه]: القانون لا يتغير.

[الدكتور بهشتي]: إذن فهو ثابت في الخارج.

[الشخص نفسه]: القانون في الخارج يعثر علىٰ مصداقه الخارجي.

[الدكتور بهشتي]: هنا تكمن دقّة المسألة، حيث تريدون تجاوز ثبات القانون بسهولة لتحافظوا علىٰ المبنى الذي هو التطور الكامل والتحول الشامل، في حين أنكم لا تستطيعون ذلك، أي أنكم تخطئون، فإن تقدمكم في أعمالكم واكتشافاتكم ودراساتكم رهن بثبات هذه الروابط واستمرارها.

[الشخص نفسه]: إنكم تحذفون الزمان والمكان.

[الدكتور بهشتي]: أنا أحذف؟ يعني هما واقعاً ليسا ثابتين؟

[الشخص نفسه]: إن الاستنتاج يحصل بصورة سريعة و...

[الدكتور بهشتي]: أنا ملتفت، قولوا: أنت تحذف الزمان والمكان، أنا أقبل ذلك، ولكن أجيبوا عن سؤالي: هل ثبات القانون من فعل الذهن؟

[الشخص نفسه]: ثبات القانون.

[الدكتور بهشتي]: أجل.

[الشخص نفسه]: إن ما نواجهه ليس سوى المصاديق الخارجية لذلك القانون.

[الدكتور بهشتي]: حسناً، هل مصداق القانون ثابت أم متغير؟

[الشخص نفسه]: لا يمكن اصدار مثل هذا الحكم.

[الدكتور بهشتي]: ولكن لا بد من أن يكون هناك جواب.

[الشخص نفسه]: ليس لدينا زمان ومكان.

[الدكتور بهشتي]: ليس للقانون زمان ومكان؟

[الشخص نفسه]: القانون بنفسه ليس له زمان ومكان.

[الدكتور بهشتي]: حسناً، إذن تلاحظون أن القانون واقعية عينية، ومع ذلك ليس لها زمان ومكان.

[الشخص نفسه]: القانون ليس واقعية عينية.

[الدكتور بهشتي]: أهو أمر وهمي؟

[الشخص نفسه]: كلا، وإنما هو شيء يقوم به الذهن.

[الدكتور بهشتي]: وهم؟

[الشخص نفسه]: إن الأمر الذهني ليس وهماً، فكل مفهوم ذهني.

[الدكتور بهشتي]: إذن ليس بوهم، فهل له مصداق عيني أم لا؟

[الشخص نفسه]: بالتأكيد.

[الدكتور بهشتي]: حسناً، هل مصداق القانون العيني ثابت أم متغير؟

[الشخص نفسه]: فهل نحكم بشأن المادة نفسها بالثبات أو التحرك؟

[الدكتور بهشتي]: عزيزي، لا بد أن نعرف ما هو الشيء الذي نطلق عليه اسم المادة، فقد تقدّم أن قلنا: إن هذه كلمات مبهمة، وقد تركت ظلها علىٰ مسائلنا، وقد تجاوزناها ببساطة، وهذا نقص لا بد لنا من التخلص منه، فإذا دخلتم في التحليل فعليكم الاستمرار به حتىٰ النهاية، وأما إذا أردتم أن تبحثوا الأمور بشكل إجمالي دون تقدّم إلىٰ الأمام، فإني أقول: إن أنصار الديالكتيك يذهبون إلىٰ تغير المادة وثبات القوانين، ويرون أن هذه القوانين عينية وليست ذهنية، وبذلك فقد اعتقدوا بواقعية عينية ثابتة، فإذا كان يحلو لكم أن تجعلوا ذلك من خواص المادة فلا بأس به،

فإن ذلك يعني أن للمادة المتغيرة خصوصية ثابتة، وأنا لا أريد الدخول في تفاصيل ذلك، ولكن أريد منكم جواباً واضحاً علىٰ هذا السؤال: هل القانون أمر ذهني أم عيني؟

[الشخص نفسه]: إنه أمر ذهني، لأنه مفهوم.

[الدكتور بهشتي]: هل هذا المفهوم والأمر الذهني ثابت؟

[الشخص نفسه]: نعم.

[الدكتور بهشتي]: هل لهذا الأمر الذهني مطابق ومصداق عيني أم لا؟ وهل مصداقه العيني ثابت أم متغير؟

[الشخص نفسه]: إِنَّ لذلك تحليلاً [ضحك الحاضرون].

[الدكتور بهشتي]: احتفظوا بالتحليل لأنفسكم، واجيبوا عن سؤال، فهل مصداق هذا القانون العيني ثابت أم متغير؟

[الشخص نفسه]: إن المصداق العيني لهذا القانون هو المادة، ولا استطيع أن أبدي رأياً بشأن المادة.

[الدكتور بهشتي]: إذن تريد أن تدخلنا في صحراء قاحلة، وهذا ما لا نريده.

[أحد الحاضرين]: لو تفضلتم بتوضيح مختصر بشأن أنواع الوجود والجوهر وأمثالهما لأمكن حل المسألة.

[الدكتور بهشتي]: كلا، لا يمكن حلها بهذه الطريقة، وأنا لا أشجع عليها.

[الشخص نفسه]: الاشكال في أننا في مسألة القانون والجوهر...

[الدكتور بهشتي]: إن الجوهر أشدّ تعقيداً من المادة، فإنكم حينما تلاحظون بعض المصطلحات اجمالاً ترون أنها في غاية الوضوح، وما أن

تخوضوا فيها حتىٰ تجدوها في غاية الابهام، ولا بأس عليكم لو عرفتم أن صاحب الأسفار قد ناقش تعريف الجوهر في أبحاث طويلة، فهل هو يشمل الجسم أم لا؟ وإذا شمله فهل يشمل الوجود المحدود أم لا؟ وأنا لا انصح بالدخول في هذه الأبحاث، وإنما علينا الاقتصار علىٰ القرآن والبحث في محكماته، فإذا كان جوابكم عن سؤالي المتقدم هو نفس ما تقدّم فأرى من الأفضل عدم التكرار، وإذا كان لديكم جواب آخر فتفضلوا به، فما هو جوابكم؟

[الشخص نفسه]: لم أفكر في هذا الموضوع.

[الدكتور بهشتي]: لا بأس، تلاحظون أن مفتاح البحث هو أن تبدأوا بالمحكمات والأمور الواضحة وتتقدموا بها إلىٰ الأمام، وكلما واجهتم ظلاماً فتوقفوا ولا تدخلونا في المتشابهات، إذ لا هداية فيها وإنما هي عين الضلال.

[أحد الحاضرين]: إذا أمكنكم عرّفوا لنا هذه الواقعية.

[الدكتور بهشتي]: الواقعية هي كل ما يستقل عن الذهن، وطبعاً لا يمكن تعريف الواقعية، لأنها من أوضح المفاهيم، وأنتم حينما تعرفون مفهوماً لا بد أن تصلوا إلىٰ مفهوم لا يحتاج إلىٰ تعريف.

[الشخص نفسه]: ما هو فرقها عن الحقيقة.

[الدكتور بهشتي]: هذا مصطلح، وعليكم أن تتجاوزوه، أي أن الواقعية شيء واضح، فهي كل ما يستقل عن الذهن.

[الشخص نفسه]: إلاّ أننا لا نعرف بعض الأشياء.

[الدكتور بهشتي]: فليكن، فأنا اتحدث عن الأشياء التي تعرفونها، فهذا الكرسي مثلاً له وجود خارج ذهننا؟

[الشخص نفسه]: نعم.

[الدكتور بهشتي]: فهذه هي الواقعية، فهي كل ما له وجود مستقل عن الذهن. والآن أسألكم: هل للمادة واقعية خارج اذهاننا أم لا؟

[الحضور]: أجل.

[الدكتور بهشتي]: إذن يتضح أن لدينا واقعية ثابتة خارجة عن بُعد الزمان؛ لأن كل ثابت خارج عن بُعد الزمان، وهذا الامتزاج بين الثابت والمتغير يحظى بأهمية عالية في معرفة العالم والإنسان بشكل صحيح، وأن ما ينسب إلىٰ (برميندس)[1] وغيره من الفلاسفة الوجوديين وحتى الفلاسفة المسلمين والعرفاء من أنهم يرون أنَّ الوجود شيء ثابت، وينكرون غير الثابت، ويرون الوحدة شيئاً حقيقياً والكثرة أمراً وهمياً فهو أمر ليس بصحيح، وإذا صحت هذه النسبة كان كلامهم تافهاً؛ إذ أننا رأينا التكثر والتنوع والتطور أمراً واقعيّاً. كما أن ما نسب إلىٰ (هرقليطس)[2] من أنه قال: (لا يمكن وضع الرجل مرتين في الماء) بمعنى أنه ليست لدينا واقعية ثابتة ليس صحيحاً أيضاً؛ إذ نقول في الأقل: إن التطور نفسه أمر ثابت... فحينما يذهب (زينون الاليائي) إلىٰ أن الحركة هي وهم وليس لها واقعية، ويذهب هرقليطس إلىٰ تغير كل شيء يكونان مخطئين معاً، إذن فامتزاج الثبات والتغير هو الصحيح، وهذا الامتزاج مهم جدّاً في معرفة الطبيعة والإنسان، ومعرفة حياته وتنظيم روابطه، فأنتم حينما حضرتم هذه الجلسة في الأسبوع المنصرم، ثم عدتم إليها في هذا الأسبوع فهل اردتم في مجيئكم ثانية أن تجدوا بيتاً متغيراً أم جئتم إلىٰ ناحية ثابتة؟

[أحد الحاضرين]: إلىٰ الناحية الثابتة.

[الدكتور بهشتي]: لو جلس أحدكم علىٰ كرسي، ثم قام، فأزحت

---

(١) برميندس (حوالي ٥١٥ ـ ٤٥٠ ق.م): فيلسوف يوناني، مؤسس المذهب الاليائي، ظهر تأثير أفكاره على كثير من مؤلفات أفلاطون.

(٢) هرقليطس (حوالي ٥٤٠ ـ ٤٨٠ ق.م): فيلسوف يوناني، ذهب إلى أن الثبات أمر وهمي، وأن العالم يحكمه التغير والتطور، كما ذهب إلى أن أصل جميع الأشياء النار.

الكرسي، فهل هاتان الحالتان شيء واحد؟

[أحد الحاضرين]: هنا أكون قد تغيرت وتغير الكرسي.

[الدكتور بهشتي]: تغير، إلاّ أن الرابطة بينك وبين الكرسي ليست في بعدها التغييري، أي أنكم لم تجلسوا علىٰ الكرسي بفعل الحركات الميكانيكية داخل الذرّة، فأنت تتجه نحو الكرسي الذي يريحك، أنت الآن حيث جلست علىٰ هذه الأريكة، هل استندت إليها بسبب الحركات الداخلية لذراتها، أم بسبب ثبات الأريكة في مكانها؟

[الشخص نفسه]: إن تحديد السبب ليس من صلاحيتي.

[الدكتور بهشتي]: لا اعتباراً، وإنما واقعاً ما فعلتم؟! أنا اذكر هذه الأمور لإيجاد صعقة في الذهن لتعلموا أن الغفلة عن ناحية التحول والتغير وما يصحب ذلك من ثبات يحدث ضجّة كبيرة، فأنتم الآن إذاً تذهبون إلىٰ منازلكم وتعكفون علىٰ الكتاب الذي اشتريتموه قبل أسبوع، هل تقرأون شيئاً ثابتاً أم متغيراً؟

[الشخص نفسه]: هنا يتغير العالم والكتاب كما أتغير أنا، لأني جزءٌ من العالم المتغير.

[الدكتور بهشتي]: صحيح، ولكن أريد أن أعرف أنكم حينما تتغيرون من...

[الشخص نفسه]: في آنِ واحد نكون ثابتين بأجمعنا، وإنما نتغير في الآن الثاني.

[الدكتور بهشتي]: وأنا أقصد الآن الثاني أيضاً، فسؤالي هو: أنك في هذه الليلة التي هي الآن الثاني تقرأ الكتاب الذي يحمل صفات الكتاب الأمسي أم ماذا؟

[الشخص نفسه]: ذلك الكتاب قد تغير أيضاً.

[الدكتور بهشتي]: أي أنكم ذهبتم إلىٰ المتغير؟

[الشخص نفسه]: أنا أيضاً تغيرت.

[الدكتور بهشتي]: اعرف أنك قد تغيرت، ولكن سؤالي هو أنك أنت المتغير في هذه الليلة قد قصدت كتاباً متغيراً بما هو متغير أم قصدت الكتاب من تلك الناحية الثانية فيه؟

[الشخص نفسه]: ما هو مرادك من التغير؟

[الدكتور بهشتي]: أي تغيّر، فقد قلت مراراً: إن ماركس أو أي شخص علىٰ شاكلته هو مثالي بمقدار اتهامه لهيغل بالمثالية، سواء أفي الرؤية الكونية أم في نظامه الاجتماعي، لأنه يصور لنا إنساناً مثالياً لم يعثر تاريخ البشرية علىٰ مصداقه إلاّ فيما ندر، إذ يصور الإنسان وهو يُعطى كل ما يطلبه، ويحصل علىٰ ما يحتاجه، سواء أعمل أم لم يعمل، ولو طبق هذا الحكم علىٰ الصعيد الفردي فلا بأس به، إلاّ أنهم يعممونه علىٰ المجتمعات، وعندها تكون المسألة ملفتة للانتباه، فهل هي أحلام يقظة أم هي مشروع ومخطط؟ إن الرؤية الكونية تبدأ بنوع من المثالية كما تنتهي الرؤية السياسية إلىٰ نوع من المثالية أيضاً، حيث المجتمع الذي لا يحتاج إلىٰ حكومة لانعدام الظلم أساساً. . . وطبعاً هذه مباحث لا بد من التدقيق بشأنها، وقد أردت الإشارة إليها لكي تدرسوها، ولا أروم اجباركم علىٰ الاقتناع بها.

[أحد الحاضرين]: عفواً، هل الماديون الذين يذهبون إلىٰ الواقعية المادية يذهبون إلىٰ ثبات أقوالهم هذه أم لا؟

[الدكتور بهشتي]: تقصدون أفكارهم. . أي فكرة ثابتة، وقد أردت الذهاب إلىٰ ما هو أبعد من ذلك، حيث أردت التطرق إلىٰ منشأ هذه الفكرة، أي القانون الثابت بدلاً من الفكرة نفسها.

[أحد الحاضرين]: بالنسبة إلىٰ الأريكة التي نجلس عليها، أفلا يدركها الذهن؟

[الدكتور بهشتي]: يدركها الذهن، ولكن كيف يدركها؟ هل يدركها علىٰ أننا لو لم نكن لما كانت؟! أو أنه يدركها علىٰ أنها موجودة ولو لم يكن لنا وجود ولم يكن هناك ذهن؟

[الشخص نفسه]: إن النوع الذي يدركه الذهن غير ما إذا لم يكن ذهن، هل تكون هناك اريكة أم لا فهذا هو سؤال الماديين.

[الدكتور بهشتي]: فالنتيجة، في صورة انعدام الذهن، هل تنعدم هذه الأريكة أم لا؟

[الشخص نفسه]: لا ربط لذلك بالذهن، وإنما المراد هو كيفية وجود هذه الأريكة، فهل هي معتمدة علىٰ ذهننا أم هي مستقلة عنه؟

[الدكتور بهشتي]: هذا هو ما أقوله.

[الشخص نفسه]: وهل كون هذه الأريكة مستقلة عن الذهن يختلف عن كونها مدركة بواسطة الذهن؟

[الدكتور بهشتي]: صحيح، فقد أدركها الذهن... انظروا بإمكانكم الآن أن ترسموا في أذهانكم خارطة لعمارة بعشرة طوابق، إلاّ أنها لا وجود لها إلاّ في ذهنكم، إذن فهذا شيء غير مستقل عن ذهنكم، وقد أدركه الذهن برغم عدم واقعيته العينية، إلاّ أنكم في الوقت نفسه تدركون هذه الأريكة التي لها واقعية عينية مستقلة عن الذهن.

[أحد الحاضرين]: [غير مفهوم].

[الدكتور بهشتي]: فبأي وسيلة كانت، فإن ذهنكم يفرِّق بين الصورة التي يحملها عن تلك العمارة الوهمية وصورة الأريكة التي تجلسون عليها.

[الشخص نفسه]: نعم.

[الدكتور بهشتي]: وهذا هو ما نقوله، فالفرق بينهما أنك في الصورة التي تحملها في ذهنك عن العمارة تقول: لولا ذهني لما كانت هذه العمارة، بخلاف الأريكة فحتى لو زال وجودي وزال ذهني فالأريكة موجودة، ولذا نقول: إن الأريكة واقعية مستقلة عن الذهن، فواقعيتها ليست رهناً بالذهن.

[أحد الحاضرين]: عفواً، أنا لا أشاهد فرقاً بين الهيدروجين قبل مليار سنة ضوئية[1] وبين الهيدروجين الحالي، فما هو الفرق بينهما؟

[الدكتور بهشتي]: هذا ما قلته!

[الشخص نفسه]: الهيدروجين مادة أليس كذلك؟

[الدكتور بهشتي]: هذا ما قلته، فما معنى قولك (لا أرى فرقاً)؟

[الشخص نفسه]: كلاهما هيدروجين.

[الدكتور بهشتي]: أي أن خصوصيتهما واحدة برغم تغيرهما إلاّ أن خواصّهما واحدة.

[الشخص نفسه]: بل الهيدروجين لا يتغير، فلماذا تفرضون تغيره؟ فأي شيء تغير فيه؟

[الدكتور بهشتي]: قد تحول الهيدروجين إلىٰ ماء، كما أنه يدخل أحياناً في تركيب الحوامض ويكتسب خصائص جديدة، والهيدروجين المنفرد قابل للاشتعال بخلاف الممتزج بالماء، إذن هو يحمل بعض الخصائص المتغيرة وفي الوقت نفسه له خصائصه الذاتية.

[الشخص نفسه]: حسب علمي فإن الهيدروجين يحتفظ بصفته الذاتية في أي تركيب دخل.

---

(١) يلاحظ أن السنوات الضوئية إنما هي لقياس المسافات لا الزمن، فلا يخفى ما في قول المتكلم من خطأ ظاهر (المترجم).

[الدكتور بهشتي]: صحيح.

[الشخص نفسه]: أي في تركيب الماء يدخل الهيدروجين والأوكسجين.

[الدكتور بهشتي]: اعلم ذلك!

[الشخص نفسه]: إلاّ أنه هيدروجين علىٰ كل حال.

[الدكتور بهشتي]: صحيح، ولكن ماذا يعني أن الهيدروجين هو الهيدروجين؟ أي أنه حافظ علىٰ خصوصياته الذاتية، ولكن مع ذلك له خصوصياته المتغيرة.

[الشخص نفسه]: يمكنه أن يوجد تركيبات أيضاً.

[الدكتور بهشتي]: وفي الوقت نفسه يفقد خاصيته، بمعنى أنه كان بإمكاننا أن نحرقه، والآن لا يمكننا ذلك.

[الشخص نفسه]: وطبعاً عندها سيكون شيئاً آخر، بمعنى إذا تركّب عنصران من الهيدروجين أوجدا مادّة جديدة.

[الدكتور بهشتي]: صحيح، وفي الوقت نفسه تقولون إن الهيدروجين ثابت، فلا بد من الجمع بين هذين الأمرين، أي بين الثبات والتغير، وهو ما نقوله من امتزاج الثابت والمتغير.

فالذي علينا أن نأخذه بنظر الاعتبار هو عدم الغفلة عن النواحي الثابتة في هذا العالم المادي الأعم من الخارجة عن نطاق الزمان والمكان، أو التي يبدو لنا أنها داخلة في الزمان والمكان وهي مع ذلك ثابتة، إذن فالأصل الأول الذي لا بد لنا من الإيمان به هو أنه من الخطأ أن نحصر الواقعية العينية بالواقعية الخاضعة لبعد الزمان والمكان، وكان بالامكان أن تقولوا: إن جميع الاجسام التي نعرفها خاضعة للزمان والمكان، وعندها لما وقع لنا خلاف مع الكثير من المذاهب.

التحول والتغير من وجهة نظر القرآن:

حتى الآن وصلنا إلىٰ ماهية الديالكتيك، وكيف ينبغي علينا أن نفهمه؟ وقلنا إن هذا المصطلح قد مرّ بمعانٍ مختلفة علىٰ طول التاريخ حتىٰ نصل إلىٰ المادية الديالكتيكية، وله أيضاً أنواع مختلفة وهكذا الديالكتيك المثالي الحتمي وغير الحتمي، قد نادى (غوريتش) بالدعوة إلىٰ الديالكتيك التجريبي غير الحتمي في العالم ضد ماركس والآخرين، إذن فلهذه المدرسة أربعة قيود وهي: (الديالكتيك، المثالي، التجريبي، غير الحتمي)، وطبعاً إن غير الحتمي يعني التجريبي.

وأقول هنا إجمالاً: إن القرآن يصرح علىٰ الدوام بالتحول والصيرورة في عالم الواقع الملموس، قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾[1] وهذا دليل علىٰ عدم الثبات، فيمكن للعبد أن يسأل الله شيئاً جديداً، ويغير ما أصابه من ضُرّ، والآيات في هذا المجال كثيرة، فهناك عشرات الآيات التي تتحدث عن تطور الكائنات من موت وحياة في الحيوانات وغيرها، بل حتىٰ الأرض نفسها، وهذا هو التحول والتغير، إلاّ أنّ القرآن نفسه يصرح في مواطن أخرىٰ بأمور ثابتة كما هو الحال بشأن سنة الله، قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[2].

---

(١) سورة الرحمن/ ٢٩.

(٢) سورة الفتح/ ١٨ ـ ٢٣.

وقال أيضاً: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾[2].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[3].

وللأسف الشديد فإن ضيق الوقت لا يسمح لي أن أُلبي رغبتي في بيان الأمور الدقيقة الكامنة في هذه الآيات، إن السنّة في هذه الآيات ناظرة إلىٰ رابطة بين الإنسان والطبيعة والخالق، أو بين الناس ببعضهم ويذكرها بوصفها سنّة لا تتخلف، وكما تلاحظون فقد بين حتىٰ القوانين الحاكمة علىٰ الروابط الاجتماعية بين الناس في الجملة، إذن كما تلاحظون فإن القرآن يؤكد علىٰ الجانب المتغير كما يؤكّد علىٰ الجانب الثابت، فإن الجمع بين الثابت والمتغير هو الذي يساعدنا علىٰ الوصول إلىٰ خالق العالم وموجد الطبيعة المتغيرة من خلال تلك الاستنتاجات الواضحة، هذا من ناحية إجمالية، وأما تفصيلها فلا يدخل ضمن بحث المعرفة، وإنما لا بد من بحثه في محله، فإن أصل المسألة بمعنى الالتفات إلىٰ التطور في هذا العالم من الموت والحياة موجود في القرآن بأجمعه. ونحن لا نبحث في مصطلح الضد والنقيض، فإنهما من الأبحاث اللغوية والاصطلاحية كما يدخلان في البحث الفكري والتحليلي، وأنَّ ما يعتبره هؤلاء نقيضاً، هو نقيض أم لا؟ أو ما يذكرونه من اجتماع الضدين هل يختلف عن اجتماع الضدين عند أرسطو أم لا؟ فهذه بحوث لا شأن لنا بها حالياً. وإنما الذي يهمّنا ما يقال من أن

(١) سورة الأحزاب/ ٦٠ ـ ٦٢.

(٢) سورة الإسراء/ ٧٦، ٧٧.

(٣) سورة فاطر/ ٤٢.

كل شيء يحمل في ذاته بذرة ضده، فإن كان مرادهم في عالم الطبيعة فهو ما يقوله القرآن وأرسطو أيضاً، حيث يقول أرسطو: إن كل فعلية في عالم الطبيعة تحمل قوة فعلية تالية، بمعنى أن كل شيء فيه قابلية التحول إلىٰ شيء آخر.

[أحد الأشخاص]: وبذلك يمكن الاستشهاد للماديين بالآيات القرآنية، ولكن كما نعلم لا بد من الاستفادة من المصطلحات الموجودة في المادية الديالكتيكية في مباحثهم وحواراتهم.

[الدكتور بهشتي]: لاحظوا، أننا قد آمنا بتطور عالم الطبيعة بهذا النحو الديالكتيكي أكثر منهم، بل هذا ما عليه القرآن الكريم والفلسفة الأرسطية والفلسفة الإسلامية أيضاً، وإنما الذي نرفضه هو أن يكون الشيء حاملاً بذرة نقيضه، وتفسير التطور بهذه الظاهرة، ونفي القوى الخارجية، فهذا ما لا نرتضيه، ونقول: ليس في ذات الشيء سوى القوّة التي يمكنها أن تصل إلىٰ مرحلة الفعلية، وتحتاج في ذلك إلىٰ محرك وحافز، لأَنَّ الحركة بحاجة إلىٰ محرك، فخذ مثلاً حبّة الحنطة، فإن فيها قابلية التحول إلىٰ سنبلة، وهذه القابلية كامنة في ذاتها، ولكن إذا تركت هذه الحبّة في الفضاء وحجبنا عنها النور والرطوبة وجميع ما يساعدها علىٰ النمو، فهل سيمكنها بعد ذلك أن تتحول إلىٰ سنبلة؟ بالطبع لا، فمجرد القدرة علىٰ التحول ليس كافياً في حصول التحول، بل لا بد مع ذلك من تدخل العوامل الخارجية أيضاً، وهكذا قل بالنسبة إلىٰ جميع الأمور في الطبيعة، وإن كان البعض يعترض علينا بأن هذا المثال يصدق بحق حبّة الحنطة ولا يصدق بالنسبة إلىٰ الطبيعة كأمر كلي، ولست أدري بأي منظار ينظر هؤلاء إلىٰ الطبيعة! وعلى كل حال، فكما قلت: لا أريد الخوض في هذا البحث حالياً، وإنما أردت فقط التنويه إلىٰ أننا في بحث معرفة الطبيعة نؤمن أيضاً بمسألة الصيرورة والفناء والكون والفساد في عالم الطبيعة علىٰ طريقة المادية الديالكتيكية. . . فهذه من المصطلحات القديمة في الفلسفة الإسلامية، إذ لا يصدق الكون

من دون فساد، وقد تمّ التطرق إلىٰ هذه المسألة سابقاً، علىٰ الخصوص في ضوء الحركة الجوهرية التي تؤمن بأن جميع ما في عالم المادة والطبيعة في حال حركة واسعة تشمل جميع الظواهر والحقائق، ولست بصدد اثبات صحة هذه النظرية أو خطئها، وإنما الذي أريد قوله هو أن هذه المسألة ليست شيئاً جديداً، ونحن لا نخالفها؛ إذ هي لا تقف تجاه تفكيرنا الإلهي والفلسفي والقرآني، بل ونوافقها أيضاً حيث قال تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وإنما الذي نعارضه هو أن تكون هذه القابلية كامنة في ذات الشيء نفسه دون تدخل من الخارج، إذن يتضح أننا في نظام المعرفة ندرك الصيرورة وأحكامها ولوازمها وتأثيرها علىٰ المعرفة، إذن لماذا أُصبنا بالجمود الفكري؟ لأننا كنا نعرف جانباً من الصيرورة، فبادرنا إلىٰ قياس كل الجوانب عليه، فأجرينا حكم المجهول علىٰ المعلوم أو أسرينا حكم المعلوم علىٰ المجهول، وهذا ما قاله (غوريتش) لماركس، إذ قال: (إنك في كلامك هذا وقعت أيضاً في نوع من الحتمية) ونحن بانتظار أن يتعرض (غوريتش) نفسه إلىٰ نقد من هذا النوع، وهذا هو ما قاله القرآن في بحث المعرفة حيث منع من إسراء أحكام المعلوم إلىٰ المجهول، ومنع من اتباع الظن والأوهام، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾[1] إذن ليس الكلام في نفي الكون والصيرورة أو نفي أحكامها أو خصائصها، وإنما الكلام في أن هذه الصيرورة كانت في جزءٍ من العالم، ولكنكم عممتموها علىٰ جميع الأشياء وحكمتم بعدم وجود الواقعية التي لا تتطرق الصيرورة إليها.

[أحد الحاضرين]: يذهب الماديون إلىٰ ضرورة دراسة كل ظاهرة مع الأخذ بنظر الاعتبار بقية الظواهر، ويقولون: إن القوة الداخلية هي بمثابة العلة والقوة الخارجية هي بمثابة الشرط، والكلام هو في أن أيهما له الكلمة

---

(١) سورة النجم/٢٨.

الفصل، فهل هي للعامل الخارجي أو الداخلي؟ وإلاّ فليس هناك خلاف في الاحتياج إلىٰ كلا العاملين والقوتين الداخلية والخارجية.

[الدكتور بهشتي]: نعم، صحيح، دار البحث في أننا نعتبر العامل الخارجي محركاً أو شرطاً؟ فهذا بحث له موضوعه الخاص به، وهو يقوم علىٰ أساس المقارنة بين الشيء وما يحيط به وفقاً لمتبنيات التفكير الاجتماعي، ومن خلال قياس جزءٍ من العالم بما يحيط به، ولكنهم ماذا يقولون بشأن العالم بأجمعه؟

إنهم لا يقولون بالشرطية ولا بغيرها، في حين أن بحثنا كان يقوم علىٰ أن دراستنا تدل علىٰ أن أصل اشتمال الموجود علىٰ قابلية التحول إلىٰ الضد لا يكفي في وقوع هذا التحول، بينما يكتفي الخصم بمجرد وجود هذه القابلية، وذكرنا مثالاً لذلك، وقلتم إن المادة تحتوي علىٰ هذه الصفة، فما هو حكم شرطها الخارجي؟ فإن اذعنتم بشرطها الخارجي فهذا يعني أنكم آمنتم بواقعية خارج الصيرورة. وإن اختلافنا الكبير يكمن في استغناء هذه الصيرورة عن أي عامل خارجي ـ سواء أكان علىٰ نحو الشرطية أم علىٰ نحو العلة الأصلية ـ أو عدم استغنائها، ونحن نذهب إلىٰ عدم استغنائها، ولسنا هنا بصدد البرهنة علىٰ ذلك لأننا نروم فقط بيان الاختلاف في بُعد المعرفة فيما بيننا وبينهم، وأما أيهما هو الصحيح فله بحث آخر.

فهرس


بسم الله الرحمن الرحیم